HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

محمود عمر زقزوق

أُمي زينب

فصلة
للنشر والتوزيع

ملحد زينب

محمود عمر زقزوق

دار فصلة للنشر والتوزيع

تدقيق لغوي: إيمان سامي
تصميم الغلاف: إسلام البلاط
رقم ايداع: 2016/25442
ترقيم دولي: 978-977-6594-04-3
دار فصلة للنشر والتوزيع
العزيزية - منيا القمح – مصر
00201067000701
fasla.pub@gmail.com
www.fasla.org
مدير عام: عمر الحضري - مدير النشر: محمود محي الدين
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظه
الطبعة الأولى يناير 2017
جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر والتوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائلة القانونية

مقدمة

عزيزي القارئ: أنت بطل هذه الرواية، اكتشف نفسك بداخلها إن أردت...

إهداء

إلى الصديق الشهم أحمد رضوان صاحب جروب ومكتبة كتابيكو على مواقفه الطيبة وإهداء إلى ناقدي الاول أخي اسلام عمر الذي كان يجعلني أعيد ما كتبت مرات عديدة، اهداء إلى ابنتي وأختي الصغيرة خلود عمر، وإهداء إلى كل قارئ سيقرأ هذا الكتاب ويحاول ان يضيف شيئًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدِمَ أمـامنا الشـيخ عاصـم يـا أصـحاب هلمـوا لنستقبله، نطـق بـها شـيخ شـاب متعمـم لرفاقـه المتعممـين، وذهبـوا جميعًا لاستقبال شيخهم، وأول ما وصلوا إليه، منهم من انحنى على يديه يقبلها وهو يمنعه بقوة، ومنهم من حاو ل حمل حاجياته وهو يأبى، حتى دخلوا إلى بهو المسجد، صلى الشيخ ركعتين ثم جلس والتف حوله تلاميذه من شباب الدعوة، ونظر لهم مليًّا وهو صامت، ثم استفتح كلامه بعد أن سمى الله، وقال لهم:

إن قابلتم رئيس الجمهورية ماذا ستفعلون؟

رد أكبرهم: ماذا نفعل يا شيخنا؟

الشيخ عاصم: كيف تستقبلونه؟

أكبرهم: نلاقيه بالاحترام والتقدير للمكانة ونقف كما تعلمنا.

الشيخ عاصم: إذن لن تقبلوا يده أو تحملوا عنه أشياءه أو تظهرونه في مظهر الخيلاء، أريد أن يكون هذا تعاملكم مع من هو أكبر منكم سنًا أو مقامًا، لا قدسية لإنسان، لا تقلل من نفسك، ولا تُسيّد مخلوق عليك، وقد حاضرتكم سابقًا عن منع قول كلمة "يا سيدنا".

رد أكبرهم: يا شيخنا الجليل هناك حكمة تقول: "من علمني حرفًا حفظت له الجميل"، أما عن تقبيل اليد لم يمنع سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) الصحابة من تقبيل يده ولم يقتصر الأمر على رسول الله بل امتد للصحابة؛ مثل هذا الموقف: حينما ركب زيد بن ثابت (رضى الله عنه) راحلته، فأخذ بن العباس بركابها، فقال زيد: تنحّ يا ابن عم رسول الله، قال: هكذا أمرنا رسولنا أن نفعل بعلمائنا وكبرانا، فقال زيد: أرني يدك، فأخرج بن العباس يده فقبلها زيد، وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسولنا (صلى الله عليه وسلم). رواه بن سعد في الطبقات (٢/٣٦)، والذهبي في السير (٢/٤٣٧).

كيف بعد كل هذا لا نقبل يدك ولا نبجلك؟ وأنت عالمنا الأكبر الذي على يديه تجدد شباب الإسلام وزاد علمنا منك.

الشيخ عاصم: نعم يا ولدي لم ينهَ رسولنا (صلى الله عليه وسلم) عن تقبيل يده ولم يأمر بهذا، وهو خير الخلق لا تجوز مقارنته بأحد وابن العباس كان من آل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والصحابة رجال من الجنة، ولا يوجد بعدهم من هم في منزلتهم، وقد وضع الإمام ابن مالك عادة تقبيل اليد في منزلة الكراهة وأنكرها تمامًا، لأنها تؤدي للكبر ورؤية النفس. المرجع: أبو حسن المالكي في كفاية الطالب (٢/٦٢).

أما لو رددنا الأمر إلى العقل والعصر الذي نحيا فيه، كيف ندعو غير المسلمين إلى الإسلام وهم يرونا نفعل أشياء يمقتونها ويعتبرونها دونية؟ انظروا للغرب وحجم المساواة الظاهرة، ولا وجود لأي هالة قدسية تخلع على أحد أو سيادة لأحد، كيف ندعوه للإسلام إذن؟ ونحن نجعل للآخر سيادة سواء كان ملكًا أم عالمًا ورسولنا حينما دعا الناس للإسلام كان ليخلصهم من العبودية، لا ليأتي بسيادة لنفسه ولا لأهل العلم، فلا قدسية ولا عصمة لمخلوق، كلنا متساوون، أنهى الغرب السلطة الدينية والدنيوية، واتجهوا إلى الحرية المطلقة نحن إذا أردنا دعوتهم للإسلام نريهم كمال الإسلام وجماله في المساواة والحرية النافعة والخير للناس، لا تذكرونهم بالثيوقراطية

(العنصرية الدينية) التي كانت منتشرة في عصورهم الوسطى، لن تستطيع إقناع شخص بالدين إلا إذا جعلته يراه شاملًا ليس به استثناءات، ولن تقنعه بكلماتك بل بتصرفاتك، متساوون كأسنان المشط، ونحن رسل الإسلام في عصرنا الحالي.
رد أكبرهم: يا شيخنا إننا نعيش في عصر اضمحلال، عصر موبوء، أنت النسمة التي تلفحنا في قيظ الضلال والفساد المحيط بنا من كل جانب، أتستكثر علينا أن نبجلك ونعظمك، ألم تر التي يسمونها فنانة الفاجرة الكافرة التي تدعو للرذيلة في الطرقات كيـ...
قاطعه الشيخ عاصم: انتظر يا ولدي، لماذا قلت عليها كافرة؟
أكبرهم: إنها تدعو للرذيلة علنًا يا شيخنا.
يا ولدي من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ولم ينكر شيئًا من القرآن والسنة؛ فهو مسلم وإن كان عاصيًا، لا تكفّر شخصًا بدون حجة قاطعة، وتردّ الأمر لأصله، وإلا جاء عليك حجة يوم القيامة وتبوء بذنب عظيم.
أكبرهم: استغفر الله العظيم ادعو لي يا شيخنا.
الشيخ عاصم: غفر الله لنا ولك، أنت ألهمتني موضوعًا لدرس اليوم، سوف أحكي لكم قصة شاب ملحد.
ترددت همهمات بين الطلبة، هناك من استعاذ بالله، وهناك من حمد الله على نعمة الإسلام، وهناك من دعا بالتثبيت، وهناك من قال قبّحه الله.
التقطت أذنا الشيخ عاصم قول قبّحه الله، فقال: يا ولدي ويا كل أولادي حينما أرسل الله –عز وجل- نبيا الله موسى وهارون (عليهما السلام)، قال لهما - اذهبا إلى فرعون إنه طغى (٤٣) فقولا له قولًا ليّنًا لعلّه يتذكر أو يخشى (٤٤) - (سورة طه)
ألا تروا معي قول الله –عز وجل- قولًا ليّنًا لمن؟ لفرعون! وهو الكافر الطاغي الذي يحسب نفسه إلهًا، ونحن الشيوخ نور الإسلام في العصر الحالي كثير منا لا يدعو بالطريقة الحسنة والصوت الحازم اللين الرقيق؛ بل منا من يسب، ومنا من يدعو على من اختلف معه في الفكر وليس الدين فقط، ومنا من يلعن المخطئ العاصي المُصر على الذنب، نحن ورثة الأنبياء واجب علينا أن ندعو بالحسنى مهما طال الأمد، لقد ظل سيدنا نوح (عليه السلام) يدعو قومه تسعمائة وخمسون عامًا وهم كفار، بالحلم والأناة والصبر، وأنت في لحظة دعوت أن يقبح الله وجهه ولم تبذل جهدًا في دعوته.
يا ولدي أنتم أمل الدين الصحيح، أحلم أن أرى فيكم رسلًا للإسلام، منابر للحق والرحمة، قضاة بين الناس لا على الناس، تهدوهم للتي هي أقوم لا تسبوا عاصٍ أبدًا، ولا تكفروا إنسانًا مسلمًا -ما لم ينكر شيئًا من القرآن والسنة- يشهد الشهادتين، تذكروا ما زاد الملحدين والعصاة إلا بسبب الشيوخ المتنطعين في الدين، ويلٌ لأمة شيوخها متنطعين، ومعلميها مخرفين ومثقفيها منحرفين.
وإليكم قصة الشاب الملحد:
أريدكم أن تجعلوا قصة الشباب الملحد أمام أعينكم دومًا درسًا بليغًا يفيدكم في حياتكم العملية.
كان هناك شاب اسمه جاسر وُلد في أسرة ميسورة جدًّا من التي تسمى (أرستقراطية)، وكان شديد الذكاء والنبوغ، ووحيد أبويه، رزقه الله بكل المرفهات التي تتخيلونها ولا تتخيلونها، وأسبغ الله عليه من نعمه، فكان وسيمًا قويًّا لمّاحًا ضحوكًا، الدنيا ببساطة بين يديه، وهو طفل لاحظ معلموه

العبقرية التي يتمتع بها، فنصحوا والديه بإرساله لأمريكا أو أوروبا ليتم تعليمه هناك أسرع وأكبر، لأنه يفوق كل أقرانه، وبالفعل أخذ والدي جاسر بنصيحة المعلمين وأرسلوه إلى الولايات المتحدة الأمريكية عند خاله، ليكمل تعليمه هناك؛ ومن هنا تبدأ حكايته.

عاش جاسر مع خاله المهندس الناجح العبقري الذي هرب من مصر بعد قضية سياسية واتهامه بازدراء الأديان، فهو لم يؤمن في مصر بشيء إلا التخلف والجهل والعادات الدينية القديمة، والتصرفات الغريبة الشاذة عن الدين، التي بدلًا من أن يعتبرها استثناء اعتبرها الأصل في الإسلام، واعتبر أن الإسلام سبب التخلف في الأمة العربية، ولم يجد الحياة التي يريدها، والحرية اللامتناهية إلا في الغرب، نظرته للإسلام كانت الكثير من الحرام، القليل من الحلال؛ لكن حريته في اللهو والعبث خارج الإسلام ما دام لا يؤذي أحدًا، إيمانه بالعلم والتجريب فقط والشيء الملموس، والسببية هي محركه الأول، لكن كل الغيبيات بالنسبة له ترّهات وخزعبلات، لأنها بدون دليل مادي من وجهة نظره، ورُبِي جاسر على هذا، وجاسر تفوق في شتى المجالات ونبغ بشدة، ومع كل نبوغه وتفوقه كانت أفكار خاله تُغرس فيه كخناجر مسمومة، حتى ابتعد عن الدين تمامًا وكفر به وتغيرت فطرته، حتى حينما يعود في الإجازات لبلده مصر كان لا يجد من يسأله عن دينه، سواء وهو طفل أو وهو شاب، ولا يجد من يصلي أو حتى من يسأله عن صلاته.

ظل يشق طريقه في العلم حتى حصل على ما يعادل الثانوية العامة المصرية، وهو لم يكمل الثالثة عشر من عمره، وقرر أن يدرس في كلية العلوم والهندسة مثل خاله، وتفوق أكثر وأكثر لدرجة أن كل أساتذته من أكابر علماء الفيزياء كانوا يتوقعون أن يكون أينشتاين جديد أو نيوتن، وأتم الماجيستير والدكتوراه وعمره لم يكمل الأربعة والعشرين عامًا، مرض والده مرضًا شديدًا مزمنًا، وترجّاه أن يعود لمصر ليكون بجواره، ووافق رغم المستقبل الباهر الذي ينتظره، ليكون بجوار والده الذي يحبه جدًّا، ويأخذ هدنة بسيطة ثم يعود لأمريكا، ونُقل عمله إلى الجامعة الأمريكية في القاهرة، وبدأ عمله كأستاذ في الجامعة الأمريكية في كلية العلوم والهندسة وهو في هذا السن، وبكل هذه الوسامة يدرّس لطلبة من سنه أو أصغر قليلًا.

وكان بالطبع بالنسبة للطالبات أفضل حبيبًا وزوجًا محتملًا يمكن أن تحصل عليه أي فتاة، لكن الحب كان بالنسبة له عملية جنسية ومتعة فقط، وغالبًا كانت الكثيرات يوافقنَّ ويرضخنَّ إن طلب، وهو لم يكن يطلب؛ بل هنَّ اللاتي كنَّ يطلبنَّ حبه أو حتى جسده.

وفي ذات يوم وفي العام الدراسي الجديد وجد أمامه فتاة بسيطة جدًّا تختلف عن كل الأخريات في الفصل الدراسي، رغم بساطة ملبسها إلا أنه أنيق، خمرية بلون نيل مصر، لبسها فضفاض رغم أنها لا ترتدي النقاب، لا يتناسب مع موضة العصر لكنه جذاب، تبتسم بتخفي رغم بشاشة وجهها، قوامها الممشوق وكبرياؤها يلمع في عينيها رغم تواضعها البادي.

وعرف أن اسمها زينب من بلد ريفي بعيد نسبيًّا عن القاهرة، وأنها من أوائل الثانوية العامة، وحصلت على منحة دراسية في الجامعة الأمريكية.

وقف مرة بعد المحاضرة يسألها عن اسمها، وعن ماذا تكتب؟ وهو سارح في عينيها العسليتين ويحاول اختراقها، وهي تجاوب بكل هدوء وهو لا يعير أجوبتها انتباهًا؛ بل يركز كل حواسه بها، وكل ما يشعر به أنه أمام شخصية مختلفة وقورة هادئة متزنة، بحكم حياته وسفره ومن يحتك بهم، لم يصادف لها مثيلًا، وأعجبته هذه الفتاة الراجحة العقل التي أبهرته بتحديد أهدافها، وهو يتذكر آخر جملة قالتها: إن أهدافي محددة جدًّا، أتمنى أن أصبح من أكبر العلماء، وأن أفيد الأمة

الإسلامية والعربية وبلدي، ونكون وقود التقدم مهما كان الواقع، ولا بد من تغيير الظروف قبل تغيير الإنسان كما فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو قدوتي الأكبر.
ظل يتابعها في صمت ويحاول أن يلفت انتباهها في أي محاضرة يلقيها، حاول التقرب منها ليعرف تفاصيل حياتها، وكل مرة تتعامل معه على أساس أنه هو المعلم وهي الطالبة الاحترام والعلم بينهما فقط، لدرجة أنه بدأ يبدل تعامله معها من الثناء الدائم إلى القسوة عسى أن تسأل لماذا يفعل هذا معها؟ لكن الغريب أنها لم تلتفت لهذا أو يغير ما بداخلها، كان عقلها مشغولًا، ولا تلتفت لأي شيء إلا لشيء واحد هدفها الكبير هو التفوق والنبوغ، وكان الهدف يشغل كل بالها لا يعطي المجال لملاحظة أي شيء، وكل ما يهمها أن ترضي الله وأسرتها، فكيف لها أن تشعر بالحب أو الالتفات لأشياء صغيرة أو علاقة عابرة؟
ظل على مدار النصف الأول من العام الدراسي يحاول الاقتراب منها، ويحاول حتى فشل بدرجة جعلته يهتز، لدرجة أنه تخلى عن وقاره وأخذ يبحث عن فتاة مقربة إليها أو زميلة لها يتعرف عليها، ليعرف كل شيء عنها؛ لكن لم يجد لها صديقة مقربة أبدًا، ليس لأنها غير اجتماعية، فهي بشوشة جدًّا مع زميلاتها، ويلاحظ هذا القاصي والداني؛ لكنها تكتفي بأقل القليل من الكلام والعمل يشغلها أكثر، وهي لا تحب أن تتأثر بالأشياء الغريبة عنها، ما دام ليس في محيط أهدافها.
لكنه تصرّف كشاب مراهق وتتبعها حتى البيت الذي تسكن فيه داخل حي شعبي بسيط، وذهب إلى المرأة التي كانت واقفة معها وتبيع خضار في السوق، وتصنّع أنه يشتري خضارًا منها، ليسألها عن هذه الفتاة، وأنه يود أن يتقدم لها، وأخبرته أنها من محافظة من محافظات الدلتا ومن قرية صغيرة، ووالدها متوفي، وأمها التي ربتها، وهي تقيم هنا عند خالها، وتعود لقريتها يومي الخميس والجمعة، وأنها ملتزمة جدًّا ومتفوقة جدًّا، وكما يقولون في حالها تمامًا.
وبعد حيرة وصراع مع النفس قرر أن يصارحها بإعجابه بها، خصوصًا بعد أن مرت إجازة منتصف العام طويلة مملة باردة، وهو يشعر بشوق والتياع لرؤية هذه الفتاة، التي لم تهتز له لحظة، وحينما بدأت الدراسة وفي أول محاضرة طلب منها الانتظار بعد المحاضرة، لأمر مهم يخص بحثًا قامت به.
انتظرت بعد المحاضرة وقالت: ما الأمر يا دكتور؟
جاسر: بحثك أكثر من رائع ويحتاج شرحًا طويلًا، وأنا ليس لدى وقت حاليًا، أعطني رقم هاتفك حتى أشرح لكِ في المساء، وأنبهك إلى بعض الأخطاء.
زينب: آسفة يا دكتور أمي عاهدتني على ألا أعطي رقمي لأي رجل كان وأنا لا أخالف عهدها أمام الله.
جاسر: ما هذا التخلف؟ نحن في القرن الحادي والعشرين وأنتِ تقولي عاهدتي أمك ألا يأخذ أي رجل كان رقمك!
زينب: شكرًا يا دكتور على الإهانة؛ لكن دعني أسألك؛ ما وجه التقدم في أن تأخذ رقمي وتحادثني في الهاتف؟
جاسر: وجه التقدم أن تكوني اجتماعية، وأن تزدادي علمًا، وأشرح لكِ ما ينقصك، وأصحح أخطائك.
زينب: سامحني فيما سأقول لأنهم يقولون إني في الحق كالدانية، لا أخشى في الحق لومة لائم، هل ستشرح لكل طالب وطالبة معنا في الفرقة أم أنا فقط؟ وأنت قلت منذ قليل وقتك مشغول جدًّا وليس

لديك وقت للشرح هنا! يا أستاذي الفاضل نبهني ما هي أخطائي هنا، وأنا أحاول إصلاحها والبحث عن الصواب بنفسي في المكتبة، ولا داعي لحوار صراع التقدم والتخلف لأني لست مثلك، جمال الناس في اختلافهم، ولن ألومك على تفكيرك.
نظر جاسر لها وهو يكاد يميز من الغيظ، خصوصًا أنها طعنته في فكرة حرية الاختلاف، ثم تصنع القيام بوضع نقاط وهمية على البحث، وقال:
- ركزي هنا يا آنسة وأعيدي هذه النقاط
- زينب: شكرًا يا دكتور، وحملت أوراقها وانصرفت.
وقف جاسر مكانه يفكر ماذا يفعل مع هذه الفتاة؟
حتى قرر أن يتجاهلها تمامًا، لعل وقتها تشعر بفرق المعاملة وتحتاج إليه.
وبالفعل نفّذ ما أضمره بداخله، كان ينادي الجميع بأسمائهم إلا هي يقول لها يا آنسة فقط، ويبتسم مع الجميع إلا هي، ويتصنع معها التجاهل والتهجم، ولم تهتز أو تتغير أو تفقد ثقتها بنفسها قيد أنملة؛ بل ظلت قوية راسخة تجري خلف حلمها، لا تلتفت لأي معوقات حتى لو كان الألم يعتصرها، وكل ما يشغل بالها أن ترضي ربها وتسعد أمها.
شعر جاسر بالعجز والألم هل آن أن ينكسر كبريائه ويذهب ويصرّح لها برغبته؟ وهو الذي لم ينكس رأسه لفتاة حتى، ولا أبهرته واحدة، كلهنَّ عنده سواء، إلا تلك الفتاة يشعر أن بداخلها شيء غريب؛ لكن قرر بعد صراع مع النفس أن يصارحها برغبته.
في اليوم التالي قبيل انتهاء المحاضرة نظر جاسر لزينب وقال: زينب انتظري بعد المحاضرة لتأخذي تقييم بحثك النهائي.
زينب: حاضر يا دكتور.
بعد انتهاء المحاضرة بدأ بالكلام: أنا لم أطلب منكِ البقاء كما قلت؛ بل لإني أريد شيئًا آخر.
زينب: وما هو يا دكتور؟
جاسر: أنا معجبٌ بكِ.
زينب: أعتقد حضرتك دكتور كبير لك اسمك وسمعتك، وقدوة نرى فيك القائد والمثال الذي نحبه، وبالتأكيد أنت لا تقصد هذا الكلام الصبياني والعلاقات الغريبة لأنك بالفعل قائد وقدوة لنا.
وحملت زينب أشياءها وخرجت، وصفعت الباب بقوة خلفها، شعر أن الصفعة تنزل على خده هو وليس الباب.
وإحساسه أن الحزن يقتلعه من مكانه، كأنه جذع شجرة جوفاء تتحول لهشيم يتمنى أن تذروه الرياح، أي نار ألقى نفسه بداخلها، أي مرض أصيب به، لا بد أن يتخلص من المرض بتلك الفتاة حتى لو قام بجراحة صعبة، ومرت الأيام وهو يحاول عدم الالتفات إليها أو حتى النظر لها، ويحاول التماسك، وأن يجعل قلبه يتحجر ولا ينظر إليها، لكن هيهات لقلب أُصيب بمرض الحب أن يُشفى من مرضه بهذه البساطة.
حتى إنه ذات يوم قرر أن يفعل شيئًا مجنونًا تمامًا لا يتناسب مع شخصه، حيث قرر أن يوقفها خارج الجامعة وهي تنتظر أي وسيلة مواصلات لأنها لا تملك سيارة.
وحينما خرجت أوقفها وقال:
-تحسبين أني أريد أن أتزوجك، وأنتِ تتدللي أكثر وأكثر حتى أقول لكِ يومًا "حددي ميعاد مع والدتك"، لا يا فاتنة أنا لست مؤمنًا بالزواج، أنا أريد حبك، أريد اللقاء السري متى أردتك بين

أحضاني ملكة إلى الأبد، نظرت له زينب وهي تتصنع القوة؛ لكن غلبتها عيناها، وذرفت دمعة وهي تقول بداخلها: ألهذا الحد يراني رخيصة جدًّا؟
ثم تنفست بعمق ونظرت له أحط نظرة احتقار، ودون أن تنبس ببنت شفة تركته وانصرفت.
شَعُرَ كأنه ضُرب بخنجر ذا نصلين في سويداء كرامته، ألهذه الدرجة هو بالنسبة لها لا يساوي كلمة حتى ولو كلمة الرفض؟ وقف في مكانه لدقائق معدودة لا يقدر على الحركة، هو المغرور ذو الكبرياء تدهس كرامته بالتجاهل وبلا ثمن، ثم قاد سيارته وذهب إلى مكان ليحتسي الخمر لأول مرة في حياته، رغم أنه دومًا كان يقول شارب الخمر ضعيف الشخصية غير قادر على مواجهة الحياة، يقتل نفسه بسبب فشله أو يحاول تناسي ضعفه، كان هذا كلامه دائمًا لأي صديق أو زميل يشرب الخمر وهو في أمريكا، وها هو يعلن فشله وضعفه وظل يشرب حتى نقلوه إلى المستشفى، وهو غائب عن الوعي تمامًا.
أفاق في المستشفى ليجد والديه بجواره، وهما غير مصدقين أن ابنهما الوحيد النابغة يصل لهذه الحالة المزرية.
نظر لهما بانكسار وقال: آسف لن تتكرر مرة أخرى.
ظل في المستشفى يومين متتاليين، زاره بعض زملائه في هيئة التدريس وأصدقائه خارج الجامعة؛ لكن المفاجئة الأكبر أن زينب كانت من مجموعة الطلبة الذين قاموا بزيارته وهي تحمل باقة رائعة من الورد البلدي الذي تحبه، وانتظرت حتى انصرف الجميع وقالت له: هل اعتذرت لله -عزو جل-؟
نظر لها باشمئزاز، هو غير مؤمن بوجود أي إله، ولا وجود لخالق، ولا أحد يعرف هذا حتى والديه، وأخذ يفكر هل هي تقصد الخمر أم أمر آخر؟ وهل هي عرفت بهذا الأمر؟ إنه شَرِبَ خمرًا، وقال (بنبرة مستفهم) اعتذر عن ماذا؟
زينب: عن الكلام البذيء الذي قلته لي قبل أن تدخل المستشفى.
جاسر: هل أنتِ قادمة إلى المستشفى لتشمتي بي، وبالطبع تقولين بداخلك مثل معظم المصريين من أعمالهم سلط عليهم.
زينب: والعياذ بالله سأقول لك حديث شريف لعلك تفهمني، عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) -ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفّر الله عنه بها، حتى الشوكة يشاكها-. أخرجه مسلم، والبخاري، ومالك في الموطأ، والترمذي عن عائشة.
أكملت زينب كلامها وجاسر صامتًا، ركّز معي يا دكتور الحديث قال المسلم وليس المؤمن، أي أن أي ابتلاء يمر بنا يكفّر الله عنا به خطايا لذلك دومًا أقول الشعب المصري الذي تسخر منه الآن شعب محظوظ، لأنه من أكثر الشعوب ابتلاءًا، فالله يريد تطهيرهم وليس من أعمالهم سلط عليهم، فهم ليسوا بكفار.
جاسر ممتعضًا: شكرًا فهمت.
زينب محرجة، ولا تفهم سبب امتعاضه: ألف سلامة يا دكتور، سلام عليكم.
خرج جاسر من المستشفى بعد أن أتم شفاءه، وهو مصمم أكثر من ذي قبل على الحصول على هذه الفتاة، لدرجة أنه أهمل أبحاثه ومشروعاته وتفرغ تمامًا لهذه الفتاة وقرر أمور في غاية الجنون:

كانت أول هذه الأمور أنه علق لافتة مضيئة في طريقها بعد الجامعة مرسوم عليها قلب مضيء وبداخله -أحبك يا زينب- وحرف (ج) بالإنجليزي، وبجوار القلب صورة الورد التي أعطته إياه في المستشفى، والكارت الذي كان في الورد كان مكتوب فيه - ألف سلامة لعله بركة من الله-، حتى تعلم أنها المقصودة.
لكن رغم أنها رأت اللوحة المضيئة وفهمت، وهو يثق في ذكائها إلا أنها لم تُعره أدنى اهتمام، حتى قرر أن يقوم بشيء أكثر جنونًا، علم أنها تسافر بالقطار في إجازة آخر الأسبوع، ودفع ثمن استئجار لوحة إعلانات مضيئة ومتحركة، ووضع نفس اللافتة وزاد عليها اسمه صراحة لعلها تستجيب أو تتحرك ويرق قلبها له.
ومشى خلفها يراقبها دون أن تدري، فلما رأت اللوحة اب تسمت؛ لكنها لم تتغير، وظلت كما هي لأن قلبها معلق بالله، ولا يمكن أن تقبل ما حرمه الله.
واستبد به الجنون وقرر أن يقوم بشيء أكثر وقاحة في قاعة المحاضرات، طلب من العمال أن يكتبوا بالورود على لوحة العرض -أحبك يا زينب-.
غضبت زينب جدًّا كيف يشهر بها هكذا، ولم يحترم حياءها، وانسحبت من المحاضرة، وقررت تقديم شكوى لإدارة الجامعة.
وبالفعل قررت إدارة الجامعة قبول الشكوى، وأجرت تحقيقًا مع الدكتور جاسر، وانتهى التحقيق بإدانته وإنذاره، فهذا هو الخطأ الأول له.
خرج جاسر من التحقيق وهو شاعر بالاكتئاب، جرح مس كرامته وهز صورته أمام زملائه وطلابه، شعر أنه لم يعد جاسر؛ بل شخص آخر لا يعرفه، وقرر أن يتقدم بطلب إجازة مفتوحة من إدارة الجامعة، لأنه غير قادر على مواصلة عمله، رغم أنه بقي شهر فقط على انتهاء بحثه وانتهاء الدراسة، ويسافر إلى أمريكا كعادته في إجازته السنوية.
وظل في إجازته يحاول استعادة نفسه وهيبتها، حتى وجد اتصال من زميل له في آخر يوم من الدراسة يطلب ملاقاته لأمر مهم.
وافق جاسر على ملاقاته في مطعم قريب من بيته، وذهب جاسر ليجد مفاجئة في انتظاره، زميله يعطيه خطابًا، ويقول له: هذا لك من زينب، ويقول له: لماذا أخذت إجازة الأمر بسيط، ولا يحتاج لكل هذه الضجة والغضب الذ ي بداخلك، أما عن زينب فالكل أنّبها سواء زميلاتها أو حتى طاقم التدريس على عدم احترامها لمشاعرك وتصرفاتها التي لا تليق، ورأيتها في يوم تبكي في جانب بعيد من شدة اللوم وإحساسها بالذنب.
هنا انخلع قلب جاسر ونظر لزميله وهو غاضب: تبكي!
زميله مبتسمًا: يبدو أنك لا تحبها فقط بل تعشقها، لماذا لا تتقدم لها رسميًّا ربما يختلف رد فعلها.
امتعض جاسر، هو لا يحب أن يعرف أي شخص شيئًا عنه، فكيف لزميله أن يشعر بمكنونات صدره؟ فنهض وشكره واستأذن في الانصراف.
خرج جاسر وهو حائر يريد أن يفتح الخطاب، وفي نفس الوقت يريد أن يلقيه في سلة المهملات، ظل يمشي في الطرقات، وهو لا يدري أين يذهب؟ وعقله يصارع قلبه في صراع مرير، هو ضحيته والحب بداخله يشتعل كالرمضاء؛ لكنها لا تحرقه بل باردة كالثلج، حتى وصل إلى شاطئ النيل بعد أن ظل يمشي بلا وعي، وفتح الخطاب دون أن يعي أنه يفتح الخطاب ليجد بداخله كلمة واحدة فقط... -أنا آسفة-.

شعر بخيبة أمل، كان يرتجي أكثر من هذا بكثير، طوى الخطاب ووضعه في جيبه، وعاد لمنزله وهو يفكر ماذا يفعل؟
يريد أن ينساها تمامًا، وفي الوقت نفسه يريد أن يقترب منها للأبد، حتى قرر أن يهرب من كل هذا، ويقضي أجازته مثل كل عام في أمريكا وسط أصدقائه القدامى، والمتعة والملهاة التي تنسيه مصر وزينب.
سافر إلى البلد التي تعلّم بها وظل يعيش في سفر ولقاءات محرمة، ويحاول أن يفعل كل ما كان يحب أن يفعله ويمتعه؛ لكن لم يمر سوى أسبوعين وشعر أنه يحترق شوقًا إلى زينب، والغريب أنه يشتاق لمصر ولكل خطوة خطاها في طريق الشوق، وكأن حب زينب أنبت حب مصر في قلبه، التي كان يعتبر نفسه غريبًا عنها، ولا يربطه بها سوى والديه، وظل يقاوم نفسه يومًا بعد يوم حتى لا يعود؛ لكن خانته نفسه وأمره قلبه بالعودة لمصر فورًا، ولم يكمل شهرًا وكان عائدًا إلى مصر وسط استغراب شديد من خاله ووالديه، شعر أنه جندي مأسور في معركة مقيد بسلاسل تقوده بلا هدى، إذا فكر أن يقاومها تقطعت أوصاله، فاختار الطاعة اللذيذة.
عاد لمصر والشوق يستبد به كيف يلاقي زينب؟ لكن هذا نظريًّا مستحيل، كيف وهي في قريتها؟ ولا سبيل كي تأتي إلى القاهرة، وهو لا يعرف قريتها، حاول أن يصبر، وكلما مرت الأيام استبد به الشوق وأكل في حناياه، حتى قرر في لحظة أن يخترق النظام الأمني (للإنترنت) شبكة المعلومات داخل الجامعة ويحصل على ملفها، ويعرف من أي قرية هي؟ وبالفعل نجح في الحصول على عنوانها بالكامل، وكان في قرية تبعد عن القاهرة ساعة ونصف، ولا يعرف كيف يصل إليها؟ وقرر أن يستعين باللوحات الإرشادية، وبالطبع في دولة لا تخطط جيدًا لا بد أن يتوه ويعاني بشدة، لكي يصل إلى مبتغاه، وبعد أن وصل إلى المركز الذي تتبعه قريتها، سأل بعض السائقين كيف يصل إلى هذه القرية، الكل تطوع لكي يصف له الطريق بكل شهامة ومروءة، حتى جاء سائق وقال له: انتظر حتى أحمل سيارتي وامشي خلفي، فأنا ذاهب إلى هناك.
شكره، وبدأ يسير خلفه، وهو يسب في الطرق المصرية، بين القرى بالذات عبارة عن أرض ترابية غير مُعبدة وإن كانت مُعبدة هي ترج السيارة رجًا كأنها تصعق بكهرباء الطرق، وكلما مشى قليلًا أخذ يلعن تخلف المصريين والمسلمين، حتى وصل الرجل الذي يدلّه إلى القرية، وأشار إليه أن هذه القرية التي يريدها.
جاسر: عرفت من اللوحة المكتوبة على مبنى المدرسة أن هذه القرية المقصودة شكرًا لك.
السائق: لمن تريد أن تذهب لكي أصف لك بيته أو أدلك عليه، نحن هنا نعرف بعضنا بعض.
قال جاسر: اسمها رباعيًّا كما هو مكتوب بملفها في الجامعة.
اندهش السائق وقال: إنها زينب بنت أخي، ماذا تريد منها؟
شعر جاسر بالصدمة والحنق والموقف الحرج الذي وقع فيه، لكن بسرعة بديهة قال: أنا أستاذها في الجامعة، وهناك بحث مهم ستقوم به مجموعة من الطلبة هي من ضمنهم، وقد تغيرت قواعد البحث تمامًا، ولا توجد وسيلة اتصال بها نهائيًّا لأنها لم تترك رقم هاتف في الجامعة، فأرسلتني إدارة الجامعة لأخبرها بنفسي، لأني المشرف على البحث، ولأنها طالبة متفوقة جدًّا.
السائق: الأمر كذلك إذن امشي خلفي حتى نصل للمنزل.
مشى جاسر خلفه حتى وصلا للمنزل، وهناك رَكن سيارته خلف السائق الذي سبقه إلى المنزل، وظل جاسر واقفًا بمكانه حتى يدعوه إلى الدخول ولاحظ أن أم زينب تعجبت من مجيء عمها،

حتى سمعه يقول: الدكتور قادم من القاهرة لأمر يخص دراسة ابنتك.
طلبت منه إدخال الدكتور جاسر وذهبت لتخبر زينب.
دخل جاسر المنزل، ليجده بيتًا بسيطًا جدًّا لم يسبق له أن دخل مثل هذه البيوت في أي مكان، هو لا يعرف حياة المصريين ولا حياة الفقراء عامة أو حتى الطبقة الوسطى، وبالتالي كان بيت شبه ريفي يمثل له أمرًا مبهرًا جدًّا وجديدًا، أخذ يتأمل أركان البيت كأنه يخترق الجدران بعينيه، ليرى ما خلفهما، ويرى كيف عاشت أميرته؟ حتى انتزعه صوت عمها تفضل بالجلوس كررها مرتين حتى أفاق على صوته العالي في الثالثة.
وجد نفسه يجلس على أريكة كان يحسبها من الفولكلور المصري في غرفة شبه منفصلة عن المنزل، ويجلس بجواره عم زينب، وهو في موقف لا يحسد عليه.
حتى دخلت زينب، وجد نفسه يبتسم لا إراديًّا، كأنه يقول اشتقت إليكِ، وألقت زينب السلام وبعد أن رد السلام قال متداركًا: لقد جئت إليكِ بخصوص البحث في تأثير النظرية النسبية لأينشتاين على شرح الخواص الفيزيائية للبعد الزمني ومدى ثباته بتباين السرعات.
نظرت له زينب مندهشة، وهي لا تفهم ماذا يقول؟ وهذا الكلام الغريب غير المترابط، وأي بحث يتحدث عنه، ليس لدي أي أبحاث، شعرت أنه يهذي وقالت: لا أفهم يا دكتور.
جاسر: أحضري ورقة وقلم وسوف اشرح لكِ في عجالة.
ذهبت زينب وأحضرت الورقة والقلم، وأعطتهم لجاسر وجلست قبالته على كرسي من الخيزران الريفي البسيط، كتب في الورقة سطرين وأعطاها لزينب.
ابتسمت زينب بعمق من داخلها وهي تقرأ السطرين المكتوبين، وتحاول أن تداري بسمة شفاهها أمام أمها وعمها، وكان محتوى الورقة (أرجوكِ لا تفضحيني أنا جئت هنا كي أراكِ؛ لكن سوء حظي أوقعني في عمك، وأصبحت في موقف محرج، ولن تتكرر مرة أخرى، وقلت لنفسي أن اخترع أي كلام لأُغطي الموقف).
وعقبت زينب بعد أن فهمت الموقف تمامًا: أعتقد أنها نظرية خاطئة جدًّا، لا يصح أن تحدث فيزيائيًّا، وقالت الصواب اصطلاحيًّا باللغة الإنجليزية ونطقت جملة طويلة كان معنى هذه الجملة أنها لن تفضحه؛ لكن لن تسمح بتكرار هذا أبدًا حتى لو تركت الجامعة.
جاسر يرد بالإنجليزية: أنا أعتقد أن النظرية صحيحة تمامًا، وكل العلماء اعتبروها من أصول الفيزياء.
زينب: أحيانًا كلام العلماء يتعارض مع كلام الله، وفي هذه الحالة ليذهب كل كلام العلماء إلى الجحيم، ويبقى كلام الله، ولا نقاش ولا جدال في هذا.
جاسر بالإنجليزية: كل أمر قابل للنقاش والجدال حتى الدين نفسه.
زينب بالإنجليزية: نعم يا دكتور؛ لكن بمجرد وصولنا للحقيقة ينتهي الجدل، وهذا الأمر بالنسبة لي حقيقة تامة لا تحتمل الجدل، ولا أريدك أن تغير أفكاري ومعتقداتي التي لا تتناسب معك، أو أنك تريد هذا، احترم حريتي كما تريد من الناس احترام حريتك، وهذا ما ينادي به مفكري العلمانية والحرية، إذن لماذا يبتغي البعض نزع حُريتي في معتقداتي وأفكاري، أليس هذا تناقضًا بشعًا.
جاسر: ربما أفكارك غير صحيحة وتحتاج للمراجعة.
زينب: وربما أنت ترى الحقيقة أو ما تقتنع به هو الحقيقة، ولا تريد أن ترى حقيقة سواها، أنت حر لم يتدخل أحد في أفكارك، وبالتالي اترك الحرية للآخرين، واترك كل إنسان حر فيما يعتقده أو

يفكر به.
جاسر: إذن لن تلتفتي لهذا البحث أبدًا؟
زينب: نعم يا دكتور، أو على الأقل ليس الآن.
(كلمة أو على الأقل ليس الآن بعثت في جاسر ألف أمل وأمل).
وقال: شكرًا.
ثم فجأة تحدثت أم زينب بالإنجليزية الصحيحة وبطلاقة: شرفت ونورت يا دكتور جاسر، ولا تتعجب ابنتي لا تخفي عني شيئًا، وتكلمت بالإنجليزية حتى لا يفهم عمها الكلام وتتعرض للإيذاء.
صدم جاسر كأنه ضرب بمطرقة فوق رأسه أمها تعرف الإنجليزية، وتعرف كل ما دار وتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه، ونهض وهو في قمة الإحراج حتى خرج وركب سيارته وعمها يودّعه ويرشده لأول طريق البلد.
نسى جاسر الإحراج؛ لكن ظل يفكر في الحوار الذي دار بالشفرة كان ممتعًا جدًّا، وخلق داخله أمل وحب أكبر، هذه الفتاة التي تعيش كأنها من قرن مضى، ورغم ذلك كلما مر الوقت خطفته من نفسه أكثر.
عاد جاسر إلى بيته ليواصل عمله وحياته، والأيام تمضي به؛ لكن الشوق يلهبه بسياطه، والحب لم يعد يترك خلية بداخله إلا واحتلها حبًا لزينب، والأيام تمضي بطيئة كئيبة كأنها دهر، حتى بدأ العام الدراسي الجديد ومن أول لحظة في بدء الدراسة كان هناك مبكرًا جدًّا حتى قبل موعد حضوره، حتى رأى زينب وكأنها قبلة الحياة ردت إليه روحه، وذهب إليها وطلب منها أن يحدثها في مكتبه.
وافقت زينب، وفجأة بعد أن دخلت المكتب وجدت دكتور جاسر يركع تحت قدميها وعينيه تدمع، ويقول لها: أنا أحبك.

****

قاطع شاب من الدعاة الشيخ عاصم، وقال: يا مولانا أولًا: أشعر أنك تحكي قصة حب، وليست قصة شاب ملحد، ثانيًا: هل هناك رجل ممكن أن يركع لامرأة باسم الحب، ومن أجل الحب إنه عبث شيء لا يمكن تخيله!
الشيخ عاصم: لن أقول لك هل قصة حب أو قصة ملحد؟ لكن في النهاية ستعرف وستتعلم الدرس؛ لكن نصيحة لكي تكون معلم جيد لا بد أن تكون مستمعًا جيدًا، وفي النهاية انتقد ما تشاء، لا ترى مشهد واحد من صورة وتحكم؛ بل انظر للمجمل ووقتها إن شاء الله ستجد أن كل الجزيئات مترابطة، أما بالنسبة لفكرة ركوع رجل لامرأة، يا ولدي من كان قلبه فارغًا من حب الله سهل على هذا القلب أن يقتحمه أي هوى، ويكون أسيرًا لهواه أو أسيرًا للشهوات ناصية امرأة ليست بيده، ولنا في قصة امرأة العزيز عبرة، حينما راودت نبي الله يوسف(عليه السلام) عن نفسه وفضحت نفسها في المدينة، وقالت النسوة لقد شغفها حبًا أي استولى على كل كيانها، واحتله بالحب، وهي أحبت نبي الله رغم مكانتها، فما بالك بعبد آبق مع امرأة صالحة واختلاف موازين العصور.
قال طالب آخر: أكمل بالله عليك يا شيخنا، ماذا حدث بعد أن ركع لها؟

****

نظرت زينب لتعبيرات عينيه، ويكاد قلبها ينفطر لا تدري ماذا تقول؟ ذرفت دمعة رغم أنفها، وخرجت من المكتب وهي شبه منهارة، كيف يركع لها رجل هكذا؟ ومن يكون؟ أستاذها ومعلمها!

حاولت أن تتناسى الموقف بكل الطرق كي لا يعطلها عن أهدافها وتظل راسخة في طريقها.
أما جاسر علم أن زينب قاتلته، وأنه لتفادي نهايته لا حل له سوى الحصول عليها، إنها استولت على نفسه، ولم يعد أمره بيده، حتى قرر أن يقوم بخطوة تتعارض مع معتقداته ومبادئه وكل ما خطط له في حياته.
ذهب إلى زينب، وبدون تردد قال: أريد أن أتزوجك، بشرط أن يكون الزواج مدنيًّا، وليس شرعيًّا.
نظرت زينب متعجبة وكأنها تشعر أنها لا تفهم ما قال نهائيًّا أو أن هناك أمر جديد أقرته الدولة لا تتابعه، وردت بتعجب: اشرح لي الزواج المدني.
جاسر: زواج عند محامي ونوثقه في الشهر العقاري.
زينب: ولماذا لا تتزوجني شرعيًّا على سنة الله ورسوله؟
وهل هذا زواج من الأصل حلال وأقرته الدولة؟
جاسر: لأني لا أؤمن بالله ولا برسوله.
وقع القول على رأس زينب كالصاعقة كمن ضربت بمطرقة على رأسها، لا تستطيع الوقوف على قدميها، وقالت وهى ترتجف أأنت ملحد؟
جاسر: بلى.
زينب: لا يجوز لمسلمة أن تتزوج بغير مسلم؛ لكني سأفاجئك بما لا تتوقعه.
جاسر: ما هي المفاجأة؟
زينب: أنت حاولت تكلمني وتجلس معي العديد من المرات، وأنا دائمًا كنت أرفض رفضًا قاطعًا لدرجة إني شكوتك لإدارة الجامعة، أوافق الآن أن أجلس معك وأحدثك بثلاثة شروط:
جاسر: وما هم؟
زينب: الأول أن يكون النقاش في مكتبة الجامعة، الثاني أن يكون محور الحوار الإسلام فقط وتحدثني لماذا كفرت بالإسلام أو تناقشني فيه، الثالث لو تكلمت خارج الإسلام والإلحاد سأنصرف، ولن أكمل معك أي نقاش مرة أخرى.
جاسر: موافق، وخذي الشرط الرابع رفقة بكِ سأعطيكِ الخطوط العريضة لما سنتكلم فيه كل يوم قبلها بيوم، حتى تبحثي وتجهزين ردودك في اليوم التالي.
زينب: على بركة الله.
جاسر: لا أستطيع أن أصف لكِ مدى سعادتي؛ لكن لن تستطيعي إقناعي ولن تؤثري في أفكاري بشيء، حتى لو كنتِ ستستعينين بكل كتب مواجهة الإلحاد لأني قرأت معظمها، ولن تزحزحيني لحظة.
زينب: هذا لأنك قرأتها بتحيز، وكان عقلك مغلق كل ما يشغل بالك أن تقرأها لترد على أي شخص يحاول أن يناقشك عن الإسلام والإلحاد؛ لكن لم تفكر أن تكون باحثًا حياديًّا.
جاسر: لماذا تحسبوا الملحد أنه معتوه، أو مريض نفسي، أو لديه عقد تربوية، أو شاذ، أو هذه الصفات الغريبة التي تلصقونها بالملحدين؟ وتتكلمون عنه بأحط الألفاظ كأنه سرقكم أو أهله لم يستطيعوا أن يحسنوا تربيته وأنتم أحسن وتربيتكم أجمل وبلا عقد، رغم أني أرى في المجتمع المسلم مرض نفسي وعقد وجرائم وقلة تربية، الملحد حر فيما يعتقد وأنتم أحرار فيما تعتقدون، ولست ناقص علم ليأتي صغير أو كبير ليعلمني إياه.

زينب: لست أضاهيك علمًا ولا حتى أضاهي من كتبوا عن الإلحاد، كل ما في الأمر أني أمتلك ميزة تجاهك لم يمتلكوها هم، وأنت تقرأ لهم وإني أقل الجميع علمًا، ولا أراك جاهلًا أو ناقص علم أو معقدًا أو مريضًا، بالعكس المجتمع في أغلبه مرضى نفسيين نتاج تشوهات داخلية أثرت على التربية والتلاحم المجتمعي والنفس السوية، وهذا ينسب للمجتمع لا للدين لأن المجتمعات الإسلامية تختلف، مثلًا الأتراك مختلفون عن المصريين، وعن السعوديين رغم ثبات الأصول الإسلامية، إذن الاختلاف مجتمعي لا علاقة له نهائيًّا بالدين، ولا أراك شاذًا أو أسبك؛ بل احترمك على المستوى الإنساني، هناك مقولة قرأتها لأحد المفكرين الإسلاميين، تقول: المُلحد المتعلم من أذكى الناس وأكثرهم بحثًا؛ لكنه توقف في منتصف طريق البحث، لو كان أكمل بحثه للنهاية لوصل لقمة الإيمان، وعرف قدر عظمة ربه، وآمن بألوهيته، وكان عبدًا ربانيًّا.

جاسر: هرااااء.

زينب: أنا سوف أستأذنك، وموعدنا غدًا إن شاء الله في أول نقاش، بشرط ألا تسخر من كلامي مرة أخرى، ولا تقول لي هراء، وتحترمني وتناقشني الحجة بالحجة والبينة على من ادعى، وتحدد موضوع نقاش الغد.

جاسر: إذًا موعدنا في الغد، وموافق على كل شروطك، وموضوع النقاش الشريعة الإسلامية، بشرط أن يكون الحوار بالعقل والدليل العقلي لا الدليل النقلي.

زينب: تمام سلام الله عليك.

جاسر: امتعض من تعمدها أن تقول هذا السلام؛ لكنه رد مع السلامة.

الشريعة الإسلامية

كان هذا اليوم من أسعد الأيام في حياته، لدرجة أنه شعر بقوته القديمة تعود إليه، وأنه يمكنه أن يجعل زينب مثله، وأنه سيعود للتفوق في شتى المجالات، بعد أن كان يشعر أنه تأخر وفشل كثيرًا خلال العام الماضي.

في اليوم التالي ذهب إلى الجامعة مبكرًا، منتظرًا موعد أول نقاش بينهم في مكتبة الجامعة، وسبقها إلى هناك حتى انتهت من محاضراتها وأتت، وقبل أن تجلس أمسكت ساعة بيدها، وقالت له سوف أضبط الوقت على ساعة فقط، اتفقنا.

جاسر: أشعر أننا في مباراة ملاكمة وبتوتر منك، عامة لأزيح عنك التوتر والخوف من النقاش لن اسألك في أصعب المسائل الدينية الآن؛ بل غالبًا سأناقشك في الفروع فقط، وستكون موضوعاتنا عشوائية ليست مرتبة، والسؤال الذي يرد بذهني أسألك إياه، وإن لم تعرفي إجابته الآن انتظر للغد، حتى تجمعي معلوماتك لأني واثق من فشلك.

زينب: أثق في النجاح بإذن الله ثقة عمياء، ولإثبات الثقة التامة أنا لن أسألك عن الإلحاد أو أفنده لك، لأنه لا يحتاج لتفنيد، الإلحاد أضعف من أن أناقشه أو حتى محاولة هدم نظرياته، لأنها مهدومة بذاتها أنا كل ما أفعله أني سأريك قوة وعظمة الإسلام التي لم ترها، لك بعد هذا الاختيار.

جاسر: يا لك من مغرورة تتحديني ببضاعتك، وتهملين بضاعتي.

زينب: ليس غرورًا بل ثقة في الله - عزوجل - وسامحني لا أجد بضاعة تستحق أن توضع في رفعة ما أملكه.

جاسر: بدأنا في الشعارات، سوف أبدأ معكِ ببساطة شديدة، هل تؤمنين بالشريعة الإسلامية؟

زينب: نعم تمامًا.

جاسر: هل تؤمنين بحتمية تطبيقها؟

زينب: نعم أؤمن بحتمية تطبيقها بكل جوانبها مع وجود نظام صالح.

جاسر: لا أفهم الإضافة الأخيرة ومعنى كل جوانبها، أنا طلبت الإجابة بنعم أو لا، عندما قلتي كل نظام صالح ومعنى كل جوانبها؟

زينب: نحن في نقاش، ولسنا في تحقيق لأجاوب بنعم أو لا، ولا بد أن تكون وجهات النظر واضحة والإجابة محددة، أما لماذا قلت نظام صالح؟ لأنه ربما يأتي حاكم فاسد، وسوف يطبقها بطريقة خاطئة لعدم فهمه لأحكام الشريعة ورحمتها، خصوصًا في الجوانب العقابية فيُسيء إلى الشريعة الإسلامية ووقتها سيقول الملحدين وكل المتربصين بالإسلام إن الخلل في الإسلام، وليس في من قام بالتطبيق، أو قد يكرهها بعض ضعاف الإيمان من المسلمين أو العوام قليلي العلم، ولا أعني العلم الكتابي والثقافي؛ بل العلم الحياتي، وهنا في التطبيق الخاطئ تفقد الشريعة الإسلامية عظمة الجوهر مع سوء التطبيق، ومثال على ذلك حركة طالبان في أفغانستان فَهِموا الشريعة الإسلامية خطئًا واستغلوها للحصول على ثروات البلد، فأدوا بها إلى التخلف وكثرة الحروب دون النهوض ببلدهم، وهنا استغل الإعلام الغربي هذه الصورة السيئة وصورها الملحدون على أنها النموذج الإسلامي، وأعطوا للمسلمين في الشرق مع غياب دور الدين القوى ومؤسسات نشر الوعي الديني صورة سيئة جدًّا، جعلتهم يخشون من

تطبيق الشريعة الإسلامية، وهناك جزء ممن كان حظهم قليل في العلم والإيمان، اعتبروا الشريعة الإسلامية مجموعة أحكام عقابية لإيذاء الناس وفقط، لأن الإعلام ومهاجمي الشريعة ومعظم من يتكلم عن الشريعة يتكلم عن الحدود والأحكام العقابية في الشريعة الإسلامية رغم أن هذه الأحكام لا تتخطى ٢ ٪ من أحكام الشريعة، بدليل أننا في مصر لا نطبق الشريعة الإسلامية كاملة؛ لكن نطبق أحكامها في المواريث والزواج، لأنه لا يوجد أبدًا لها بديل، ويستحيل أن تجد لها بديل عادل.

جاسر: وهي هكذا بالفعل مجموعة أحكام عقابية غايتها القتل أو تشويه الإنسان.

زينب: هذا فهمك القاصر للأحكام وعدم الرؤية الثاقبة لعموم الأحكام والنظر لأهدافها ومغزاها، الشريعة الإسلامية يا دكتور ليست أحكامًا بالرجم والجلد والقطع فقط، بل هذه آخر الأحكام التي وجبت علينا في التطبيق، وليست أول الأحكام، الشريعة تكافل، إصلاح مجتمعي، رحمة، بناء أواصر متينة من المودة، وبناء مجتمع قاعدته سليمة بالحب، مثلًا: إماطة الأذى عن الطريق، الصدقة جزء من الشريعة، عدم قطع الشجر جزء، حتى الرفق بالحيوان جزء من الشريعة، كفالة الأيتام والفقراء، حتى تمهيد الطرق للدواب قبل البشر جزء من الشريعة.... إلخ. لو أخذت أعدد جوانب الشريعة لن ننتهي أبدًا؛ لكنك ركزت بصرك على الأحكام العقابية وكأنها كل الصورة، رغم أنها لا تتخطى اثنين بالمائة من الصورة، وحتى هذه الأحكام العقابية لو نظرت في جوهرها ستجد الرحمة وصون الحرية الفردية والحرية المجتمعية.

جاسر: أحكام الجلد والرجم وقطع اليد والقتل رحمة!

أتحسبينني أبله، أنا قرأت في كثير من الفقه وأحكامه، وقرأت القرآن والحديث وأعرف أنكِ تتكلمين الآن بكلام مثالي، كتلة من الشعارات لا تنفي الحقيقة.

زينب: أنت متربص بالإسلام وبالقرآن والسنة، فلذلك نظرت ظاهريًّا دون تطبيق قواعد البحث العلمي من القياس والتجربة والفهم المحايد وليس المتحيز، ولهذا بنظرتك الظاهرة أنت رأيت هذه الأحكام للدم، كأن الإسلام دين الرحمة يهوى سفك الدماء؛ لكن تعالى ننظر لها بمنظورنا العلمي البحت، هل هناك دولة في العالم تستطيع منع الجريمة؟

جاسر: لا.

زينب: أليست أمريكا حاليًّا أقوى دولة في العالم تكنولوجيًّا وعسكريًّا؟!

جاسر: بلى.

زينب: في أمريكا حينما يسافر شخص إلى هناك ينصحونه بعدم الخروج بمفرده بعد الساعة العاشرة بالأخص في المدن الكبرى؛ بل هناك شارع في نيويورك مثل حي هارلم لا يستطيع الأمريكي نفسه دخوله ما دام أنه ليس من أبناء الشارع، ورغم عدد أفراد الشرطة وتقدم أدواتها التكنولوجية لا تستطيع منع الجرائم؛ بل في آخر إحصائيات لعام ١٩٩٩ كان هناك جريمة تقع كل دقيقة ونصف أي بمعدل ١٠٨٠ جريمة يوميًّا في هذا المتوسط غير الجنح، والشرطة هناك دورها يتلخص في تقديم الفاعل للمحكمة والجريمة لا تتوقف نهائيًّا، وغالبًا لا يأتون إلا بنصف من ارتكب الجرائم أو أقل أو أكثر قليلا؛ لكن في الأحكام العقابية الإسلامية إذا طبقت بطريقة صحيحة تردع المجرم عن فعل جريمته؛ لأنه يعلم أنه إن انكشف أمره فإنها ستكون الأخيرة، خصوصًا أن الحدود لا تطبق إلا بعد وصول المجتمع لحالة الكفاف، إذن فلسفة الأحكام العقابية الإسلامية منع الجريمة من منبعها ونشر الأمان، أما فلسفة الأحكام العقابية الوضعية هي الإتيان بحقوقك بعد

سلبها أو تعويض مادي عن فقدانك واحدًا من أهلك؛ لكن لا تشعرك بالأمان، ودليل على هذا أنه مثلًا في تطبيق حد السرقة في عهد الخلافة الراشدة لم يطبق حد السرقة طوال هذه المدة إلا على ستة أشخاص ويقال سبعة، ويمكنك البحث بنفسك، أليس هذا قمة النجاح والأمان التام؛ بل والحفاظ على البشر والحفاظ على الحرية الفردية والمجتمعية.
جاسر: وماذا عن أحكام الزنا وشرب الخمر وقصف المحصنات؟ وهل هذه تنشر الأمان؟ اعترفي أنكم دين الكثير من الحرام القليل من الحلال.
زينب: تخطيك الأحكام العقوبية التي كنا نتكلم بها، يعني أنك اقتنعت، وتنتقل إلى نقطة أخرى فرعية من نفس الموضوع؛ لكن كبريائك يمنعك من الاعتراف بأنك لم تفهمها هكذا من قبل، وسننتقل إلى النقطة التالية.
جاسر مقاطعًا: لا تقيمي رؤيتي، بيننا شرح وأسئلة وأنتِ قلتي لا تعرض بضاعتك من الإلحاد وستناقشين فقط الدين الإسلامي الذي لا يرقى أي فكر أو معتقد إليه، فلا تتدخلي بنفسي وعقلي.
زينب: إذن لا بد أن تحترمني أيضًا وتحترم رؤيتي.
جاسر ممتعضًا: أكملي.
زينب: دعني أعلق أولًا على جملة الكثير من الحرام القليل من الحلال، وأسألك أين الكثير من الحرام القليل من الحلال؟
جاسر: تحريم الكثير من المأكولات والمشروبات، تحريم الكثير من الكلام والمزاح، تحريم الكثير من الملبس، إن دينكم هذا دين الحرام فقط، لا استطيع إحصاء الكثير من الحرام.
زينب: كل طعام الأرض حلال لنا إلا ما حرمه الله مثل: الخنزير والجوارح، وأعتقد أنت تعرف أن علماء الغرب أثبتوا ضرر لحم الخنزير على الإنسان والأمراض التي يسببها، أتجادل في رحمة الله بك؟ أن يمنع عنك ما يؤذيك أنت في كلامك هذا كالطفل الذي يمنعه الأب من اللعب بالنار حتى لا تحرقه، فيقول لأمه: إن أبي لا يحبني فقد منعني من اللعب بالنار، إنه يقسو علي، تخيل الطفل رأى خوف والده عليه قسوة، هكذا حالك مع الله - عزوجل - (ولله المثل الأعلى) ترى تحريمه الخمر والخنزير والمشروبات الروحية والمخدرات قسوة، رغم أن التحريم رحمة لك ولحمايتك من شرور آثامها ورحمة بجسدك وعقلك، حتى الخمر المحرمة علينا أصلها حلال سواء كان عنبًا أم شعيرًا، حلال لنا أكلهما وشرب عصيرهما دون تخمر أو كحوليات، رحمة متناهية من الخالق بعباده، أما الكثير من الكلام؛ مثل:
النميمة، وهتك الأعراض، وفضح ستر الخلق لمنع البغضاء والتشاحن بين الناس، والحفاظ على جسد المجتمع الإسلامي من الأمراض المجتمعية التي تشكو أنت منها منذ قليل، حينما قلت إن المجتمع ينتشر به المرض النفسي، وهذا لعدم التزامهم بالمحرمات، إذن كل الأوامر والنواهي والأحكام لحماية الناس والوقاية، أنت نفسك بعد الموقف الذي اتخذته ضدك وشكوتك لإدارة الجامعة، تقدمت بطلب إجازة شهر لتتقي شر النميمة في حقك أو الخوض في سيرتك، وهذه من حريات الأفراد لا أفهم كيف تنادون بالحرية وأنتم تنتهكون حريات الناس وأعراضهم؟ مثل: مجلات الفضائح، والمصورين المحترفين [الباراباتزي]، وتقولون إنكم تؤمنون بالحرية التامة للفرد، كيف؟ وأنت تصوره وتفضحوه وتنشرون ما يخص شخصه وأسراره لتربحوا أنتم أموالًا من هذا الشر، حريتك تنتهي عند حرية الآخرين، وهذا مبدأ إسلامي، أما تحريم المزاح، قول زور وبهتان؛ بل حرم اللغو في الكلام أو السخرية من إنسان أو معايرته بغرض إضحاك

الآخرين، واتحداك لو أتيت بدليل نقلي واحد أو من الشريعة يثبت تحريم المزاح، ولو تريد الدليل الشرعي على مدى حب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للمزاح والبسمة، لنقلت لك الآن لكنك طلبت ألا آتي بدليل نقلي، لكن يكفي أن تعلم أن في الإسلام حديث يقول: -تبسمك في وجه أخيك صدقة-.

جاسر: اتفقنا لا استناد لدليل نقلي.

زينب: أنا لا أستند لدليل نقلي لإثبات أمر محل شك، بل لأنفي اتهامك من الأساس أُقيم الحجة على عدم الموضوعية تمامًا.

جاسر: لي تعليق صغير، سأفترض إني اقتنعت بالأحكام العقابية، أنها رحمة وتحريم الخمر والخنزير؛ لأن ربكم رحيم بي، ويمنع عني ما يضرني؛ لكن سآخذ من كلامك دليل اتهام قاطع على تناقض دينكم، أنتِ قلتي لي تؤمنون بالحرية الفردية تمامًا، لماذا لا تحترمون حرية الفرد في الملبس، وفي الزنا، وحرية أي امرأة في ألا ترتدي الحجاب! وهذه حريتها التامة لا تضر بها أحد.

زينب إجابة هذه التساؤلات من أسهل ما يكون ولا تتعارض نهائيًّا مع حرية الفرد؛ بل تكملها وتوثقها؛ لكن سوف أجيبك على هذا السؤال في الغد لأني مضطرة للانصراف؛ لأن الساعة قد انتهت وأنت أهدرت جزءًا كبيرًا منها في محادثاتك الهاتفية، ولا بد أن نحترم عهدنا الساعة انتهت.

جاسر: هل تغارين علي؟

زينب: لو سمحت أي كلام آخر مثل هذا لن أكرر معك النقاش مرة أخرى.

جاسر: إنها مجرد مداعبة مني اعتذر، وكما تشائي لكن قبل الانصراف سؤال أخير، هل تنظرين لي نظرة احتقار، وتقولي لعنة الله علي لأني ملحد وجاحد ومغرور، وربكم غلف قلبي بالقسوة والضلال صحيح؟

زينب: أنت إنسان هذه نظرتي إليك، ظاهرك الشر لكني أرى في باطنك الخير استبشارًا من الله، لم يظهر الله الخير الذي في باطنك بعد، تحتاج لهدايته وكثيرًا من الدعوات، وتحتاج لأن تبحث بذاتك بنورانية وحيادية ووقتها ستختار الطريق الصحيح.

جاسر: شكرًا لكِ، لم أقتنع بشيء، نلتقي غدًا.

انصرفت زينب، وبقى جاسر بمفرده يفكر في هذه الفتاة والكلام التي قالته، ولم يقتنع بأي شيء غير أنه قرر يبحث أكثر وبتخصص ليدحض حجتها ويجعلها تستسلم لقوة نظريته وعلمه، وعاد إلى منزله، وهو يبحث في الثغرات، وعن الشبهات في الدين حتى يجعلها تستسلم تمامًا.

وجاء اليوم التالي، وكلاهما مستعد للمناظرة الثانية؛ لكن هناك فرق هو يأخذها مسألة صراع وتحدي أيهما ينتصر؟

وهذا حال الكثير من الملحدين؛ وهي تأخذها مسألة بحث عن الحق، والإتيان بحقيقة العلم والحجة والهداية بيد الله.

• في الميعاد المحدد التقيا في المكتبة، وجلسا، وبدأ الحوار.

جاسر: قبل أن نبدأ موضوعًا جديدًا أجيبي على سؤال الأمس ما دام أن دينكم يحترم حرية الفرد ولا يكبتها، لماذا لا تحترمون حرية الفرد في الملبس، والزنا ما دام لا يضر أحد بدون كبت مشاعره وأحاسيسه، وتمنعونه عن مباهج الدنيا وملذاتها.

زينب: إجابة هذا السؤال طويلة وتحتاج إلى شرح، لذا أريد منك حسن الاستماع وعدم المقاطعة.

جاسر: تفضلي.
زينب قبل أن أبدأ في الشرح، لماذا تعترض على تحريم الزنا؟
جاسر: وما الحكمة من تحريم الزنا، أنتم تحرمون كل النساء علينا، لنفترض إني أحببت امرأة متزوجة، وهى أحبتني ما المانع في أن نمارس الحب؟ حتى لو زوجتي أحبت شخصًا، ما المانع في أن تمارس معه الحب هذه أحاسيس ومشاعر.
زينب: نفترض أن مسلمًا ذهب إلى أمريكا، وتزوج فتاة مسيحية أو ملحدة أو أيًّا كانت ديانتها، وأحبته بشدة وهو أحبها؛ لكنها متحررة جدًّا، وهو ملتزم بدينه وبقواعده، وقرر أن يتزوجها بشرط أن تلتزم معه، ولا تعرف رجل غيره، ولا تزني، وهذا شرطه للزواج، وقال لها إن الشرف عندي يساوي الدم، وقام بكتابة هذا في عقد الزواج المدني بينهم، وعاد في يوم إلى بيته وجدها في أحضان شاب، فغلى الدم النقي في عروقه وقتلهما.
جاسر مقاطعًا: هل تقصدين إهانتي، وأن دمي ملوث؟
زينب: عفوًا لا أقصد، دعني أكمل حديثي.
وبقتله لاثنين أصبح مجرمًا، وتدمرت حياة ثلاثة أشخاص، والإسلام ليس دين تدمير بل دين تعمير، وكان من أهم أسباب منع الزنا بعد اختلاط الأنساب هو الحفاظ على المجتمع وترابطه، وأنا اعلم جيدًا أنك لن تقتنع؛ لكن أريد إجابة بصدق، هل يحق لها خيانته بعد موافقتها على الشرط؟
جاسر: هو حقه فقط، لأنهما تعاهدا من البداية.
زينب: جميل جدًّا أنك قلت تعاهدا من البداية، فالإسلام من أهم أحكامه صون العهد، إليك السؤال الثاني: هل تقبل أن يربي رجل آخر ولدك أو تربي أنت ولد غيرك؟
جاسر: فهمت ما ترمين إليه اختلاط الأنساب، يا فتاتي هناك وسائل كثيرة لمنع الإنجاب واختلاط الأنساب.
زينب: وهل تضمن ألا تنسى من تمارس معها الرذيلة أو لا تنسى زوجتك مع من تمارس معه الرذيلة؟ وهل لن يدخل قلبك الشك لو أنجبت زوجتك طفلًا، وأنت تعرف أنها تمارس مع رجل آخر؟
جاسر: هناك شيء اسمه تحليل (D.N.A) أعرف به ابني.
زينب: القاعدة تقول الزوج للفراش، ولا توجد قاعدة في العالم أن يولد طفل لامرأة متزوجة من رجل آخر، ولو سلمنا واعترفنا بكلامك؛ كيف يعيش أطفال كثيرون بدون أبويهم، سيكون لدينا مجتمع مفكك، وأمام سماحك بالشهوانية وليست الحرية لأبوين ظلمت أطفالًا كثيرين، وسلبتهم حريتهم وحقهم الطبيعي في حياة سوية مع والدين، من أجل لحظات متعة دمرت عمر طفل، إذن الإسلام صان حرية الجميع الأب والأم والطفل، ومن لا يرغب في الاستمرار فلينفصل بالمعروف، أما آخر شيء سأقوله في الزنا دون دليل شرعي، هل تسمح لي أن ننزل إلى شارع بجوار الجامعة، أريد أن أريك شيئًا؟
جاسر: أخيرًا، كم كنت أتمنى اللحظة التي نسير فيها سويًا!
زينب: لا يا دكتور، حضرتك تسبقني وأنا خلفك ببضع خطوات.
جاسر: حاضر يا متجبرة.
زينب وهي تبتسم: تفضل يا دكتور تقدمني.

وصلا إلى خارج أسوار الجامعة، وأشارت زينب إلى شارع معين، وبعد أن دلفا إلى الشارع، وجدا رجلًا متشردًا جالسًا بجوار سور وقالت: يا دكتور لو عشقت زوجتك هذا الرجل وعاشرته، هل تقبل أن تعاشرها بعده؟
جاسر: هناك وسائل كثيرة للتطهر ما لمشكلة؟ أليس إنسان ودينكم يقول إن البشر متساوون كأسنان المشط.
زينب: إذن خذ هذه المعلقة التي يأكل بها، واغسلها وكل بها الآن.
جاسر: وما الذي يجبرني على هذا أكل بيدي أفضل!
زينب: سبحان الله ترفض أن تأكل بقطعة معدن لمسته، ولا ترفض أن يطأ جسد زوجتك!
جاسر: قد اقتنع بكلامك جزئيًّا أو قد اقتنع أن الزنا يؤدي لاختلاط الأنساب، وتفكك المجتمع، والإتيان على حق الفرد؛ لكن.
زينب مقاطعة: الزنا فاحشة كلها كراهية وبغضاء وقذارة، والكثير من الأمراض حتى بالبصمات الجينية، وأنت تعرف هذا، بالمناسبة يا دكتور الرجل الديوث لا احترمه، في نظري رجل بلا دماء من الأساس لا نقية ولا ملوثة.
جاسر: ومن قال لكِ إني غير غيور على أهل بيتي، أنا كنت أعاندك حتى أثبت خطئك.
زينب: لقد تعمدت استفزازك لتقول هذا، وبالمناسبة هذا الرجل المتشرد ما قصدت أن أقلل منه، بالعكس هو ربما يكون أشعث أغبر من الخارج؛ لكن من الداخل أنقى مني ومنك، وربما تكون أنت لامعًا من الخارج؛ لكن الله أعلم بما في الداخل، كان المثال لتمعن النظر وليس لإهانته، وأنت وقعت في الخطأ، ولي طلبين آخرين؛ الأول: لا تقول لي يا فتاتي مرة أخرى، والثاني: أرجوك لا تأخذ نقاشنا لمنحنى المعركة، ومن ينتصر على الآخر، أنا أقل منك علمًا، ولا أستطيع هزيمتك؛ لكن فكر في نقاشنا هل هو صواب أم خطأ؟ اجعله يخضع للبحث العلمي المجرد والتحليل والمنطق، لاحظ أني أهملت نصف مذاكرتي لأجل أن أصل لعقلك، وأجعل تفسير الدين بالمقياس المادي العلماني ليس بالمقياس الشرعي، عاهدني الآن ألا تجعلها مسألة صراع بل مسألة صواب أم خطأ.
جاسر: أعاهدك.
زينب: شكرًا.
جاسر: دعينا نكمل رحلة النقاش، لماذا الملبس غير الإسلامي محرم على المرأة دون دليل شرعي إذا سمحتي؟
زينب: أولًا: دعني أقول لك لدينا أمر ونهي واضح وصريح وهو في قوله تعالى: -لا تقربوا الزنا- وهنا المعنى اللغوي واضح لا تقرب، ولم يقل لا تفعل، لأن القرب هنا يعني الاقتراب من مقدمات الزنا، التي تبدأ بالعين والأذن واللسان وتنتهي بالفرج، إذًا بالمقاييس الدينية من تلبس قصير أو مجسم هي تبدأ بمقدمات الزنا المحرم علينا.
جاسر: هذا هراء في دينكم لا علاقة له بالقرب بالزنا ولا اقتنع به، لأني لن أزني بفتاة لا أعرفها لأنها تلبس قصير أو مجسم كلام غير مقنع.
زينب: لو صبرت قليلًا كنت سأشرح لك عمليًّا بالنظرة المادية التي تؤمن بها، أنت تؤمن بمساواة الرجل والمرأة تمامًا وحريتها التامة غير المنقوصة.
جاسر: نعم بالطبع.

زينب: إذن لماذا لا تصنعون ملاهي يرقص فيها الرجال، ويتعرون ويبرزون مفاتنهم، ويتلوون أمام الجميع كبضائع رخيصة باسم الفن، أم إنكم تعلمون أن الرجل الذي يفعل هذا سيكون شاذًا غير طبيعيًّا به خلل، لذلك يسمى شاذًا، بمقياس فنكم وتعريكم أنتم تعتبرون المرأة في نظركم وعاء لإفراغ الشهوات، وإن حاول أحد جعلها سيدة ذات قيمة وعقلانية حاربتموه، وقلتم إنه يوأد حرية المرأة، لأن نظرتكم لها دونية، هكذا المرأة في الإسلام خلقت أضعف من الرجل، وليست بقوة الرجل كائن رقيق غالي، وكل رقيقة تحتاج لغلاف يحميها، كما تغطي سيارتك الغالية للحفاظ عليها، المرأة المسلمة كالشكولاتة ناعمة ورقيقة لا بد من لفها بعناية حتى لا تنجرح، هل تستطيع أن تأكل شكولاتة مكشوفة وبدون غطاء؟ بالتأكيد لا؛ لأنها ستكون ملوثة، كل أفلام البورنو لتعرية المرأة، وليس الرجل، كل الملاهي لرقص المرأة وليس الرجل، كل فضيحة تحمل وزرها المرأة وليس الرجل في كل المجتمعات، حتى في الأساطير وفي الكتب الدينية والملاحم الشعبية، إذن بما أنها صاحبة الوزر إن حدثت الفضيحة، فالإسلام يسترها ويحميها من عيون الذئاب، وهذا لرقتها ووداعتها وضعفها، لصونها من العيون التي لا ترحم ولا تخشع، أتعترض على صون الإسلام للمرأة وتعتبره تخلف لتجعلوها رخيصة في عالمكم!

جاسر: هذا عيب بعض الرجال لا يجوز تعميم النظرة على المجتمع هذا ظلم بيّن.

زينب: أنت نفسك مثلهم، ونظرت لي مثلهم، وكنت تريد جسدي.

جاسر: هذا لإني أحبك.

زينب: لم تحترم حريتي الفردية، ولا قيمي، وأتيت لتجرحني، وهذا هو إلحادكم جعل المرأة سلعة رخيصة، ورخصت ذاتي، ولو سمحت لا تقل كلمة أحبك مرة أخرى، وإلا أنهيت الحوار إلى الأبد.

جاسر: أعتذر.

زينب: آخر ما سأقوله في موضوع الملبس أنت من المستحيل أن تأكل حلوى مكشوفة كبنات الليل لأنهم سلعة، وأحببتني كما تقول لإني غالية، لو كنت رخيصة كنت ابتعدت، وأخيرًا يا عالم الفيزياء العظيم المعادن الرخيصة غالبًا وجدت في بدايتها على سطح الأرض؛ لكن المعادن النفيسة كاللؤلؤ لا توجد إلا في أعماق البحار، ومغطاة من كل جانب تحمي اللؤلؤة من أعين الجبناء.

جاسر: إذا كان دينكم يحترم المرأة هكذا بشدة، لماذا يسمح بتعدد زوجات الرجل واستعبادها؟

زينب: بدايةً لن اشرح لك ضوابط التعدد، وما الحكمة منها؟ لكن سأعطيك مثالًا عمليًّا تخيلي التطبيق والتجربة.

جاسر: تفضلي.

زينب: لنفترض أن لدينا قرية بها ألف شاب وألف فتاة؛ لكن سنضع فكرة مختلفة وهي أن الفتاة لها حرية اختيار الزوج وتخطبه ولها رجل واحد، بشرط للرجل حق التعدد والمرأة لا، وبما أني فتاة سأقول لك النتيجة.

قبل أن تفكر غالبًا النساء ينجذبن لزير النساء مثل: كازانوفا ونجوم السينما العالميين؛ بل ويقبلنَّ أن يكنَّ عشيقات في السر لمثل هؤلاء الرجال، وكتب التاريخ والمذكرات الشخصية تحكي لنا عن واقع مزري رغم أن الشرع أكثر من أن يكرمهنَّ، ويجعلهنَّ في عصمة رجل يجعلها ملكة، ولا أقول كل النساء أقل الكثير، المرأة عاطفية حينما تختار غالبًا لا تختار بالعقل بل بمقاييس أخرى، غالبيتهنَّ سيرفضنَّ دميم الخلقة والمعاق والمريض، وينجذبنَّ للوسيم القوي البنية اللبق، وبما أننا

وضعنا حق الاختيار للمرأة ستنحصر اختياراتهم غالبًا في مائة شخص، خصوصًا أن المرأة متعتها حسية وليست جسدية بعكس الرجل، وحينما تنحصر الاختيارات في مائة رجل، والرجل له حرية التعدد، لن تقبل الألف فتاة بفكرة أن يكون لها ضرة، ستنقسم الفتيات إلى نصفين؛ نصف يقبل بالتعدد، ونصف لا يقبل، وتقول أتزوج دميم أو مريض خير من أن تكون لي ضرة، لاحظ أن هذا اختيار الفتيات بأيديهنَّ لا إجبار، وأنتم تفعلون هذا في الغرب، الرجل الذي يكون قوي ووسيم ومليء بالمميزات الظاهرة تكن له عشيقات كثيرات وهنَّ يعرفنَّ ذلك، من لم يقبلوا بالتعدد سينقسمون لعدة أقسام، هناك من ستتعايش فقط، وهناك من لا ترضى وستشعر أن زوجها أقل أو ناقص، فقد كان لها سقف طموحات وأنهار، وهناك من ستجد زوجها ضعيفًا أو مريضًا جنسيًّا وقتها ستطلب الانفصال وربما تقبل أن تكون ضرة، والفتيات الصالحات اللاتي يهمهن العقل أكثر من الفتية والوسامة ستكتشف الجمال في زوجها وتستقر معه؛ بل ربما تبني حياة أسعد لأن الله - عزوجل - جعل البشر متساويين؛ لكن قليل من يرى المميزات الداخلية، انقسمت الفتيات جزء قَبِلَ بالتعدد، وجزء لم يقبل، والنتيجة أنه أصبح لدينا شباب بدون زواج، وبالتالي الزواج حق إنساني غرائزي؛ مثل: الأكل والطعام والمسكن، سيتقاتل الشباب على حقهم الإنساني في الزواج، مثل الحيوانات التي تتقاتل في الغابة على الزواج بإناث.

إذن يا دكتور التعدد حمى المجتمع، وأعطى للمرأة الحق في المشاركة أو الاختيار فيما تريد كفل حق الزواج لكل الرجال والنساء، فهمت التطبيق والمثل.

جاسر: كلام خيالي غير علمي بالمرة، واعتمد على انجذاب المرأة للرجل الوسيم القوي؛ لكن إذا اعتبرناه صحيحًا سيكون لدينا رجال ليس لهم حق التزاوج، واجتمعت النساء حول القلة وتركتي كثيرين دون حقهم الإنساني في الغريزة والزواج.

زينب ضاحكة: أشكرك هذا ما كنت أحب أن استفزك إليه، إنك بحثت عن الحق الإنساني ووقعت في الخطة كما أردت.

• جاسر: كيف؟

زينب: أنت أقررت بأن الدين الصحيح لا بد أن يصون الحق الإنساني للرجل أو الأنثى، ويكون متكامل التشريعات لأي ظروف طارئة، تعالى لأبرهن لك على روعة وإبداع ومشروعية وحكمة التعدد، وأنت بنفسك ستوافقني بعد أن وقعت في الفخ.

الأصل في الزواج هو الزواج بامرأة واحدة، ولذلك خلق الله من أجل آدم حواء واحدة؛ لكن فاتك في كمال التشريع الإسلامي أنه وضع احتياطات لكل الظروف ولأنه كامل، فهذا التشريع جاء ليسد بابًا كبيرًا جدًّا، جميع قتلى الحروب والثورات شباب، منذ القرن الخامس عشر لم ينقضِ عشرين عامًا بدون حرب أو ثورة، أغلبية ضحايا حوادث الطرق شباب، الضعف الجنسي لا يصيب النساء بل الرجال، إذا قست عدد الضحايا في كل هذه المصائب والحروب ستجد أن عددهم كبير جدًّا، خصوصًا أن في بعض المجتمعات عدد النساء أكبر، ما بالك بعد فقدان قوة كبيرة من الشباب ستجد أن لدينا نسبة كبيرة جدًّا من النساء سيكونون بدون أزواج، وسلبتهنَّ حقهنَّ الإنساني في الزواج؛ لأن الرجل الذي يقابلها إما مات أو مريض بعجز كامل، و لا حل أمامها إلا الزنا، فهذه غريزة أساسية ولا يحق للمجتمع لومها، ولو لم يكن هناك تعدد كيف تحاسب؟ وهي حرمت من حقها الإنساني، والتشريع لم يضع هذا في الحسبان؛ لكن لأن المشرع هو الحق العدل، وقياسًا لكل الظروف والطوارئ كان هذا التشريع التعدد لإنقاذ النساء اللاتي سيفقدنَّ حظهنَّ في الحق الإنساني

طوال الحياة، كمال التشريع في أنه يتناسب مع كل الظروف؛ بل والأكثر وضع شروط للتعدد؛ أهمها العدل وإن لم يعدل المتزوج فليبوء بظلمه لزوجتيه أو إحداهما والظلم ظلمات، وأيضًا وضع حد للتعدد أربع نساء فقط؛ لأنه يستحيل أن يصل عدد الرجال لربع عدد النساء.
أعترف يا دكتور أن التشريع الإسلامي كامل متكامل، ووضع خطط أساسية وبديلة، كما تفعل الدول في إدارة الأزمات والتخطيط لحفظ المجتمع وصون الحرية الفردية، والحق الإنساني في الزواج لكل رجل وامرأة.
جاسر: لأنك أوقعتني في الفخ سأعترف فقط في هذه النقطة أن تشريعكم الإسلامي كان شبه متكامل في هذه النقطة، وأنه لو لم يضع تشريع التعدد طبقًا لشريعتكم الصماء، كان سيكون عاجزًا حينما تتغير الظروف.
زينب: لو سمحت أقِر بأنه متكامل في هذه النقطة على الأقل وليس شبه متكامل.
جاسر: كفى غرورًا، أُقِر ولا تكرري هذا الأسلوب المستفز مرة أخرى؛ لكن لا تنسي أن التشريع الإسلامي متكامل، كان لا بد أيضًا أن يكون غير ظالم، أنتِ هنا سلبتي حق المرأة بأن تكون ملكة زوجها وحق الانفراد به.
زينب: كنت أتوقع هذا السؤال، وأنك لن تترك هذه النقطة بسهولة، يا أستاذي الإسلام لم يضع التعدد مباحًا في أي وقت وبكل شكل؛ بل وضع ضوابط وحدود، أولًا: لا بد للزوجة الأولى الحق أن تعرف من زواج زوجها بأخرى، وتطلب الطلاق إن كانت غير موافقة، وهنا صان حقها الكامل، وسيدنا محمد(صلى الله عليه وسلم) رفض زواج سيدنا علي بأخرى على ابنته فاطمة، وإليك الدليل: - فعن الْمِسْوَر بْنَ مَخْرَمَةَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ خَطَبَ بِنْتَ أَبِي جَهْلٍ، وَعِنْدَهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).
فَلَمَّا سَمِعَتْ بِذَلِكَ فَاطِمَةُ أَتَتْ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَتْ لَهُ: -إِنَّ قَوْمَكَ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّكَ لَا تَغْضَبُ لِبَنَاتِكَ، وَهَذَا عَلِيٌّ نَاكِحًا ابْنَةَ أَبِي جَهْلٍ-.
فَقَامَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) فَسَمِعْتُهُ حِينَ تَشَهَّدَ يَقُولُ: -أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَنْكَحْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ فَحَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوَفَى لِي، وإِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يُؤْذِينِي مَا آذَاهَا، وَإِنَّهَا وَاللَّهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَبَدًا.
قَالَ: فَتَرَكَ عَلِيٌّ الْخِطْبَةَ -.
رواه البخاري (٣١١)، ومسلم (٢٤٤٩).
إذن يا دكتور تستطيع المرأة أن ترفض وتنفصل وهذا حقها التام، وأحيانًا ينتهي الحب بين الرجل والمرأة، والرجل يريد الزواج بأخرى، والمرأة جعلت كل حبها للأبناء، وانشغلت بهم، فيريد الرجل الزواج بأخرى ليصون نفسه، والمرأة لا تريد الطلاق حتى يُربى أولادها بين أب وأم، وهذا حقها ولم يفتري أحد على حقها، وأحيانًا يا دكتور يكون الدواء المر أن تزيد نسبة العنوسة بشدة، وهنا أنا بنفسي أقبل أن يتزوج زوجي بأخرى، حتى لا يمرض المجتمع، ولا يزيد فيه الزنا، وأعتبر هذا الدواء المر إما أن أكون أنانية وهذا حقي ولا أحتمل أي لوم، وإما أن أضحي من أجل المجتمع خصوصًا أن أمراضه ستصيب أسرتي لا محالة وأقبل بالتضحية، للمرأة حرية الاختيار تمامًا لم يقترب أي إنسان من حقها ترفض، تقبل، تستمر، تدفع زوجها، تمنع زوجها، تنفصل، حتى إباحة التعدد رحمة بالمرأة المطلقة والأرملة أن تجد فرصة أخرى في الزواج، وليس هضمًا لحق المرأة، الآن هل لديك شك في كمال التشريع في هذه النقطة كما قلت.

• جاسر: حسنًا، دعينا ننتقل لنقطة أخرى.
زينب: بل دعني انصرف فقد انتهت الساعة.
جاسر: هذا ظلم، الوقت لا يسعفني لإكمال أي نقاش، أشعر أني مقيد جدًّا، حرام عليكِ.
زينب ضاحكة: حرام علي، ومن يكتب على ذنب هذا الحرام ومن يعاقبني فيه، أرأيت فطرتك تهديك للثواب والعقاب!
جاسر: أنا أقصد (حرام عليكِ) كلمة دارجة نقولها في المجتمع بتلقائية حينما نغضب، ولم أقصد الحرام بالشريعة الإسلامية أو الثواب والعقاب.
زينب: إذا أخطأ المسلم بكلمة دارجة كانت حرام أو جرح بها أحد كتبت سيئة، وأن استغفر محيت السيئة، وأنت قلت حرام عليكِ، وهذا ضد معتقدك وفكرك الذي لا يؤمن بحلال أو حرام.
جاسر: أنت تتصيدي أي كلمة أقولها لتنسبيها للدين، لا تنسي تأثرنا بالمجتمع الذي نحيا فيه حتى وإن كنا ضد التيار.
زينب: لا أتصيد بل هي فطرة في الإنسان وطبيعية جدًّا، ثم أتدري كلامي معك حتى ولو كان في وسط المكتبة وأمام جمع من الناس حرام شرعًا، لأن به شبه خلوة؛ لكن أغامر معك إما أن أفوز فوزًا عظيمًا أو أخسر؛ لكني سأتعلم درسًا مبينًا.
جاسر: ثقي بأنك سوف تفوزين؛ لكن ليس بمقاييسك بل بمقاييسي أنا.
زينب: سلام الله عليك أيها المغرور.
جاسر: انتظري، نقاشنا في الغد سيكون عن اضطهاد الإسلام للديانات الأخرى.
زينب: إن شاء الله، ثم حملت أشيائها وخرجت.

****

توقف الشيخ عاصم عن السرد لآذان العصر، وتجمعوا لصلاة العصر، وبعد أن انتهوا من الصلاة، عادوا للعمود الذي كانوا يتجمعون حوله، واستفتح الحوار أصغر الطلاب سنًا وقال:
يا شيخنا هل هي حقًّا ترتكب إثمًا بحوارها مع هذا الملحد؟
قاطعه طالب زميله: أكمل يا شيخنا لا وقت لهذه الأسئلة.
الشيخ عاصم موجهًا كلامه لمن قاطع زميله: احترام مشاعر وأحاسيس الناس وتساؤلاتهم واجب، حتى تكون معلمًا جليلًا وهاديًّا للناس، لا بد أن تكون صبورًا ومقدرًا ومحبًا لهم بشدة.
اعتذر الذي قاطع زميله واستغفر ربه، وقال: أجبه يا شيخنا.
الشيخ عاصم: فكرة الحرام القطعي والحلال القطعي في أمور متشابهات أرقت الكثير من العلماء؛ لأن غالبًا الأعمال بالنيات، وكون النية هنا هي الحاكمة لا تستطيع القطع بالتحريم أو التحليل، وأضف إلى هذا أنه لا يوجد شيخ يستطيع الحوار مع جاسر، لإنه لم يخبر أحدًا، وكثير من العلماء متوقفين عن القيام بعملهم، والنزول بين الناس والنقاش وإثارة الحوار، إذ ربما يرى فقيه أنه إذا كانت نيتها وفطرتها دعوة في سبيل الله فلا حرمانية، وهناك من يرى أنها امرأة وأنها غير مكلفة بالدعوة نهائيًّا، وهذا رأي لبعض الأئمة، وستجد أن هؤلاء الأئمة من النوع الذي يحرم على المطلق، كما يحرموا مثلًا الأغاني والأهازيج التي تكون بدف ولا تثير الغرائز، ولا يحبون التلحين في الكلام؛ لكن بالطبع للمرأة أن تكون داعية مثل: عائشة (رضي الله عنها) أو مجاهدة كنسيبة بنت كعب، إذن يا ولدي الأمر لا نقطع فيه بالحلال والحرام إلا بنيتها وهدفها، وهذا أمر بينها وبين ربها ما دام التزمت بكل قواعد الإسلام فكل شيء ما حلاله حلال وحرامه حرام.

الطالب: يا شيخنا هل ما تفعله حلال أم حرام؟
الشيخ عاصم: هل هي تفعل خيرًا أم شرًا؟
الطالب: خير بالطبع يا مولانا.
الشيخ عاصم: هل يوجد نص قاطع يمنع المرأة من الدعوة لدينها أو الجلوس في مكتبة عامة؟ وأيضًا هل يوجد نص يدعو لهذا الأمر المشابه؟
الطالب: -وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ-.
الشيخ عاصم: هو لم يسألها متاعًا، وهو يدرس لها في الكلية، ويحق له أن يستدعيها في المكتب الخاص به، فما بالك بالمكتبة التي بداخلها الكثير.
الطالب: إذن قياسي غلط.
الشيخ عاصم: لا قياس خطأ تمامًا، ولا قياس صواب تمامًا، لكن الأمر اجتهادي، وهي تشعر أنها تناضل، والعمل هنا مرتبط بنيتها هي، القياس يكون على نيتها فقط، والعمل بينها وبين الله هو من يثيب أو يعاقب.
الطالب: وإن سألني شخص على مثل هذه الحالة تمامًا ماذا أقول؟
الشيخ عاصم: استفتي قلبك وإن أفتوك.
الطالب: إذن هذا الأمر يخضع لاختلاف العلماء، وكل شيخ يستند إلى دلائل، وأنت مثلًا وازنت الأمر بدعوة السيدة عائشة وروايتها للحديث وآخر سيقول إنه حرام قطعًا.
الشيخ عاصم: ثق أن الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور متشابهات فاجتنبوا الشبهات، وتجنب الشبهة واجب وفرض على المسلم؛ لكن في الوقت الحالي وانتشار الإلحاد والموبقات في المجتمع الجهاد أوجب من التجنب، فهمتني.
• الطالب: فهمتك الآن يا شيخنا، يعني ربما نبيح هذا الأمر الآن؛ لكن نحرمه إذا تغير المجتمع وصار أصلح، وهناك الكثيرون الذين يستطيعون القيام بهذا الدور بدلًا منها.
الشيخ عاصم: صحيح، وإليك مثال فقهي سريع، الإمام الشافعي قبل أن يأتي إلى مصر كان يحرم ارتداء البنطلون على النساء، خصوصًا حينما يظهر من الملابس، لا بد أن يكون الملبس طويلًا، فضفاضًا، ولا يظهر هذا البنطلون من الأساس أفضل؛ لكن حينما أتى لمصر، ورأى النساء يذهبنَّ إلى الحقول وهنَّ يركبنَّ الحمار، وسيقان بعضهنَّ تظهر إن لم ترتدي البنطلون، جعل ارتداء البنطلون هنا واجب، فهمت. وبذلك حينما أتى الإمام الشافعي لمصر رأى أن ارتداء البنطلون تحت الجلباب واجب على كل امرأة، حتى لا تظهر ساقيها وهي ذاهبة إلى الحقل.
الطالب: فهمت جدًّا يا شيخنا، الصغائر من الأمور وفروع الفروع تختلف باختلاف العصر والبيئة، والاجتهاد هنا على قيمة الفائدة، وكما نقول: -درء المفاسد مقدم على جلب المنافع-، فهنا المفاسد تخضع لنيتها، فإن كانت نيتها سليمة فلا مفاسد، والعمل كله منافع.
الشيخ عاصم: فتح الله عليك.
ثم أعقب كلامه، هل هناك أي سؤال آخر؟
الطلبة كلهم في نفس واحد أكمل يا شيخنا قصة جاسر.

****

جاء جاسر مبكرًا إلى الجامعة، ولم يكن لديه عمل في هذا اليوم، جاء خِصيصًا لاستكمال مناظراته مع زينب، وجلس في المكتبة ينتظرها حتى تنتهي من محاضراتها، ولم يهدر هذا الوقت سُدى،

أخذ يقرأ في كتب الاستشراق، ويقرأ القرآن، ويقرأ في الشبهات المثارة حول الإسلام ليزداد ثقافة، وبالطبع كان يقرأ الردود على الشبهات، وآراء المسلمين، ليتوقع رد زينب، والكل في الجامعة يحسبه مسلمًا، زينب الوحيدة التي كانت تعلم حقيقته، حتى أتت زينب، وبدأ النقاش.

وبدأ جاسر الكلام مباشرة: ألا تتعجبين أني بدأت النقاش معكِ في أحكام الإسلام ونواهيه وأوامره، ولم أتناقش معكِ في لب العقيدة من التوحيد للنبوة لأركان الإسلام؟

زينب: أعرف وأفهم لماذا اخترت النقاش في أحكام الإسلام والأوامر والنواهي، حتى تثبت فساد الأحكام، وبالتالي هذا يؤدي لفساد العقيدة من الأساس.

جاسر: رائع، ولاحظي إني اخترت النقاش عشوائي، لأني أعرف أنك غير متخصصة.

زينب: الإسلام ليس دين كهنوتي، يحتكر العلم فيه الشيوخ؛ بل كل شخص رسول للإسلام، وتعلم الدين في الإسلام فرض، وديننا يحثنا على البحث والقراءة أكثر منك، إيماننا يخضع للبحث والعقيدة السليمة، وليس اتباع فقط؛ بل إيمانًا راسخًا من داخلنا بعد البحث والقراءة، ولاحظ أنك لم تثبت فساد حُكم واحد رغم عدم اقتناعك بحكمتها.

جاسر: بل بها نقص واضح.

قاطعته زينب بهدوء: النقص موجود في فهمك وتربصك، وليس بها مثل قصة قرأتها لامرأة كانت ترى دومًا غسيل جارتها مترب من زجاج غرفتها وتسخر منها، حتى قال لها زوجها في يوم امسحي زجاج غرفتك، سوف ترينَّ الغسيل بشكل أوضح، واكتشفت بعد مسح الزجاج أن العيب كان في رؤيتها، أنت هكذا واضع نظارة متربصة كارهة، فتحاول أن تبحث في الثوب الأبيض عن نقطة ولو رمادية، ولو حاولت إخضاع الأمر للتحليل والتخلي عن عنصريتك تجاه الإسلام ستستشف الكثير، ولاحظ أننا نتناقش في الإسلام فقط، وليس في الإلحاد، أي أني جعلتك في موقف قوة وليس ضعف، اجعلك تبحث عن العيوب فيما لدي، ولا أبحث أنا عن عيوب بضاعتك لثقتي في كمال ما أملك.

جاسر: ألا ترينَّ أن هذا نوع من الغرور؟

زينب: بل ثقة في ديني، ثم عقلك وتفكيرك ومنهجك البحثي.

جاسر: أخجلتني.

زينب: المهم أن تقتنع.

جاسر: أصدقك القول أنا لم أقتنع بأي شيء حاولتِ إقناعي به حتى الآن، كل ما تحرك داخلي هو أني أردت البحث أكثر وأكثر للمعرفة، ليس أكثر من ذلك.

زينب: وهذا كل ما كنت أحلم به، ألم أقل لك إن الملحد العالم لو أكمل بحثه للنهاية لوصل لكبد الحقيقة.

جاسر: لا يأخذك الغرور لن اقتنع.

زينب هامسة في نفسها إن شاء الله ربنا يهديك، ويفتح قلبك للإسلام.

جاسر متابعًا: أعلم ماذا قلتي داخلك، وتعالي نكمل النقاش أفضل، عسى أن آخذك أنا لعالم الحرية والسعادة المطلقة.

زينب: كل مرة أنت تسأل وأنا أجيب دعني اسألك أنا مرة واحدة هل أنت سعيد؟

جاسر: لا توجد سعادة مطلقة؛ لكن أحيانًا سعيد وأحيانًا لا.

زينب: هل أنت راضٍ بقدرك وعن نفسك؟
جاسر: نعم راضي تمامًا.
زينب: لا بل كاذب، لست راضيًّا بالمرة، وساخط على كل شيء رغم غرورك، وساخط على ضعفك في حبي، وأنك أهنتِ نفسك، وهذا لا يحتاج لشرح.
جاسر: هل تعايريني؟
زينب: حاشا لله؛ لكن أنبهك أننا نتحاور بالصدق، وحينما تعي معاني الإسلام سوف تعرف معاني السعادة والرضا الأبدي.
جاسر: هل هذا إغراء لكي تدخليني الإسلام؟
زينب: الإسلام كله مغريات بناءة يا أستاذي، لا عاقل يرفض أن يسير في طريق الكمال وراحة البال.
جاسر: كلام شعارات وفلسفة إيمانية مزيفة تشعرون بها لا تنبت ولا تثمر.
زينب: اصبر وسترى زهرًا وثمرًا.
جاسر: كفانا هراء هيا ندخل للنقاش الحقيقي، ماذا عن اضطهاد الإسلام للديانات الأخرى وغير المسلمين، وفرض عليهم فروض عنصرية؟! وإليكِ هذا الدليل من القرآن: -قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون-. (سورة التوبة ٢٩)
وطبعًا حضرتك تعلمينَّ أن البعض من أهل الكتاب كانوا يدخلون الإسلام لترفع عنهم الجزية، هذا غير نشر الإسلام بحد السيف؟
زينب: لماذا تكلمت عن الجزية، ولم تتكلم عن الآية، فالملحدون وكل من يهاجم الإسلام يسمونها آية السيف، وأنها تأمر المسلمين بقتل غير المسلمين وتكرههم على الإسلام.
جاسر: قرأت كل هذا، وقرأت ردود العلماء على هذه الشبهة من كل الجهات، وأيضًا الآيات التي وردها العلماء التي تحض على السلم وحسن التعامل، وشعرت بالتناقض، وأنتِ طلبتي مني الحيادية؛ فاقتطاعي آية من القرآن واعتبرها القرآن كله إجحاف أو كما تقولون كمسلمين كمثل من يقرأ -ولا تقربوا الصلاة-، ويقف ويدمر المجمل؛ لكن الآية تستفزني حقيقة ووجدت أكثر شيء فيه إذلالًا هو الجزية.
زينب: جميل جدًّا احترم حضرتك على بحثك، وأفاجئك حينما حدثتني بالأمس، وقلت إن موضوعنا هو اضطهاد غير المسلمين، توقعت أن هذه الآية ستكون أول حوارنا، وبحثت في الموضوع كاملًا، وغالبًا نظرت لها نظرة غريبة مثلك حتى بحثت في أكثر من تفسير و ورد الآيات الأخرى يلجم أي لسان.
جاسر: إذن لم أشعر بالتناقض بمفردي.
زينب: لا لم أشعر بالتناقض شعرت بالغرابة، لأني قليلة العلم، ولما بحثت وصلت لليقين أكثر، وهذا الفرق بيني وبينك، يا أستاذي قاتلوا لو أتت اقتلوا، بماذا كنت ستفسر؟
جاسر: أن الأمر بقتل كل من لا يسلم.
زينب: الأمر جاء قاتلوا أي حاربوا بالإنجليزي (fight)، ولم تكن اقتلوا (kill) إذن قتال يعني طرفين، وليس طرف واحد أي جيشين، وليس ذهاب جيش قوي لاكتساح أرض مسالمة؛ فهذا ليس قتال بل اجتياح أو احتلال، هذه الآية نزلت بعد معركة تبوك مع الروم وهم أهل كتاب، وبالطبع لا

أحب أن اذكرك أن الروم من بدأوا بالإعداد لحرب المسلمين، يعني لم نسبق بالاعتداء، لم يذهب الرسول (صلى الله عليه وسلم) للاعتداء على أحد، والأمر هنا وأكرر ليس بالقتل؛ لكن بالقتال، ولاحظ أنه قال: -من لا يؤمن بالله وباليوم الآخر من أهل الكتاب- أي إنه لم يعمم أهل الكتاب.
جاسر: حتى من لا يؤمن بالله ليس لك حق محاربته هذا إجبار كل إنسان حر في معتقداته.
زينب: انظر للآية (١٩) من سورة البقرة -وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين-.
جاسر: هذه الآية هي والآية الأخرى التي تدعو للجنح للسلم ما جعلتني اتردد وأشعر بالتناقض.
زينب: يا أستاذي الأمر بسيط قاتلوا يعني حاربوا، وليس اقتلوا، والحرب تعني طرفين وفي الآيات السابقة من القرآن ستجد آية تقول لك إن الأقرب إلينا نصارى، فكيف نقاتل النصارى وهم الأقرب إلينا؟ كان وقتها سيثير المشركين واليهود هذه الشبهة، لو تم القتال بدون أمر إلهي، ثم إن القتال جاء لعدة أسباب: أول تلك الأسباب التي دعت المسلمين بقتال أهل الكتاب، بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ـ الحارث بن عمير الأزدي ـ على يدي شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني، حينما كان السفير يحمل رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى عظيم بُصْرَي، فبدأت بحرب مؤتة ثم اليرموك.
جاسر: لم أفهم جيدًا.
زينب: بسيطة جدًّا نفترض أن الحكومة المصرية قتلت السفير الأمريكي الذي يحمل رسالة من الحكومة الأمريكية، ماذا ستفعل أمريكا؟
جاسر: ستعلن الحرب على مصر بالطبع.
زينب: أنت أجبت، أعلن الحرب على من اعتدى علينا، وليس هذا فقط بل أمرنا أن نحافظ على أرواحهم حتى بعد الانتصار ونعطيهم حقوقهم، وهذا ما سنفسره في موضوع الجزية.
جاسر: ما أعجبك بالجزية! حميتي حقوقهم وحافظتي على أرواحهم.
زينب: اصبر وسترى الحكم النوراني الإلهي.
جاسر: كلي آذان صاغية.
زينب: الجزية في اللغة العربية مشتقة من جزى، أي المجازاة وغالبًا تكون المجازاة لها شقين الثواب والعقاب.
جاسر: ومن أنتم لتعاقبوا الناس، أنتم مجرد بشر، ليس لكم سلطان على أحد.
زينب: قال القرطبي: الذي دل عليه القرآن إن الجزية تؤخذ من المقاتلين، وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما تفرض على الرجال الأحرار البالغين، وهم الذين يقاتلون دون النساء والعبيد والذرية والمجانين المغلوبين على أمرهم، والشيخ الفاني. (الجامع لأحكام القرآن ٨\٧٢)
وقد كتب الفاروق عمر إلى ولاة المصائر، لا تفرضوا الجزية على النساء ولا الصبيان، ولا تضربوها إلا على من جرت عليه المواسي.
المواسي يا دكتور أي له لحية، وجرى عليها الموس.
جاسر: وهل تحسبيني جاهل؟! أنا أعلم.
زينب: أعتذر، نكمل حوارنا، إذن نتفق على أن الجزية لا تفرض إلا على البالغين من الرجال أو الشباب المقاتلين، وركز على كلمة مقاتلين - أي قاتلوا المسلمين - وهناك رأي أنها لا تجب على

أهل الذمة الذين يعيشون بيننا في سلام، إلا إذا قاتلونا أو مسوا معتقداتنا ومقدساتنا؛ لكن الرأي الأغلب أنها تفرض على الرجال والشباب المقاتلين، إذن نذهب لشروط الجزية:
١-أن يكون دافع الجزية من الرجال أو الشباب من سن ثمانية عشر إلى الستين، إذن من كل أسرة يدفع شخص، وهو رب الأسرة.
٢-إذا كان الرجل مريضًا أو عاجزًا أو لا يعمل، يعفى من الجزية حتى يقدر، وإن لم يقدر أُعفى منها تمامًا.
٣-لا تدفع إلا في الدولة التي تطبق الشريعة تطبيقًا صحيحًا، وبعد الوصول لحد الكفاف والمساواة.
٤-يعود نفع الجزية على أهل الذمة.
٥-مبلغ الجزية عن السنة الكاملة، كان أيام رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) دينارًا واحدًا، ولم يتجاوز الأربعة دنانير في العصر الأموي، إذن هو مبلغ زهيد جدًّا عن السنة الكاملة، من يبيع دينه بمثقال دينار، ويدخل الإسلام ليوفر دينارًا، إذن هو عالة على دينه وعلى الإسلام.
٦- إذا دخل في الإسلام في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو الخلفاء كان سيدفع زكاة الفطر -وكانت تساوي دينارين- هذا غير زكاة المال والزرع والتجارة، إذن المسلم يدفع أكثر من أهل الذمة.
٧- الدولة توفر لدافع الجزية الحماية والأمان والخدمات وتمهيد الطرق وتصون حريته الدينية وتحميها، تخيل هذا الدينار نظير الخدمات التي تقدمها الدولة على مدار عام، وأهمها حماية معتقداته وأرضه وعرضه وماله، وهل نحن المسلمين نطلب من دولتنا أكثر من ذلك؟ وهي تفرض علينا ضرائب باهظة.
٨- الجزية أمر لم يستحدثه المسلمين أو الشريعة الإسلامية، بل وجدت في كل الديانات والحضارات السابقة، وإليك الدليل:
قال المسيح لسمعان ماذا تظن يا سمعان؟ ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية؟ أمن بينهم أم من الأجانب، قال له بطرس من الأجانب، قال له يسوع: -فإذا البنون أحرار-، (متى ٢٤\١٧\٢٥)
أو كما صنع النبي يسوع مع الكنعانيين حين تغلب عليهم -فلم يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر، فسكن الكنعانيون في وسط أفرايم إلى هذا اليوم، وكانوا عبيد تحت الجزية-. (يشوع ١٠\١٦)
وإليك المثال الأخير والأهم، فسأل اليهود المسيح (عليه السلام) عن رأيه في أداء الجزية.
أقر المسيح بحق القياصرة في أخذها -فأرسلوا إليه تلاميذه من الهيدروسيين قائلين: يا معلم نعلم أنك صادق، وتعلم طريق الله بالحق، ولا تبالي أحدًا لأنك لا تنظر لوجوه الناس فقل لنا: ماذا تظن؟ أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟
فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة، قالوا: لقيصر، فقال لهم إذن اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله-. (متى ٢٢\١٦\٢١)
٩- الأقباط في مصر هربوا من المسيحيين الرومان لاختلاف الملة، وحرقوا بيوتهم وبنوا الأديرة في الصحراء بعيدًا عنهم، ورغم أنهم من نفس الدين ولاختلاف بسيط، وجاء المسلمون وأعادوهم من الجبال والصحراء وأبقوا على أديرتهم وكنائسهم وآمنوهم على أنفسهم بعد أن كان يتم حرقهم أحياء، وما زالت كنائسهم حتى الآن أثرية، يتحاكى بها الناس حافظت عليها الدولة الإسلامية، وأنت تكلمني عن دينار يقابله أضعافًا، تصرف من الدولة على أموال الزكاة، لدرجة أنه في عهد

عمر بن عبد العزيز (رضى الله عنه) نثرت أموال الزكاة في صورة قمح من فوق أعالي الجبال ليشبع الطير، بعد أن اكتفى المسلم والذمي في حرية تامة.
جاسر: يا أستاذة ...
زينب: من فضلك لا تقاطعني، اتركني أُكمل لأن هناك نقاط مهمة جدًّا.
جاسر: تفضلي.
زينب: بعد هذا كله يقول البعض الاضطهاد لغير المسلمين وتشكك في رحمة الإسلام أقول لك أوامر الإسلام -لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين-. (سورة الممتحنة٨)
تدبر معي هذه الآية، الله - عزوجل - يأمرنا أن نبرهم ونعدل إليهم، ولم يأمرنا الله - عزوجل - بالبر إلا للوالدين، في هذه الآية يأمرنا أن نبر غير المسلمين يـا لعظمة الإسلام.
والبر في الإسلام هو حسن الخلق، وفي اللغة الإحسان وأحيانًا البر يعني القمح أي الخير، أي دين هذا الذي يجعل الكل سواء تحت مظلته، حتى ولو كانوا غير مسلمين إلا دين رحمة وحب.
يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): -إلا من ظلم معاهدًا أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة-. (رواه النسائي٨\٢)
جاسر: أتعلمين هذه أول مرة اسمع فيها هذا الحديث.
زينب: وهناك أحاديث كثيرة لن يتسع المجال لسردها ابحث عنها بنفسك، نعود ونستكمل أمر الجزية في قوله: -وهم صاغرون- هو معنى لا يمكن أن يتنافى مع أمر الله بالبر لأهل الذمة، ورسولنا الكريم أمرنا بحسن المعاملة والعدل مع كل معاهد، فَسّره الإمام الشافعي بأن تجري عليهم أحكام الإسلام القانونية، الجزية علامة على خضوع الأمة المنهزمة لقانون الأمـة الغالبـة، فـهم فـي حالـة انتصـارهم علـى المسـلمين كـانوا سيأخذون المسـلمين أسـرى ويسـلبون أراضـي المسـلمين ويستعبدونهم؛ لكن حينما انعكس الأمر ونصر الله المسلمين عاملوهم بالعدل وبالقانون، ولم يسبلوهم أو يستعبدوهم أو يجبروهم على دين، طلبوا احترام القانون فقط مع الوضع في الاعتبار أن هناك حرية في عبادتهم و الأمور التي تتنافى مع عقيدة الإسلام مثل أكل لحم الخنزير، لم يجبرهم على شيء رغم أنهما أُمتين متحاربتين وهذه حرية تامة.
وفسر التابعي عكرمة مولى بن عباس -وهم صاغرون- أن يكونوا قيامًا والآخذ جلوسًا حتى تكون اليد المعطية هي العليا والآخذة هي السفلى ونضرب مثال على ذلك، حينما فتح خالد بن الوليد دمشق كتب -بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها أمنا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم، لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم ولهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية-. (فتوح البلدان للبلاذري ١٢٨)
وإليك مثال آخر قاطع مانع -حينما عجز المسلمون عن أداء حقوق أهل الذمة وحمايتهم من عدوهم، ردوا إليهم ما أخذوه من الجزية لفوات شرطها وهو الحماية -؛ فقد روى القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج عن مكحول- أن الأخبار تتابعت على عبيدة بن الجراح بجموع الروم، فاشتد عليه وعلى المسلمين، فكتب عبيدة لكل والٍ ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبى منهم من الجزية والخراج، كتب إليهم أن يقولوا لهم: إنما رددنا عليكم أموالكم

لأن قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن بكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم أن نصرنا الله عليهم-.
جاسر: أبهرتِني لم يتبق لي سوى خمس دقائق وأعلن إسلامي.
زينب: هل تتكلم بصدق؟
جاسر: أنا أتهكم، أكملي كلامك لأنه أعجبني.
امتعضت زينب وأكملت: وإليك مثال أخير بحكم سيبهرك، -حينما قام أهل بالذمة بالمشاركة في الزود عن بلادهم، أسقط عنهم المسلمين الجزية-، كما صنع معاوية (رضي الله عنه) مع الأرمن، يقول لوران المؤرخ الفرنسي في كتابة -أرمينية بين بيزنطة والإسلام- أن الأرمن أحسنوا استقبال المسلمين ليتحرروا من ربقة بيزنطة، وتحالفوا معهم ليستعينوا بهم على مقاتلة الخرز.
وترك العرب لهم أوضاعهم التي ألفوها وساروا عليها، والعهد أعطاه معاوية سنة ٦٥٣م إلى القائد تيودور رختوني ولجميع أبناء جنسه ما داموا راغبين فيه وفي جملته -أن لا يأخذ منهم جزية ثلاث سنين، ثم يبذلون بعدها ما شاءوا، كما عاهدوه وأوثقوه على أن يقوموا بحاجة خمسة عشر ألف مقاتل من الفرسان منهم بدلًا من الجزية، وأن لا يرسل الخليفة إلى معاقل أرمينا أمراء ولا قادة ولا خيلًا ولا قضاة، وإذا أغار عليهم الروم أمدهم بكل ما يريدونه من نجدات، وأشهد معاوية الله على ذلك- المراجع: (الخراج (١٣٥)، و فتوح البلدان للبُلاذري، وفتوح الشام للأذري)
وكانت الجزية تدفع مقابل الحماية، لأن أهل الذمة لا ينخرطون في جيوش المسلمين ومقابل هذه الجزية يدفع عنهم المسلمين الأذى، وحتى من سوء الكلام وله الحق مثل المسلم تمامًا، وبالتأكيد تعرف مخاصمة اليهودي للإمام علي في درعه وحكم القاضي لليهودي بالدرع.
جاسر: هل قدمتي كل شروحك أم ما زال هناك بقية؟
زينب: نعم، قدمت كل شروحي متى تطبق الجزية؟ وعلى من تجب؟ وشكل أدائها وتقديرها وبعض الفوائد منها وجزء من حكمتها.
جاسر: هناك جزء من كلامك يعني إمكانية عدم تطبيق الجزية.
زينب: نعم، لا تطبّق إذا انخرط الذمي في جيش بلاده المسلمة، ودافع عن ثوابتها والله أعلم.
جاسر: وإذا لم ينخرط في جيش بلاد المسلمين يدفع الجزية.
زينب: نعم.
جاسر: وهل هذا عدل؟
زينب: نعم قمة العدل، وإن كنت لا ترى بأعينك المسلمين الآن يدفعون الجزية لضعفهم وبعدهم عن الإسلام.
جاسر: أتقصدين المسلمين يدفعون الجزية! لمن إذن؟
زينب: يدفعونها للقوى العظمى، التي تقيم قواعد عسكرية في بلادهم.
جاسر: دفعهم نظير خدمات وليست جزية، إن هذه القواعد تحمي أراضيهم.
زينب: والجزية نظير الحماية أيضًا، وإليك تعقيب الجزية لم تكن ابتداعًا إسلاميًّا؛ بل موجودة من قدم التاريخ وقبل الإسلام بقرون طويلة، الجزية في الإسلام كانت قروشًا معدودة، أما دول الإلحاد والعلمانية تنهب خيراتنا وتسرقها وتسرقنا، نتاج ضعفنا وتشرذمنا، وصرنا بعد عز ندفع نحن الجزية ومن لا يرى ذلك أعمى.

جاسر: ألا تلاحظين أننا تكلمنا عن آية واحدة أكثر من ساعة، والأفضل أن نتناقش في موضوع آخر، ورأيي نتناقش مرة في ركن من أركان الإسلام، وليكن الزكاة.
زينب: نؤجل الكلام في الزكاة للغد، فقد مضى أكثر من ساعة ولا بد أن انصرف، وبالمناسبة هذه الآية تحتاج كتابًا وليس مجرد سويعات، سلام الله عليك.
لم يمتعض جاسر من سلامها المعتاد وقال: مع السلامة.

الزكاة

غابت زينب أسبوعًا كاملًا عن الجامعة، وجاسر لا يستطيع الوصول لها وهو يفكر أن يقوم بعمل مجنون ويذهب إلى قريتها مرة أخرى؛ لكنه تماسك ولا يدري من أين أتى بهذا التماسك والعقلانية وأصبحت نفسه هادئة؟ هل عاد لسابق عهده برزانته وكبريائه المغرور أم أن هناك قضية كبرى تشغله ولا تجعله ضعيف أمام أمور الدنيا؟ حتى عادت زينب إلى الجامعة وهو ينتظرها بشغف واستقبلها وهو متلهف للمناظرة بنفس تلهفه لرؤيتها.

جاسر بابتسامة هادئة: حمد الله على السلامة، ما سبب الغيبة؟

زينب: أنا اعتذر والدتي كانت مريضة، ولم استطع العودة للقاهرة دون أن أمرضها وأتركها في أحسن حال، وهذه عبادة كبرى في الإسلام، تخيل حبنا عبادة.

جاسر: وهو يتجاهل كلامها الأخير تفضلي هذه المحاضرات والأبحاث وكل ما فاتك خلال هذا الأسبوع جمعته لك.

زينب: بارك الله فيك، أنا فعلًا تأخرت كثيرًا ومناظراتك عطلتني أكثر، وبالفعل أنا مقصرة في حق الدراسة جدًّا، وكنت سأطلب منك أن نؤجل المناظرات أو نجعلها مرة واحدة في الأسبوع.

جاسر: لا تخافي جمعت لكِ معظم المنهج والأبحاث ولخصت لكِ النظريات والتجارب، وسأشرحها لكِ في المكتبة إن أردتِ، وأعوضك عن الساعات التي فاتت بأضعافها وستكونين الأولى على الدفعة.

زينب: إن شاء الله، موافقة على فكرة الدروس الخصوصية وعلى حسابك الشخصي؛ لأنك من تسببت في هذا لكن ليس في الجامعة، في بيت خالي جاسر.

متفاجئًا وسعيد: متى؟

زينب: انتظر حتى الوقت المناسب، أمستعد؟

جاسر: اتفقنا، أتعلمين أن هذه أول مرة أشعر باتزان من أول لحظة رأيتك فيها هذا الأسبوع واستقرار نفسي غريب، وأخذت أفكر هل توقف حبك في قلبي؟؛ لكن اكتشفت وجود قضية كبرى، ألا وهي بحثي في الدين الإسلامي بكل جوانبه، جعلني متأكدًا أن وجود القضية الكبرى والهدف داخل الإنسان يجعله راسخًا وقويًّا.

زينب: وهذا ما فعله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) مع قوم قريش لإصلاحهم جعل لهم قضية وهدف.

جاسر: دعينا نتكلم في موضوع اليوم [الزكاة] ما هي مصارف الزكاة؟

زينب: الفقراء، المساكين، العاملين عليها، المؤلفة قلوبهم، الغارمين، وفي الرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل.

جاسر: المؤلفة قلوبهم هم الداخلين في الاسلام حديثًا، وفي الرقاب أي تحرير العبيد والأرقاء المسلمين، وفي سبيل الله أي الجهاد، وأنتِ قلتي إن الجزية تقابل الزكاة، أي مثل الزكاة، هل تأخذين من أهل الذمة لتعطيه مكافأة لمن يدخل في الإسلام ولتحرير الأرقاء من المسلمين ولتجهيز جيوش المسلمين؟

زينب: أتدري هؤلاء هم الملحدون، تكلمهم في شيء يلف، ويدور، ويعبث، ويتلاعب بالكلمات، ويأتي ليقول لك انظر هذا خلل في الإسلام دين ناقص تنطبق عليهم هذه الآية تمامًا: -وَلَوْ أَنَّنَا نَـزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ-. (الأنعام الآية ١١١)
جاسر: هذه إهانة وتهكم ألا تلاحظين هذا؟
زينب: أين التهكم والإهانة هذا واقع، الله لا يريدك أن تؤمن، يا أستاذي تكلمنا عن الجزية وقلنا إنها مقابلة للزكاة وليست مثل الزكاة، وهي نظير الحماية وشرحت كل شروطها، أنا لن أجادل في هذه النقطة ألف مرة، غالبية الملحدين هكذا، مغرورين يعتبرون الأمر صراع وانتصار لا يصدقون أي شيء، يتركون كل شيء ويلوون عنق الحقيقة، المهم إثبات أن الدين ناقص ليداروا نقصهم وضعف حجتهم، يا أستاذي الدين كامل، وهذا ليس إهانة؛ لكن أنت الذي تبتعد عن الخير، تكلمنا في نقطة وقتلناها بحثًا لماذا هذا الجدل؟
جاسر: إذن لن أتكلم ولن أجادل، سأنتقد فقهكم وأن الدين ليس صالح لكل زمان ومكان.
زينب وهي في حالة غضب: كيف؟
جاسر: هل هناك عبيد وأرقاء الآن؟
زينب: رسميًّا وشكليًّا لا؛ لكن حقيقة أه.
جاسر: نعم أتقصدين أن هناك عبيد يباعوا بالمال.
زينب: إن حال الظلم والجهل الذي ترزخ فيه الأمة العربية والحروب يؤكد أن هناك عبيد؛ لكن لا يباعوا في شكل عبيد، أما لو تقصد عبيدًا وإماءًا وجواريًّا كالعصور الوسطى، قانونيًّا وشكليًّا ورسميًّا لم يعد هناك وجود للعبيد، ولا أريد أن أدخلك لمتاهات من الحوار.
جاسر: إذن ليس هناك عبيد الآن، رغم أن قرآنكم يقول غير ذلك، وهو هنا لم يسبق زمانه ليخبركم أنه يومًا لن يكون هناك عبيد، وكيف ستكملون مصارف الزكاة؟
زينب ضاحكة: حضرتك يا دكتور مصمم على أن تأخذ كل حرف وكلمة بمعنى جامد غير مرن وهذا الفهم القاصر، ذكر أن هناك عبيد ولم يتنبأ بإلغاء العبودية، هل لم يعلم الله أن العبودية ستنتهي وهو الخالق؟ هل هذا ما تريد إثباته؟
جاسر: ممتاز، فهمتِني ولخّصتِ كل ما كنت أود قوله.
زينب: رددت على هذا الأمر مسبقًا في مناظرة تعدد الزوجات، حينما قلت لك لا بد أن يكون هناك خطط بديلة في الدول الكبرى والاستعداد لأي طارئ، والمرونة، هذه مرونة وبساطة وكمال لا تعي حكمتها لأن قلبك مغلق متصيد، افهم أن هذا كمال ماذا لو عادت العبودية يومًا؟ ماذا لو كان القرآن يرفع منه ويقص حسب الظروف المكانية والزمانية؟ كان سيتم تحريفه، إذا كنت تنوي الحديث عن العبودية فأنا مستعدة.
جاسر: لا أود الحديث عن العبودية الآن نؤجلها لحوار آخر؛ لكن الزكاة كيف ستوجهون مصارفها كما حدد القرآن، أم تقصون وتلصقون كما تشاؤون.
زينب: يا أستاذي الفاضل أراك تحولت لجدل بيزنطي وغابت عنك جدية الحوار والفكرة التي كنت تتميز بها، ما المشكلة أنه لا يوجد عبيد أتلك مصيبة؟ هذا الباب وضع مناسب لكل مكان وزمان، وإذا تغيرت الظروف فالزكاة ثابتة وأمر مصارفها ثابت ويتسع كل شيء حتى إنه في عهد عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين؛ لأن الزكاة زادت عن حاجة المسلمين وأهل الذمة أيضًا،

أمر أمير المؤمنين بشراء قمح ونثره فوق أعالي الجبال من أجل الطير، والطير لم يذكر في القرآن، أنت لا تفهم المعنى والحكمة، والحكمة أن الزكاة تنهي الفقر.
جاسر ساخرًا: أبهرتِني، الزكاة تنهي الفقر، لم أراه مرة ينتهي في مصر.
زينب: وبكل ثقة لو طبقت الزكاة في العالم كله لانتهى الفقر تمامًا في كل العالم وليس في مصر وحدها.
جاسر ضاحكًا: لا تجعليني استهزأ بكِ، الزكاة لا تفعل شيئًا في مصر.
زينب: لا تتحداني كثيرًا ولأول مرة سأحدثك بتحدي وأنت نفسك ستستلم، إليك المعادلة.
أغنياء مصر لا يدفعون الزكاة هذه حقيقة مطلقة وليس تخمين؛ لكن لن أطبق المعادلة على مصر بل على العالم أجمع، طبقًا لمنظمة الأمم المتحدة هناك مليار نسمة تحت خط الفقر، ولدينا أيضًا في العالم ١٦٠٠ ملياردير، مجموع ثرواتهم يتخطى ال١٥ تريليون دولار، نسبة الزكاة المستحقة عن هذه الأموال سنويًّا ٣٠٠ مليار دولار وأكثر، أي ما يعادل لكل شخص ٣٠٠ دولار، ولو أسرة مكونة من خمسة أفراد ستحصل على ١٥٠٠ دولار، هذا غير زكاة المليونيرات وهم أكثر بكثير من عدد المليارديرات، ربما يتضاعف المبلغ أضعافًا وأضعافًا وما دون المليونيرات، وهذه زكاة المال فقط غير زكاة الزروع والدواب إلخ.
ينتهي الفقر في العالم أم لا يا دكتور جاوبني؟
جاسر: ولماذا لا تفعلون ذلك في مصر؟
زينب: لأننا هجرنا ديننا فأصبحنا ضعفاء، وكما ترانا متخلفين فقراء، لأن الكاذبين من يتحكمون ويملكون.
جاسر: لكن هذا كلام نظري يا زينب.
زينب: بل طبق من قبل يا دكتور، وذكرت لك موقف خامس الخلفاء الراشدين وبالتأكيد تعرفه، وأنت لم تطبقه لتحكم، وحينما أتت جماعات بهدف الحكم مثل: طالبان أو غيرها فقد شوهت الإسلام واتخذته وسيلة للحكم، وأنتم اتباع الدين المادي ترفضون تطبيق صحيح الدين، لكي نبقى متخلفين ولا نطبق العدالة، ولهذا هم ثرواتهم تزداد ونحن نزداد فقرًا وهم في كل مكان يتحكمون بنا.
جاسر: ضعي نظارتك فوق عيناكِ أنا شخص واحد، أنتم من أنا لست جماعة ولا حاكم العالم.
زينب: عفوًا لا أقصدك بشكل شخصي، والآن هل عندك شك في كمال الإسلام؟ وجاهزيته بالحلول لأي ظرف وأي مكان وزمان، الإسلام لم يترك أمرًا من أمور الدنيا إلا وضعه في الكتاب. جاسر: إذا كان القرآن ذكر كل شيء كما تقولين، فكم متوسط عمر الجمل؟
زينب: -فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون-.
وأهل الذكر هنا هو الجّمال. جاسر: أتدرين ما يعجبني في دينكم، أنه دين ديناميكي والمؤمنون والعاملون به أمثالك ديناميكيين، يطوعونه كيفما شاءوا ويفسرونه كيف شاءوا.
زينب: أنا لم أفسر أي شيء ولا امتلك تفسير أي شيء؛ لأني لست عالمة بالقرآن أنا مسلمة اتعلم ديني، فسر يا أستاذي -فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون-.
جاسر: معنى فضفاض لا يؤدي لشيء، معنى هذا أنه لم يذكر شيء ولا يحل أي مشكلة.
زينب: بل معنى هذا أنه حل كل المشكلات التي ستلاقيها في حياتك أن لكل مشكلة معضلة مختص، وهذا حث صريح على العلم وتعلم شتى المجالات، ولم يأمرنا بالدجل أو صنع كهنوت في

الإسلام يحتكر العلم بل كل مجال له مختصينه، ومعنى هذا ألا يفتي كل إنسان في أي شيء؛ بل يذهب إلى المختص ونأخذ بالأسباب.
جاسر: ما هذه العبقرية؟ وهذا الكمال الذي تصفين به في التفسير أنتِ تبهريني بوضع كمال نظري لكل معنى.
زينب: كفاك تهكم يا دكتور، أنت لا تريد أن تفهم أن القرآن حكمة ونور ورحمة، ليس مجموعة نظريات علمية ومصطلحات ثابتة جامدة، فغالبًا هناك نظريات كثيرة تنهدم أو يكون لها حالات شاذة، ولا بد لها من عوامل ثابتة لتتم المعادلة على أكمل وجه؛ لكن القرآن ليس لأحكامه شواذ لا يحتاج وسط ثابت لإتمام أحكام بل صالح لكل شيء، سأعطيك مثال الفاروق عمر بن الخطاب -عطل حد السرقة في عام المجاعة على من لا يجدون قوت يومهم دون وجود نص قرآني يأمر بذلك-.
جاسر: وهل الفاروق نبيكم وقرآنكم؟
زينب: الفاروق كان ثاني وزيري رسول الله ويفهم حكمة القرآن لدرجة أن القرآن كان ينزل أحيانًا مؤيدًا لمواقفه.
جاسر: وهل هذه الصفات تؤهله لأن يبدل أمر القرآن؟
زينب: لم يبدل أمر قرآني؛ بل طبقه بالصورة الصحيحة التي لا يعرف تطبيقها المتشددين للنصوص وغير الملمين بأحكام وحكمة القرآن والحديث والإسلام عامة استنادًا إلى نص -لا يكلف الله نفساً إلا وسعها-.
جاسر: لا أفهم!
زينب: الأمر بسيط جدًّا، طرأ طارئ ألا وهو المجاعة، والناس تتضور جوعًا، لا يملكون قوت يومهم ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وليس بوسعهم تحمل الجوع إما قطع اليد أو الموت، قطع اليد أهون، وهنا كان لا بد من تعطيل حد السرقة، وهذا على من لم يكن له الكفاف، استنادًا إلى نص قرآني ألا وهو -لا يكلف الله نفسا إلا وسعها-، إنسانية في دين الرحمة لا توجد في أي دين ولا في أي قانون وضعي، أمرين قرآنين متكاملين، أمر بقطع يد السارق، وأمر مكمل ألا يكون فوق طاقة النفس.
جاسر: ألا ترين تناقضك في قولك أمرين متكاملين، رغم أن أحدهم رحمة والآخر عقاب، كيف يكملون بعضهم وهم عكس بعضهما تمامًا كيف؟ أتريدين أن تسلبيني عقلي كلية وتهدمين المنطق.
زينب: يا أستاذي أي هدم للمنطق، التضاد هو الذي يصنع الكمال، لو لم يكن هناك ظلام ما عرفنا أن هناك نور لو لم يكن هناك جوع ما عرفنا لذة الطعام، لو لم يكن هناك رسوب ما عرفنا معنى النجاح، لو لم يكن لديك قلب ما عرفت معنى الحب.
استفزت كلمة الحب جاسر: فنهض وقال: هل تسمحين بالانصراف.
شعرت بالإحراج، وأنها استفزته وقالت: اتفضل يا دكتور.
بعد أن خرج جاسر مشى يفكر هل هو استأذن في الانصراف لأنه شعر أنها تعايره بحبه لها، أم لأن حجتها قوية وشعر أن قلبه رق للإسلام، هل من الممكن الكمال والمرونة في كلمات بسيطة جدًّا تصيب ذبذبة في عقله، هل هو الذي فهم كلام القرآن خطئًا، أم أن زينب هي من فهمت القرآن خطئًا، إنه دومًا يرى شكه يقين، ويقين الاخرين له شك؛ لكن وبقمة الغرابة فجأة قال لنفسه: لن

أكون مثل المغيبين، الدين أفيون الشعوب يخدروا به البؤساء لينتظروا الجنة المليئة بكل ما هم محرومين منه، وصرخ داخل نفسه هراء هراء.

إكراه الدين ومعضلة الشر

في اليوم التالي جاء جاسر مبكرًا وهو متحفز وبداخله رغبة كبيرة في الهجوم على زينب، وسبقها إلى المكتبة وهو ممسك بعدة كتب ويقرأ بتسارع، وأول ما دخلت زينب قال: استعدي اليوم لأني سأناقش بكل عقلي.
زينب: يبدو أن شيطانك يقاوم الفطرة الطيبة التي بدأت تغزوك.
جاسر: الشيطان هذا وهم، اخترعتموه لتبرروا وجود الشر بوجوده.
زينب: كل شيء منزل في أرض الله بأمر الله.
جاسر: إذن الشر خلق الله، ستجيبين على هذا السؤال، بعد أن تجيبي هل تنكري أن الإسلام انتشر بحد السيف؟
زينب: بعدما شرحت لك الجزية بتفاصيلها، وكيفية تعاملنا مع أهل الذمة، تقول لي انتشر الإسلام بحد السيف.
جاسر: نعم حد السيف، لم تدخلوا الإسلام إلى الشام أو مصر أو العراق بالسلام؛ بل بعد قتال مرير.
زينب: اذكر حال العرب قبل نزول نبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم).
جاسر: كانوا قبائل متفرقة متعادية وهم أضعف أهل الأرض، وقتها جاء محمد ووعدهم بالمغانم والأسلاب والسبايا فاتبعوه.
زينب: جميل جدًّا، لماذا وأنت عبقري وسبقت كل أقرانك علمًا وكنت أصغر دكتور في مصر لا تذهب إلى الناس وتقول لهم اتبعوني وسأعطيكم مغانم وأسلاب ومشهيات ونساء كما تتمنوا؟
جاسر: لست بساحر ولا كاهن مثل محمد.
زينب: لو سمحت حينما تتحدث معي تحترمني، ومن تتكلم عليه أغلى من أبي وأمي فانتقي ألفاظك وأنت تتحدث عنه حتى لو لم تؤمن به احترم تحترم.
جاسر: أنا لم أسب أو أقول أي شيء فيه عدم احترام هذه صفة نبيكم، ولا أعيب في شخصه.
زينب: لا عجب أن تكونوا ورثة أبو جهل وأبو لهب، فقد كانوا يقولون هذا وأكثر لم تختلفوا عنهم كثيرًا.
جاسر: ألا تلحظين أنكي من تسبي الآن.
زينب: ليس سبًا هما قالوا هذا وأنت بعد أكثر من ١٤٠٠ سنة تقولوا ما الفرق؟ ورثتم العداوة ومنهاجهم وكلامهم.
جاسر: دخلنا في حوارات جانبية، أنا احترم محمد وشخصه وله كل الاحترام، انتهي الخلاف، أجيبي إذن.
زينب ضاحكة: كل من قال عليه ساحرًا أو كاهنًا أقروا بنبوته، استبشر خيرًا الآن، يبدو أننا اقتربنا.
جاسر: لا، تحلمين كثيرًا.
زينب: نبدأ الحوار بالتدريج أيها المتناقض، تقول إن نبينا الكريم وعد العرب بالمشهيات، وأنت في أول حوارك معي قلت إن ديننا دين الكثير من الحرام القليل من الحلال.

جاسر: خانني التعبير أقصد وعدهم الملك وحرية تملك الناس.
زينب: كانوا ملوك على قبائلهم، وكانوا ذو عزة تصل إلى الغرور وكانوا يرفضون أي شخص من خارج القبيلة يأتي ليكن له مكانة وسطهم حتى لو كان ملكًا، وفي الإسلام كانوا يرضون بحاكم عليهم من خارج المدينة ما دام أكثرهم علمًا وعملًا.
جاسر: كلام غير مقنع.
زينب: إذن نأتي للكلام المقنع، أول رد على شبهتك نشر الإسلام بحد السيف -لا إكراه في الدين-. (البقرة ٢٥٦)
كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان متنصران قبل مبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم قدما للمدينة في نفر من النصارى يحملون الزيت، فلزمهما أبوهما وقال: لا أدعكما حتى تسلمان، فأبيا أن يسلما، فاختصموا إلى النبي، فقال يا رسول لله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر، فأنزل قول الله تعالى -لا إكراه في الدين- فخلى رسول الله سبيلهما. (السيوطي باب النزول ٣٧)
جاسر: يا أستاذة اتفقنا أنه لا دليل نقلي لا أصدق هذه المؤلفات أريد دليل عقلي يقنعني.
زينب: رغم أن هذا إثبات واقع والآية قاطعة مانعة؛ لكن كما تشاء، دعني أفاجئك بمفاجئة، لو قمنا بإحصاء عدد الذين ماتوا في كل حروب فترة النبوة، سواء من شهداء المسلمين أو أعداء المسلمين على مدار عشر سنوات كاملة، تجد العدد ١٢٨٤منهم ٢٦٢ شهيد مسلم تقريبًا و١٠٢٢ من قتلى أعداء الإسلام، قارن عدد القتلى بحروب الآن؛ بل بحروب الإسكندر الأكبر، والدولة الرومانية، وحروب الفرس، أو التتار أو الحروب الصليبية على المسلمين في القرون الوسطى، وهم يدخلون مدن الإسلام يذبحون في كل من يصادفهم، وابحث بنفسك لن أعطيك المراجع واتحداك أن وجدت مرجعًا واحدًا ينفي هذه الحقيقة.
جاسر: ما الدليل على دمويتهم؟
زينب: يا أستاذي اقرأ ملاحم هوميروس الإلياذة والأوديسة وهو يصف حروب إبادة، وكانت حروب بالسيف واقرا فصل حصار طروادة وانظر ماذا فعلوا حينما دخلوا، وانظر إلى الدولة الرومانية التي أنهت دمويتها أمة الإسلام، أعتقد أن السينما الأمريكية صنعت لكم مئات الأفلام عن هذه الحقبة ودللت بنفسها على دمويتها واستعبادها للناس، وكيف كانت دمويتهم وليس أقل مثلًا من المصارعة حتى الموت التي كانت طقوس فيما بينهم، هؤلاء الرومان الذين حاربناهم لنحرر الضعفاء منهم كالشام ومصر وشمال أفريقيا، نحن محررون العبيد الحقيقيين، حررنا الضعفاء من استعباد الرومان.
جاسر: أي قوة عظمى الغطرسة تأخذها إلى الدموية لإثبات قوتها، وأيضًا حق العرب أن يكونوا قوة عظمى؛ لكن ما ليس من حقهم أن ينشروا فكر حجري بحد السيف.
زينب: جدل من أجل الجدل.
جاسر: بل حقيقة لا تستطيعين الرد عليها.
زينب: نسبة القتلى في الحروب النبوية كلها لا تتخطى واحد على عشرة ألاف من قتلى الحرب العالمية فقط، ومصمم أن تقول نشر بالسيف، كيف وليس هناك قتلى؟ وحربكم العالمية الثانية أيتها الحضارة العلمانية قتلت ٥٥ مليون من أجل بسط نفوذها.
جاسر: تقارني حروب في القرن العشرين بحروب في القرن السادس.

زينب: أنت تريد الجدل ولن تنتهي أبدًا حتى لو أتيت لك بمائة ألف دليل، قل لي كيف انتشر الإسلام في الهند وحكم الإسلام في الهند ثماني قرون وهم أقلية وظل الهندوس أكثرية؟ حتى بعد احتلال الهند وإعطاء الإنجليز الحكم للهندوس ظل المسلمون راسخين على عقيدتهم رغم تعرضهم لحروب إبادة، لم يكفروا بالإسلام بحد السيف أم أن الإيمان بحد السيف والكفر بالإسلام بحد السيف مستحيل، ولم يستسلموا لسيف الهندوس أو الإنجليز؟

جاسر: الهند حالة فردية، لأن المسلمين كانوا أقلية.

زينب: الهند حالة فردية وماليزيا حالة فردية وأندونيسيا أكبر دولة إسلامية حالة فردية، ومالي والسنغال وأجزاء من نيجريا وأثيوبيا، ورغم أن المسلمين أكثرية في أثيوبيا إلا أن الأقلية المسيحية هي التي تحكم.

جاسر: المهم قلب الإسلام المنطقة العربية.

زينب: هل تعرف أن نصر الإسلام حاليًّا لا يأتي من قلب الإسلام ولا من بلاده، التي نشأ بها ولا من المنطقة العربية كلها؛ بل يأتي من الغرب، انظر إلى [بيير فوجل] في ألمانيا وكيف ينصر الله الإسلام على يديه وانظر إلى [يوسف استس] في أمريكا، صحيفة اندبدت في انجلترا كتبت أن العدد الحقيقي للبريطانيين المعتنقين الإسلام يمكن أن يكون أعلى من ١٠٠ ألف بريطاني وذلك نقلًا عن دراسة جديدة لمجموعة [فيث ماترز الفكرية] كما قدرت الدراسة نفسها أن عدد البريطانيين المعتنقين الإسلام سنويًّا بأكثر من ٥٠٠٠ حالة، ابحث بنفسك وبأسلوب البحث العلمي الذي تتقنه، واسأل نفسك سؤال مهم جدًّا إذا كان الغرب المتعلم ومع انتشار مرض الإسلاموفوبيا ودون أي وسائل دعاية للإسلام في الغرب يدخلون في الإسلام أفواجًا رغم إيمانهم بالعلمانية الكاملة التي تؤمن أنت بها، يجدون أن هذا الدين يتفوق على علمهم، ليس لأن الدين يتفوق على العلم؛ بل لأن الدين الكل والعلم جزء من الدين، كيف اترك الكل واتمسك بالجزء؟

جاسر: لم تثبتي أنه لم ينتشر في قلب المنطقة العربية بحد السيف وتتكلمين عن الغرب.

زينب: قلت لك في كل المعارك التي حدثت أثناء دولة النبوة كان معتدى علينا وكانوا لا بد من أن يحاربوا هذا الدين الذي يوحد البشر ويطلب بالمساواة وأخذ الحقوق من الملوك والمغتصبين والمحتلين إلى الفقراء وأن الكل سواسية واقرأ كل الكتب واكتب هل هناك مرة اعتدينا على بلد، حروبنا كانت مع الفرس والروم القوتين العظمتين، هل حاربنا مع المصريين الذين كانوا يفرون من جحيم وبطش الرومان هل حاربنا أهل الشام هل حاربنا أهل العراق، حروبنا كانت مع قوى عظمى تحتل أراضي الغير وحاولت إبادة المسلمين ليظلوا يغتصبون حقوق البشر ويستعبدونهم، دافعنا عن أنفسنا وأنهينا قانون الغاب، هل أنت من مؤيدين قانون الغاب وعدم المساواة في الفرص وتحب الدماء؟

جاسر: لا تتهميني هذا التهمة البشعة، دعينا من أمر حد السيف.

زينب: تعقيب صغير لماذا حينما دخل الصليبيون الشام لم يترك أهل الشام الإسلام خصوصًا أنهم كانوا يذبحون المسلمين، لماذا تمسكوا بدينهم رغم الموت؛ لكن دخلوا الإسلام خوفًا من الموت ألا ترى تناقضكم؟

جاسر: دعينا من هذا الأمر سينتهي لجدل بلا فائدة وكل منا له عقله، اسألك سؤال آخر، أنت قلتي إن الله خالق كل شيء، كيف لرب غفور رحيم يخلق الشيطان والشر؟ كيف يكون هذا التناقض في خالقكم؟

زينب: الشر يكمل الخير يا أستاذي إنها مسألة كمال.
جاسر: الشر انعدام للخير.
زينب: خطأ علمي فادح وفلسفي، لا يوجد عدم في الكون علميًا، أو حتى في حياتنا العملية، بل يوجد خير أكثر من الشر، أو شر أكثر من الخير، لا توجد انعدامية هذا عكس كل النظريات الفيزيائية وضد الطبيعة، ولا يوجد كمال لعنصر واحد في الطبيعة والخواص بل عدة عناصر تحقق الكمال، حتى الذهب لا يوجد منفردًا؛ لكنه الأصل والعناصر الأخرى حوله استثناء، كذلك الخير الأصل والشر استثناء، وإذا ازداد تزيد معه كل الموبقات والأمراض النفسية والخلل المجتمعي كما هو موجود حاليًا وهذا التنافس بين الخير والشر منذ بدء الخليقة لتحقيق الكمال على الأرض التي هي مدرسة للتقييم.
جاسر: كيف؟
زينب: الخير واضح في الحق، العدالة الإنسانية، المساواة التكافل، التراحم، العفو؛ لكن رغم كل معالمه الواضحة يظل الخير نسبي ويتحول في البشر، ومن هنا ينتج تنافس الخير والشر؛ ما عدا الشر شبه المطلق الذي نجده في الجبابرة، وأعطيك مثال: في حرب أمريكا على أفغانستان، الغرب يعتقد أنها حرب على الإرهاب والظلم والعداوة، ويموت الأبرياء والضحايا من الأطفال والنساء لأجل هزيمة عدو لهم معروف أنه عاجز عن حربهم، ولا يستطيع القدوم تجاههم، حرب ظاهرها محاربة الشر؛ لكن في الحقيقة هي الشر أما بالنسبة لأطرافها فهي حرب مقدسة، وبالنسبة للمسلمين هي حرب صليبية، كما قال جورج بوش في خطابه: كيف لقوة عاتية تحارب شعب شبه أعزل ثم بعد أن تحاربه وتقضي على قواعد القاعدة كما أدعيت تحتل البلد، وتضع به قواعد عسكرية شر مطلق في كل قواعد الإنسانية والعقل؟ لكن في قواعد الغرب الحرب شر؛ لكن لا بد منه لدحر الشر الأكبر، ويظل كل طرف معتقد أنه الخير، ما عدا الجبابرة أصحاب الشر شبه المطلق مثل: النمرود مثلًا؛ لكن هذه ليست النهاية ستبدأ مقاومة الأفغان في لحظة لهذا الشر، وتظل هذه الحرب مستمرة حتى يندحر الشر، إذن لو طبقنا هذا المثل على حياتنا سنجد أن الخير والشر كفارسي سباق؛ لكن الخير ينتصر في النهاية مهما كان أمد الشر أكبر.
جاسر: هل تقصدين أنه لا بد من وجود الخير والشر في الحياة متوازيان ولا يتقابلان، والمهزوم فيهم واجب عليه محاربة الفائز؟
زينب: نعم مع الوضع في الاعتبار أن الخير هو الأصل والفطرة، وأن الشر هو الاستثناء والشذوذ.
جاسر: لكن لم تجيبي على سؤال؛ كيف للرحمن أن يخلق الشر؟
زينب: الشر ليس مخلوق؛ هو صفة وضع الله بذرتها في شهواتنا ومن الشيطان، ربنا خلق بداخلنا شهوات؛ لكن لم يخلق بنا شر، وبينت أن الخير أصل والشر استثناء، الشهوات هي من تحركنا للشر؛ لكن ليس بداخلنا أي شر، كأني أهديك سيارة رياضية سريعة جدًّا بإمكانيات جبارة، وأعطيها لك، وأقول لك انطلق؛ لكن حاذر فإما أن تصل بها أسرع الناس أو تهلكك، أنا لم أعطك شر أو أدخل بداخلك شر؛ لكن أنت بقيادتك للسيارة إما أن تجعلها وسيلة نجاح وتفوق أو تحولها إلى شر وتهلكك.
جاسر: وكيف برحمن غفور يعطيني هذا الخطر؟

زينب ضاحكة: يا أستاذي وعلى ماذا يغفر لك وعلى ماذا يرحمك؟ إن لم يكن العليم الخبير يعرف أن شهواتك ستجعلك تخطئ، فقبل أن يجعل بك الشهوات التي تسبق الخطأ، سبقها بالرحمة والمغفرة، وهذا هو الكمال، إذا كان الله - عزوجل - يعلم أنك خير وستكون ملاك؛ فما حاجته لأن يبشرك بالرحمة والمغفرة وأن رحمته سبقت عذابه ما دمت مؤمن به وتحبه وتخشاه، اتفاق الرحمة والمغفرة مع الخطأ وليس مع الصواب.

جاسر: لكن لماذا يكون بداخلنا الشر؟ لماذا لا نكون كلنا في الخير؟

زينب: هذا السؤال يحتاج إجابته لمجلدات، وممكن أن تقرأ في مناظرات أحمد ديدات عن هذا الأمر، لأني أثق أنك لن تقتنع مهما أخذت أن اشرح لك، فابحث واقرأ، وستجد عباقرة انقل منهم يبهرونك أن كلًا من قلبك وعقلك يعملان.

جاسر: أجيبي فقط، ولن أجادل سأحاول أن أفهم، أريد إجابتك أنتِ بساطتها تختلف في أذني عن الكتب.

زينب: يا أستاذي هي أمانة حملت للبشر، ودخلوا في امتحان منهم من ينجح ومنهم من يفشل، والسؤال الطبيعي الذي يسأله أي ملحد، ولماذا خلقنا؟ أنا لم أكن أريد؛ بل كنت أتمنى أن أكون نباتًا أو لا شيء، تريد أن تعرف السبب غير أنا خلقنا الجن والأنس ليعبدون، وهل كان الله ينقصه عباد؟ سأقولها لك ببساطة قانون السببية لا ينطبق على الله - عزوجل - لإنه خالق الكون كله، الذي لا يساوي لديه شيء، عقلك لا يتصور كيف؟ لأنك تقيس الأمر بمقياسك البشري وعلومك الضعيفة، وكيف يخلقنا ونجد هذا الشر في مجتمعنا والعذاب إن أخطأنا؟ ما السبب؟ وسيظل السؤال يرن داخل كل ملحد يحاول أن يفكر في الإسلام بعقل متحيز وقلب كاره، ونسى أنه وعدنا بالرحمة وأنه أرحم علينا من أمنا بالمغفرة والعفو والكرم، نفترض أنك صنعت إنسانًا آليًّا، وجاء الإنسان الآلي تمرد عليك في يوم، وقال: لماذا صنعتني وتبجح في حقك، ماذا ستفعل؟

جاسر: سأعطله فورًا، وربما أفككه تمامًا.

زينب: بدون سبب لأنه سألك، تخيل أنك هذا الإنسان الآلي خلقك خالق كل شيء، وأنت تحتج وتتمرد وتأكل من رزقه وتعيش في أرضه، وكل ما بك منه، ولا يفكك ولا يدمرك؛ بل ينتظرك لتقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وتستغفر فيغفر لك ذنوبك كما ولدتك أمك نقي شفاف، ولعلمك هو ينتظر أيضًا الظلمة والجبابرة ليتوبوا، ولك أن تتخيل مدى رحمته في هذا الحديث، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: - جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه-.

رواه البخاري.

تتخيل يا أستاذي هذه الرحمة التي نتراحم بها من بداية الخليقة بين البشر والحيوان والنبات جزء واحد من رحمة ربك، فما بالك بالـ (٩٩)!. الله يسأل عن السبب ولا يُسأل عن سبب، هو الخالق هو كل شيء، كيف تقيس عليه قانون السببية؟

جاسر: أبهرتِني بحق.

زينب: لا إنه نور الله يجري على ألسنتنا إليك، ولا فضل لأي بشر، اللهم أجري نور الإيمان في قلبه.

جاسر: أتعلمين؟ غالبية الكتب التي قرأتها الموجهة ضد الإلحاد، غالبًا تقول إنه لا وجود للشر، وإنه مجرد انعدام للخير وإنه من البشر، وأن الله لم يأت بشرًا أبدًا، وأنتِ تقولين الله خالق كل شيء، وأن الشر موجود بجوار الخير، وترينه نسبي؛ هناك من يراه كبيرًا وهناك من يراه صغيرًا، وهذا يصل بنا إلى الكمال، لقد أقنعتِني بفكرة الكمال التي تشرحينها لي دائمًا، وأعتقد أن أحد فقهائكم لو سمع هذا الكلام لأتهمك بالزندقة.

زينب: أنا لم أقل مطلقًا أن الله خلق الشر بشكل مجرد ككائن شرير بيننا، هو صفة لم يخلقك الله كائن شرير؛ بل بداخلك الخير والشر وأنت تختار، أو يأتي بشر، أعتقد أن عنادك عاد، وتحاول عكس الكلام من أجل كبرياء الملحد الذي بداخلك، هذا فعل المخلوقات لا فعل الخالق، وليس الشر كائنًا مخلوقًا إنه صفة تخرج من داخل المخلوق إذا استغل النعم والإمكانيات التي خلقها الله خطأ، الله أعطى شخصًا القوة فبطش بها، هل هنا الله خلق داخله الشر؟ أعطاه نعمة استخدمها خطأ، وشبهت لك الشر بالسيارة أنت أسأت استخدام إمكاناتها الأمر بيدك ليس بيد أحد، الله خالق كل شيء ومقدر الأقدار، وفعل الشر أو الخير منك أنت، أما عن اتهام الزندقة أنا أجتهد علميًّا، وليس دينيًّا، وديننا دين علم وليس دين كهنوت، أما لو تقصد أن تتهكم لأن لدينا شيوخ يكفرون بسرعة البرق كل جماعة وكل مجموعة ولو صغيرة ولو حتى في بيت واحد لا بد أن تجد يمين ويسار ووسط، هذا أمر مألوف لسنا أمة الملائكة بل بشر.

جاسر: لكن لا أفهم، لماذا هذا التعقيد الفكري والنفسي؟

زينب: كل شيء خلقه الله وأنزله بصورة نقية، نحن من لوثناها وأسائنا استخدام ما خلق، وما نزل أسائنا استخدام غرائزنا وعقولنا، حتى إبليس نفسه كان عابدًا وتقيًّا؛ لكن نفسه وغرورها جعلته يضل عن أمر ربه، ولم يأمره ربه بالضلال، داخلنا الخير والشر تنزعنا إليه أنفسنا وشهواتنا، وهنا الاختيار إما الخير أو الشر، الأمر بيدنا في الدنيا تمامًا نختار ما نشاء.

جاسر: إذن؛ لماذا يحاسبني الله وهو واضع داخلي هذه النفس؟

زينب: لأنه - عزوجل - ترك لك الحرية المطلقة في أن تفعل بها ما تشاء، وتحاسب على حريتك، لم يسلبك إياها، وللتدليل قل الشهادة الآن ستأخذ جبل من الحسنات، أو ارفض وقل لا ستأخذ جبل من السيئات، هل أجبرك أحد؟، هل سحب منك أحد الحرية؟ هل منعك أحد؟ أنت حر تمامًا.

جاسر: هيا ننتقل إلى موضوع آخر.

زينب: لا دعني أنقل لك مقال قرأته لكاتب ملحد، وأعجبني جدًّا، فأخذته لأنقله لك.

جاسر: تفضلي.

زينب: يقول الكاتب الملحد: -التهذيب فقط للمنافقين الذين ينكرون تطوعًا منهم أن الحياة لا معنى لها، ما معنى المجتمع، وما معنى أن تكون مفيد كعضو في المجتمع، من المستحيل أن يكون مفيدًا في عالم محكوم عليه بالهلاك والزوال، جميع جهودنا كمجتمع عبثية ولا تغير شيئًا، نحن لا شيء، الحياة عديمة المعنى، الأخلاق ما هي إلا مبادئ تصورناها، لتسهيل علاقاتنا الاجتماعية، فنحن ندعو بالأخلاق كل ما هو نافع للمجتمع، وندعو بغير الأخلاق كل عمل يوجب التضحية بالمصلحة الاجتماعية في سبيل المصلحة الفردية، لا وجود للأخلاق ولا أهمية لها، إذن لا أهمية للمجتمع، موت إنسان يساوي موت حشرة، الاثنان يكونان في نفس الحالة، أو بالأحرى لا يكونان أي شيء على الإطلاق بعد موتهما، وكذلك حياتها متساوية القيمة، التي هي لا شيء، الإنسان هو كائن نمطي ثلاثي الأبعاد، أو بمعنى أدق لطعة بروتو بلازمية، حدود العالم المادي

الطبيعي هي حدوده، وقوانين العالم المادي هي قوانينه، وفي هذا الإطار لا يمكن التأسيس لقيمة الإنسان أو لمعنى وجوده، وهنا ينهار الإنسان ككائن بشري مميز، ويصبح شيئًا من الأشياء، مجرد نمطًا ماديًّا ملقى على درجات سلم التطور، وهنا يسقط أي معنى لتحقيق الهدف أو القيمة، ويصبح الحديث عن الإنسان لغو فارغ، الكون لا يملك عقلًا أو أحاسيسًا أو شخصية، أي لا يفعل شيء من باب أنه يريد لك الأذى أو النفع، إذ إن الأشياء السيئة تحدث لأنها أشياء محتملة وقابلة للحدوث، وسواء كانت سيئة أو طيبة من وجهة نظرنا، فلن يؤثر هذا على الاحتمالية التي ستحدث بها، بعض الناس يجد صعوبة في تقبل هذا الأمر في الواقع، ولسوء الحظ أن الكون لا يأبه بما بعقل الناس، الجنس البشري مجرد حثالة كيميائية على كوكب متوسط الحجم، يدور حول نجم عادي في الضاحية الخارجية لمجرة تقع ضمن مئات المليارات من المجرات، نحن بلا قيمة للدرجة التي تجعلني لا أستطيع التصديق بأن هذا الكون كله موجود لأجلنا ومصلحتنا، لا فائدة للغضب في مواجهة هذه الحقيقة، الغضب مجرد انفعال لحظي وعبثي نابع من وهم إحساسك بالفشل، أين أنت اليوم أو الغد، هل نجح شيء حققته في شراء المعنى أو إعطاء معنى لحياتك، على الرغم من كل كفاحك لم تنجح في تغيير أي شيء، بالأحرى كنت تعمل طوال حياتك لتعزيز النظام القائم، الذي كنت عبدًا فيه، ما هي الإنسانية؟ مساعدتك لشخص ما أو جعل حياته أكثر رفاهية، ذلك لا يمنع أن حياته وحياتك لا معنى لهما أن تشعر بالأسف، أو عدم فائدتك كنمط مادي في الكون العبثي، أو أن تشعر بأي شيء، فهذا لا معنى له، المشاعر تفاعلات لا قيمة لها-.
دعني بعد أن نقلت لك المقال بالكامل أن اسألك سؤالًا واحدًا وتجاوب بصدق، أليس هذا المقال يؤمن به كل الملحدين العبثية والصدفة واللا قيمة.
جاسر: نعم أؤمن به.
زينب: إذا التجأنا لقانون الصدفة والحتمية والتطور والمادية، لا قيمة لحياتك يا دكتور مهما حققت، لأنك ستموت اليوم أو الغد، وكما تؤمن أنه لا جنة ولا نار، إذًا قيمة نجاحاتك عبث، وحبك لي عبث، وحبك لأبويك اللذين تركت أمريكا لأجلهما عبثًا، رغم أنك كنت مرشحًا لأن تكون من أكبر العلماء، والحياة كلها عبث، وكل شيء إلى الفناء بلا هدف، وما هي القيمة المضافة؟ لا شيء لهاث من العبث؛ إذن لماذا لا تقومون بعمليات انتحار جماعي؟ وتريحونا منكم كلكم وترتاحوا من تخلفنا وعبثيتنا وجهلنا ونرتاح جميعًا.
جاسر: ألهذه الدرجة فقدتي الإنسانية حتى تتمني موتنا جميعًا لاختلافنا في الرأي.
زينب ضاحكة بشدة لدرجة أن جاسر بهر من ضحكتها التي يسمعها لأول مرة ترن، وتركها تضحك حتى قالت:
الإنسانية نوع من العبث طبقًا لمعتقدكم، فكيف تطالبني بالإنسانية ما أبشع التناقض.
الآن دعني أن أقول لك وبكل قوة، حتمية وجود إله ودين، حتى يكون لي ولك معنى لا بد من وجود جنة ونار.
جاسر: هل انتهيتِ؟
زينب: نعم.
جاسر: لسنا عبثيين لهذا الحد، لحياتنا قيمة نفسية داخلنا كبيرة، نحاول بناء تطور لا يستطيع أحد اللحاق به، وربما ينجح العلماء في اكتشاف كوكب مأهول أو يصلح للحياة في مجرة أخرى.

زينب مقاطعة: وحتى إذا اكتشفت، وحتى إذا تطورت وغالبًا لن يكتشفوا، وستنتهي حياتنا عدمية بلا أي قيمة، كما انتهت قارة أطلانيتس لا يدري أحد عنها شيء، حتى في بعض الأحيان هناك من يراها أسطورة، إذًا هذا عدم وكل النظريات تثبت أن انعدام العدم في الكون أو الفراغ مستحيل، فكيف بكل نظرياتكم العملية وتطوركم تصلون إلى العدم، تناقض بشع داخلكم، لا يوجد به كمال ولا حتى نقصان.

جاسر مقاطعًا: هذا تناقض منكِ، كيف لا يكون به كمال ولا نقصان؟ إذا كان هناك عدم.

زينب: يا أستاذي النقصان هو للشيء الكامل، لكن هذا شيء مشوه لا معنى له، كيف يكون له نقصان؟ هذا عبث لا قيمة وأنتم تقولون هذا، فكيف يكون له نقصان؟ وهو عندكم لا شيء.

جاسر: عقلك مصدوم غير قابل بفكرة العبثية، وأن الحياة لا قيمة لها هذا يمثل صدمة لكِ، كما نقلتي من المقال، كيف أقنعك بشيء أنتِ ترينه مستحيل؟

زينب: لا أريدك أن تقنعني؛ بل أريدك أن تقتنع أنت بما أنت مؤمن، كيف تقنع إنسان بشيء لست مؤمن به، لأنك لا تؤمن بالعدمية ولا حتى نظرياتكم تؤمن بالعدم، ولأن هناك عدمية أنت لست مؤمنًا بها، أنت تحاول إيجاد التفسير لعبثيتك وتمنطقها، كمن يحاول منطقة جريمة قتل بشعة، بعكس الدين يصل بك للكمال.

جاسر: لنفترض أني اقتنعت أن هناك إله وهناك أديان، فلماذا يكون الإسلام هو الصحيح وليس أي دين آخر؟

زينب: لكماله، وقبل أن أشرح اقرأ بنفسك، وفسر، واشرح، ولن تحتاج لمعرفة أين الكمال؟

ثم تابعت، واسمح لي بالانصراف لأني قد تأخرت كثيرًا، سلام الله عليك.

جاسر: مع السلامة.

عادت زينب خطوة للخلف، وقال: لماذا تنظر لي هذه النظرة التي لا أعرف إن كانت ساخطة أم متهكمة؟

جاسر متعجبًا: أنا لا أتهكم ولا أسخط، بالعكس أنا متعجب من عبقريتك وبساطتك، وهذا جعلني لأول مرة أنزع قناع من فوق عيناي لأرى حوار يعتمد على الاتزان العقلي في الفلسفة الجدلية، وجعل العلم في خدمة الدين رغم أن الدين يتناقض مع العلم أحيانًا، وتأخذين الأمر ببساطة، والبعد عن العبثية، وتطبيق السببية في كل شيء إلا في إرادة الخالق.

أحمر وجه زينب، وقالت: رغم كذب، اتهام، تعارض الدين مع العلم، لكني لن أرد الآن ومضطرة للانصراف سلام الله عليك.

جاسر: مع السلامة.

عاد جاسر لمنزله، وأول قرار اتخذه أن يقرأ في هذين اليومين كل المعلومات التي لا يعرفها عن الأديان، وليست الأديان السماوية فقط؛ بل بدأ بالفلسفة اليونانية وآلهتها المتعددة، وحتى آلهة المصريين القدماء، والأديان التأملية كالبوذية والكونفشيوسية مرورًا بكل فكرة معتقدية حتى وصل إلى الأديان السماوية، ويحاول مقارنة كل فكرة تصادفه خصوصًا أنه في بداية القراءة، حتى حان اللقاء مع زينب.

قبل أن يجلس جاسر سألته زينب: ما هو الإلحاد؟

جاسر: الإلحاد مثل العلوم الاجتماعية له تعريفات كثيرة جدًّا؛ لكن سأختار التعريف الذي يناسبني (الإلحاد هو فكر متمرد على القيم والثقافة والأخلاق ساعيًا إلى التحرر التام المفرط بعيدًا عن أي

قانون إلزامي يمثل الانضباط الديني أو القيمي) لكن هذا لا يجعل الملحد بلا أخلاق أو قيم، الملحد مستحيل أن يكون مخلصًا للإلحاد تمامًا و إلا أصبحنا في غابة بشرية، ولا يؤمن إلا بالشيء السببي الملموس، كلمة المجتمع اخترعناها لنجعل هناك سبيل للتعايش، ووضعنا قيمًا رمزية حتى لا يقتل بعضنا البعض، لأننا لو تركنا كل إنسان يفعل ما يشاء لأصبحنا حيوانات؛ لكن هذه القوانين الوضعية لتكوين الشيء الوهمي المسمى بالمجتمع، وفي النهاية نصل لعبثية الوجود، لأن كل واقعنا والكون نتاج الصدفة أو العبثية.

زينب: إذن دعني أقول لك إنكم كاذبون تؤمنون بأشياء وتفعلون عكسها، وفكركم متناقض، لذلك تريدوا رؤية التناقض في كل شيء، أنتم تقولون لا فرق بينكم وبين أي حشرة أو أي حيوان، والآن تضعون قوانين وضعية لكيلا تكونوا مثل الحيوانات كيف؟ وكل هذا عبث أنتم في تضاد مع أنفسكم، ولا سببية، ولا عقلانية كل ما في الأمر تريدون الحرية المطلقة، فقيدتم أنفسكم بالجنون، وأصبحتم سجناء أنفسكم، ففقدتم الحرية، وفقدتم الاستمرارية، وفقدتم القيمة، ولم تكسبوا شيئًا.

جاسر: هذه رؤيتك أنتِ لأنكِ خارج إطار الإلحاد أما لو أنتِ جزء منه، كنتِ سترين الحرية المطلقة.

زينب: دعنا نحلل التعريف تحليلًا علميًا، (الإلحاد فكر) خطأ الإلحاد ليس فكر، الفكر يعتمد على أسباب وجوده وهدفه والغاية التي ولد لأجلها وعناصر الوصول لهذه الغاية، فكيف يكون الإلحاد فكر؟ وهو لا يرى قيمة أي شيء، والهدف لا شيء لأن النهاية حتمية وعبثية، إذن الإلحاد ليس فكر نهائيًا؛ بل عبث أطفال، أو بمعنى أدق عشوائية منظمة؛ لكنه لا يترقى لدرجة الفكر؛ بل عشوائية الفكر، ولوجود العشوائيين على مدار التاريخ يتطور معهم عشوائية الفكر.

جاسر: لا بد من المرونة للتعايش.

زينب: ثانيًا فكرة التعايش، الإلحاد بذاته يكسر قانون التعايش، لأن التعايش فكرة ذات قيمة تؤدي للحضارة من خلال الحب والترابط والرحمة والعلم والأخلاقيات بكل أشكالها، أنت تكسر قانون التعايش، وتدمر كل القيم ثم تقول للتعايش، عبث مع تعايش إلحاد مع دين، كيف وهي عبثية ما حاجتك للتعايش، التعايش بقيمه هو إثبات وجود الله، والتلاحم من أجل إرضاء الله - عزوجل - أما أنت تنادي بالتعايش من أجل العبثية شيزوفرينيا حادة.

جاسر: هل تسمحين لي بالتعديل الإلحاد ليس فكر من الأساس؛ لكن قلت إنه فكر بمصطلحاتكم؛ لكنه ليس فكر نهائيًا لأنه بالفعل ليس له هدف أو غاية، فهمتي كلامي بصورة خاطئة على أنه فكر قام لحل مشكلة ما، وله طرق لحلها ثم غاية.

زينب: دعني أكمل هذا التعريف يحتاج مجلدًا لشرحه؛ لكني سأختصرها في نقاط بسيطة جدًا.

جاسر: أكملي.

زينب: الإلحاد لا بد أن يبتعد عن أي قوانين إلزامية، وفي الوقت نفسه لا بد أن يلتزم من أجل التعايش وانهدم فكرك أو عقديتك أو ما تؤمن به من الأساس.

جاسر أنتِ فهمتي غلط.

الإلحاد ٠=٠ الحرية التامة.

الإلحاد ليس فكرًا الإلحاد ليس شكلًا الإلحاد ليس عقيدةً الإلحاد ليس حزبًا ببساطة تعريف الإلحاد عدم الإيمان بالغيبيات، كل ملحد يمثل نفسه لا نتشابه أبدًا، نحن كملحدون لن نتحد أبدًا، نحن ضد التشابه بالرأي.

نعتقد أن كل شخص لا بد أن يكون لديه رأيه المختلف عن الآخر في أغلب الأشياء، وهذه هي الطريقة المثالية للنهوض بالحضارة (نختلف ولا نتخالف).
المهم في الإلحاد الشيء المقدس لنا هو (الإنسان).
زينب: كيف يكون إلا هناك إلزام وأنت تلزمه؟ لكي تكون ملحدًا أن تلتزم بهذا، هناك إلزام انهدم الإلحاد بالإلزام.
والحرية: إذن أنا حرة في أن أقتلك.
جاسر مقاطعًا: ليس هناك قانون يوفر الرفاهية بين البشر، نؤمن بكل القوانين التي تحمي الفرد والمجتمع ككل.
زينب: إذن هناك إلزام ولا وجود لحرية مطلقة، حتى لو التزمت ببعض وتركت البعض، كيف تريد أن تناقشني في عقيدة أو شكل حياة مهدوم بذاته.
ثم تقول إنه ليس شكلًا بل كل شيء في الحياة له شكل حتى لو كان عشوائيًّا، وكونك تقول إنه ليس عقيدة هذه النقطة التي سأتفق معك بها، العقيدة أسلوب حياة أما الإلحاد أسلوب موت أما كونك تقول إنه ليس حزبًا فلما تؤمنون بقانون التطور سواء التطور النوعي أو الجيني؟ عدم الإيمان كيف هذا؟ وأن سبب إلحاد البعض (الإسقاط النجمي)
جاسر مقاطعًا: قلت لكِ إن الملحدين غير متشابهين.
زينب: هذا أيضًا كذب كيف؟ وأنتم تؤمنون بحرية الشهوات المطلقة، الشذوذ، البورنو، أكل ما تشاء متشابهين؛ لكن تحاولوا أن تظهروا مختلفين، أنتم ترفضون المعقول لتذهبوا إلى اللامعقول لتشعرا بتفردكم أو هروبًا من قيود، وتبرروا عبارة سريالية في عقولكم (فنانون بلا أي هدف)، هذه نظرتكم لأنفسكم لكن حقيقةً أنتم في ضياع تام، ضياع نفسي وفكري وثقة بالنفس، لذلك غالبيتكم يصف المجتمع بالجهل وعدم العلم، وتتصنعون ثقة زائدة بالنفس للتفرد لإخفاء نفس مثقوبة.
جاسر: لن تفهمي صدقيني إلزام وتعايش وقوانين وحرية لا فائدة عبث السببية، مجتمع بلا مجتمع لا شيء نحن هواء ذرات تراب تتطاير.
زينب: هراء كلمتك التي ترددها دومًا، هراء كل هذا هراء.
جاسر: فعلًا هراء لن تفهمي وتتصيدي أخطاء انعدام الفهم وصعوبة الشرح.
زينب: أنت رجل ولاحظت أنك بأخلاق شرقية، ماذا تفعل لو جاء هذا الرجل الضخم الذي يقف في آخر المكتبة وقال لك إنه معجب بك ويريدك كزوجته؟
جاسر: أقتله لو فعلها.
زينب ضاحكة: وانهارت الحرية كلها فجأة لمجرد إحساسك برجولتك.
جاسر: حريته تتوقف عند حدود حريتي وكرامتي.
زينب: الحرية والكرامة عبث في الإلحاد؛ لكن في الإسلام حريتك تتوقف عند حرية الآخرين والمجتمع، الله - عزوجل - لم يحرم إلا ما يؤذي المجتمع والأفراد، وهذا هو العقل والكمال والتكامل.
جاسر: مللت بشدة من هذا الحوار وأصبح يضايقني، وأنتِ قلتي من البداية إنكِ لن تناقشي إلا الإسلام، ولن تناقشي الإلحاد دعينا نعود لمناقشة الإسلام.
زينب: كما تشاء.

جاسر: كل حضارات العالم لها آثار باقية وبنت وعمرت إلا الحضارة الإسلامية لم تترك عمران في مهدها، ولم تترك مكاتب أو عمائر باقية؛ بل خارجها ولا يوجد شيء واحد يدل على عظمة الحضارة، ولا يوجد بناء أثري سوى الكعبة؟

زينب: لأول مرة أرغب في اتهام أستاذي بالجهل، مع الاعتذار لحضرتك يا أستاذي العرب بدو، وأي بدو رُحل لا أهل عمران واستقرار مثل: المصريون أو الإغريق مثلًا، لا تقارن بأي حضارة ثم إن الإسلام نفسه دين فكر وليس دين عمارة، ودين بناء الإنسان قبل المساجد، بمعنى أن التصدق لفقير مقدم على التصدق لمسجد، ورغم هذا العمارة الإسلامية موجودة في البلدان المفتوحة التي هي بلاد العمارة مثل: مصر والشام وتاج محل أحد عجائب الدنيا السبع من إنتاج الحضارة الإسلامية.

جاسر: أعلم.

زينب: نحن حضارة العلم وبناء الإنسان لا حضارة تفاخر بمباني صماء، فكر الإسلام قائم على بناء الإنسان قبل الحجر، ستجد هذا في القرآن والسنة أن أوامر البناء كانت لبناء الإنسان، حتى في العلوم العلمية والنظرية كنا في القمة، لولا الحضارة الإسلامية ما حققت الحضارة الغربية واحد على عشرة مما حققته الآن.

جاسر: لا تهذي.

زينب: ادخل جامعات أوروبا سواء في باريس أو لندن أو غيرهم، تجد صور ابن سينا والخوارزمي والرازي تزين أكبر قاعاتها، لقد ظلت أوروبا تدرس في جامعاتها كتاب القانون في الطب لابن سينا، الجبر للخوارزمي، والتصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم الزهراوي، وهو واضع علم الجراحة.

أضخم كتاب في الصيدلة وعلم التغذية [الحاوي] لأبي بكر الرازي، وطبعًا يا عبقري الفيزياء لا يخفى عليك أن مؤسس علم البصريات عالم الفيزياء [الحسن بن الهيثم] لولا نظرياته ما استطاع كلًا من [كوبر نيكوس، ونيوتن] من تحقيق أهدافهم العلمية، والبناء فوق نظريات ابن الهيثم، وهو أيضًا مخترع الكاميرا، ومن اكتشف الدورة الدموية ابن النفيس، أول من رسم خريطة صحيحة للعالم القديم أليس الإدريسي!

من أول من ترجم أعمال الفلسفة اليونانية وقدم شروحها للعالم غير فلاسفة المسلمين، ورغم هذا تتهمونا أننا نحرم الفلسفة، من قدم للعالم الأعمال الخالدة [ألف ليلة وليلة]، [سندباد]، [لص بغداد] اكتفي بالسرد لأني احتاج لساعات وساعات للسرد؛ لكن يكفي أن تعرف أن الحضارة الإسلامية قدمت أضعاف أضعاف أضعاف ما قدمه الفرس والروم معًا، أي إننا حضارة علم جئنا لننهي حضارة القوة والبطش.

جاسر: لكن بعض شيوخ المسلمين يقولوا إن العلم الإسلامي هو العلم الشرعي فقط!

زينب: يا أستاذي لماذا معظم الملحدين يركزون على تطرف مسلم، أو جماعة أو رأي فقهي مختلف، ويصورون هذه الصورة على أنها الإسلام، أمامك القرآن والسنة أقرأهم بنفسك إن وجدت فقيهًا حتى لو يتبعه ملايين يقول إن العلم هو العلم الشرعي فقط؛ قل له أنت مدلس وعندك من القرآن والسنة عدة أدلة تجعله لا ينطق، تحب أن أذكرهم لك، أو يكفيك أول كلمة نزلت في القرآن.

جاسر مقاطعًا: نعم أعرفهم ولا داعي للنقل.

زينب: تسمح لي أن أقول لك شيئًا في عصر صدر الإسلام وعهد قوة الإسلام، إن الإسلام حافظ على الحضارة الفرعونية في مصر والساسانية في إيران وحضارات الشام الفينيقية والآشورية والبابلية في العراق، ولم تدمر هذه الآثار، وظلت الدولة الإسلامية تحافظ عليها قرن بعد قرن، ولم تدمرها، ولم يقل أحد إنها أصنام أو حرم مشاهدتها أو كسروا هذه التماثيل أو الإعجازات كحدائق بابل المعلقة والأهرامات في مصر، حتى جاء في عصرنا الحالي من يقول إن هذه الآثار لا بد من محوها، وبالطبع سيأتي ملحد ويقول انظروا هذا الإسلام عدو للحضارة، فهل سأل نفسه كيف استمرت هذه الآثار محافظًا عليها لمدة ١٤٠٠ سنة دون أن تمس؟ إذن من قال هذا ليس من الإسلام في شيء؛ بل مبتدع في الدين وضد الدين، والدليل الدامغ أنه يأتي ليخرب، والإسلام دين تعمير، هل يصح أن تقول هذا هو الإسلام حينما يقول شخص مدلس هذا.
جاسر: أنتِ فيلسوفة بحق، اقتنعت جدًّا، هذا يستحيل أن يمثل الإسلام؛ فلو كان يمثله لهدم الإسلام هذه الآثار أو التماثيل حين الفتح، احتراماتي زينب.
شعرت زينب بالحرج وأحمر وجهها.
وقالت هامسة: شكرًا.
جاسر: صدقيني اقتنعت مائة بالمائة، وليس عن جهل مني، لكن أحيانًا يكون منظورنا محدود، ويأتي لنا من يفتح مجال أكبر للرؤية، ويرينا من جوانب كانت مظلمة لنا، أنتِ عبقرية أكثر مني أحبك أحبك أحبك.
نهضت زينب فجأة وحملت أشيائها، وهي في قمة الغضب قالت: لقد خلفت العهد بيننا، ولم يعد بنا حوار بعد الآن.
جاسر: أعتذر بشدة، لن تتكرر أعدك.
زينب: من يخلف عهده مرة يخلفه مئات المرات، وغادرت المكان.
وقف جاسر في مكانه يشعر بالحسرة، وأنه خسر أسعد سويعات يقضيها في أيامه، لم يستطع أن يتحرك، وظل في مكانه والألم يشتت تفكيره، حماقاتنا تنهي سعادتنا كثيرًا؛ لكن كيف لا يكون هناك تسامح؟ كيف يكون هناك تصلب عقلي ونفسي هكذا؟ ووجد نفسه يقول بتلقائية هذه الفتاة على حق، الشر نصنعه بتصرفاتنا، ولا ينزل من السماء في هيئة كائن شرير، وجلس طويلًا يفكر في حل للعودة حتى هداه تفكيره لحل يزيل هذا الخصام، ثم تحرك من مكانه وعاد إلى بيته، يتفرغ لقراءة كل الكتب التي يقرأها عن الإسلام حتى التفاسير.
في اليوم التالي ذهب إلى زينب أثناء إلقائه للمحاضرة، وأعطاها كتاب، وقال لها: هذا الكتاب الذي طلبتِه عن تطابق النظرية النسبية مع الاكتشافات الحديثة.
أخذت زينب الكتاب وهي في قمة التعجب، ولم تشأ أن تحرجه، وبعد المحاضرة فتحت الكتاب لتجد بداخله ورقة مطوية، فتحتها لتجد بها كل الآيات والأحاديث التي تحض على العفو والتسامح، وفي نهايتها كَتب يأمركم دينكم بالعفو والتسامح، ألا تلتزمين بتعاليم دينكم.
ابتسمت زينب وكتبت جملة واحدة في نهاية الورقة، وبعد نهاية المحاضرة ذهبت إليه.
وقالت: شكرًا يا دكتور لم أعد بحاجة لهذا الكتاب.
فتح جاسر الكتاب، وفتح الورقة ليجد مكتوب في أسفل الورقة (الشيطان يعظ).
ظلوا على هذه الحال أسبوعًا كاملًا، وجاسر يكاد يموت غيظًا واشتياقًا للحظات التي كان يعيشها، حتى قرر أن يقدم على شيء كان من المستحيل أن يحدث، ذهب إلى زينب.

وقال: أشهر إسلامي، وأقول الشهادتين، وأقيم الصلاة والفروض، وتتزوجيني على سنة الله ورسوله.
نظرت زينب وهي تشعر أنها تريد أن تقفز وتزغرد فرحًا وقالت: أخيرًا هداك الله للإسلام؟
جاسر: بصدق لا، لأني لا أحب الكذب، ولا أتمنى أن أكون مسلمًا في يوم؛ لكني سأفعل هذا لأني أعلم أن دينك يمنعك بالزواج من غير المسلم، أما دينكم وغيبياتكم لا أقتنع بهما ولا أؤمن بوجود إله من الأصل.
زينب: وهل تعتقد أني في حاجة لإسلام مزور، أو تمثل أنك مسلم لأتزوجك، وحتى لو تحولت لشيخًا كبيرًا سأتزوجك، أنا قمة سعادتي في هدايتك، في نجاتك من النار، في أن يعزك الله بالإسلام، وتجعل علمك لخدمته.
جاسر: إن دينكم غير مقنع بالمرة.
زينب: وما هو غير المقنع فيه؟
جاسر: الكثير والكثير يحتاج لشرح طويل.
ابتسمت زينب وعلمت أنه يستدرجها لعودة المناظرات بينهما وقالت: سنعود للمناظرة لتقول لي ما هو غير المقنع؛ لكن إن خالفت العهد هذه المرة لا عودة أبدًا أيها الذكي.
جاسر وهو يشعر بالفرحة الشديدة: طبعًا أعاهدك.
زينب: إذن ميعادنا في الغد كما كنا.

معجزات، غيبيات، وشبهات

جاء الغد الذي تمناه جاسر طوال أسبوع، كان أسبوع ألم وغياب شغف وحماس، وسبقها على المكتبة، وانتظرها حتى أتت.
وقال جاسر وهو متحفز: الشيطان يريد أن يناقشك بقوة في خزعبلات دينكم.
زينب: أعتذر عن كلمة الشيطان يعظ؛ لكن أسلوب الاستشهاد بالقرآن في غير موضعه استفزني، وهيا نبدأ حوارنا.
جاسر: هل تؤمنين بحادثة الإسراء والمعراج؟ زينب: نعم بكل تأكيد.
جاسر: كيف تؤمنين بسفر إنسان وأنه أعرج للسماء في غضون أعتقد لا تتخطى ساعة أو أقل أو أكثر؟!
زينب: إجابة السؤال هذا يخضع للإيمان بالله - عزوجل - وأنت لست مؤمنًا به؛ لكن أسالك سؤالًا بسيطًا لو أنت تعيش في القرن الخامس عشر، وجاء لك شخص، وقال لك إنه سافر من مصر للبرازيل في ١٢ ساعة، هل تصدقه؟
جاسر: بالطبع لا.
زينب: هذا هو نفس موقفك من حادثة الإسراء والمعراج، أنت إذا قست موقفك منها ستجد أنك الشخص الذي من القرن الخامس عشر، ولا يصدق هذا، ويقول ليس علميًّا مستحيل، مع إن خوارق الله - عزوجل - علم لم نصل إليه لأنه الله، مثل الانتقال الآني الذي يتم في نفس اللحظة، سيكون في المستقبل علم، عجز العلم عن الإثبات أو الوصول لا يعني عدم الوجود.
جاسر: إذن لن أسالك عن كل ما رأى رسولكم والإعجاز الخارق العلمي الذي لم نصل إليه، ولن أسال في تفاصيل الرحلة؛ لكن اسألك في شيء لا يمكن أن يكون إعجازًا علميًا، هل تؤمنين بوجود بغل مجنح الذي تسمونه البراق ويطير!
زينب: لو قلت لك إنه من الجنة لن تصدق، ولو قلت لك إن إعجاز الله أكبر من إعجاز العلم، ستتهمني بالخزعبلات؛ لكن سأرد عليك بأسلوب علمي وبالدليل العلمي التام.
جاسر: معقول لديكي دليل علمي على هذا أيضًا، وستدخلين العلم في مخلوق أسطوري مثل: طائر الرخ.
زينب: الأمر بسيط جدًّا أستاذي، بكل علم أهل البشر وعلمائهم ما استطاعوا الوصول إلى ٢٠٪ من أسرار المحيطات والبحار، وما استطاعوا الدخول لأسرار واكتشاف كل الكائنات في غابات الأمازون وغابات شرق نهر الكونغو، وكثير من الأسرار، وأسرار مثلث برمودة والجزر المحيطة بها، حينما تكتشف كل مخلوقات الأرض وتكتشف كل أسرار الأرض والفضاء، ولا تجد البراق أو البغل المجنح كما تسميه، وقتها ناقشني واسألني أين هو هذا الكائن الأسطوري، علمك أنت العاجز عن الإثبات واكتشاف كل شيء وليس ديني، علمك هو الناقص، وتحاول إثبات النقص في ديني لتداروا نقص علمكم، أعتقد أجبتك إجابة سليمة وعلمية وبالبينة وعلمك العاجز.
جاسر ضاحكًا بشدة: أنتِ سددتي منفذ الجدل في هذا الأمر، كيف؟ وهو مخلوق من الجنة كما تقول كتبكم، وأنتِ تقولي نحن العاجزون عن الاكتشاف.

زينب: أنت لا تؤمن بالجنة ولا النار ولا الغيبيات ولا وجود لإله من الأصل، أقناعك العلمي أسهل، حتى لا تجعل الدين والعلم في تحدي؛ بل العلم جزء من الدين، وكلما تقدم العلم سيثبت كمال الدين.
جاسر: تطوعين كل شيء للتفسير العقلي.
زينب: نحن نتناقش نقاشًا علميًّا ولو كنت تجد ثغرة علمية أيها العالم لن ترحمني لأنك متربص بالإسلام، فلا تتهمني بشيء لديك الحجة، تكلم ليس لديك انتقل للنقطة التي تليها.
جاسر: ننتقل للنقطة التي تليها، كيف تحاربون الوثنية وتعبدون مبنى من الحجر اسمه الكعبة؟
زينب: تصحيح لا نعبد إلا الله - عزوجل - أما القول الصحيح نقدس رمزية الكعبة، ونحج إليها كما أمرنا الله - عزوجل -.
جاسر: كيف تقدسون حجرًا، وأنتم دين العقل والحكمة والكمال؟
زينب: إجابة هذا السؤال طويلة، ومن فضلك تحملني ولا تقاطعني.
جاسر: تفضلي.
زينب: أولًا إليك هذه الآية: -إن أول بيتٍ وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهُدًى للعالمين (٩٦) فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا ومن كفر فإن الله غنيٌ عن العالمين (٩٧) -. (آل عمران الآية ٩٦ و٩٧)
زينب متابعة: إليك إعجاز علمي في هذه النقطة، ناقشه الدكتور زغلول النجار.
-في منتصف الستينيات من القرن الماضي توصل العلماء أن الأرض في مرحلة ما كانت مغمورة بالماء، وأنت تعرف هذه النظرية بالطبع يا دكتور، ثم شاءت إرادة الله أن يفجر قاع هذا المحيط الغامر بثورة بركانية عنيفة، ظلت تتراكم فوق بعضها البعض مكونة سلسلة جبلية وسط هذا المحيط، واستمرت هذه السلسلة في النمو والارتفاع حتى ظهرت قمتها فوق سطح الماء، مكونة أول جزء من اليابسة على هيئة جزيرة بركانية، وباستمرار النشاط البركاني نمت هذه الجزيرة البركانية الأولية بالتدريج بواسطة الثورات البركانية المتلاحقة، التي أضافت إليها مساحات جديدة من اليابسة محولة إياها إلى قارة كبيرة تعرف باسم القارة الأم (بانجيا)، وهذا النمو بالإضافة إلى المراحل الأخرى، الدحر هو البسط، والمد لليابسة بواسطة الثورات البركانية، وشاءت إرادة الله - عز وجل - بعد اكتمال القارة الأم أن يمزقها بواسطة شبكة هائلة من الصدوع العميقة، قسمت تلك الأرض إلى السبع قارات الموجودين حاليًّا التي كانت قديمًا أشد قربًا لبعضها ثم بدأت حركة الصفائح التكتونية في الزحف والتباعد حتى وصلت إلى مواقعها الحالية-.
وقد روى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قوله: -كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض-.
والحقيقة العلمية أن يابسة مكة تتوسط الأرض وأن اليابسة تحت الكعبة تعتبر أقدم جزء من الغلاف الصخري للأرض على الإطلاق، ويدعوك الدكتور زغلول النجار أنت والعلماء المسلمين والعلماء عامة لإثبات ذلك من خلال تحديد العمر المطلق للصخور القائمة، بواسطة العناصر المشعة الموجودة بها لتتيقن بنفسك من الإعجاز العلمي للدين والبشر.
وتابعت زينب: أما مقام إبراهيم ماذا تقول في وجود أثر قدمي خليل الله ابراهيم (عليه السلام) على صخرة صلبة؟

إن مقام إبراهيم هو الصخرة التي قام عليه نبي الله إبراهيم وهو يرفع القواعد من البيت وتحمل الصخرة آية بينة، وهى على الرغم من صلابتها الشديدة فإنها تحمل طبقة غائرة لقدمي أبي الأنبياء، أرأيت الإعجاز الصخرة تلين لقدم إنسان.
جاسر: سأعلق على الجزء الأخير، ولماذا لا تكون منحوتة مثل المنحوتات التي في شتى بقاع الأرض.
زينب: اتفقنا ألا تقاطعني، أنت من أيام قليلة قلت لي لماذا ليس هناك أي حضارة معمارية في مكة أو المدينة، هل يعقل أن ينحتوا صخرة صلبة بهذا التشريح الدقيق، ولا يستطيعون إنشاء قصر أو معبد أو ينشئوا الكعبة بالصخور المنحوتة؟!
جاسر: إذا أتتني الفرصة سأذهب إلي هناك وأدرس مكونات الصخرة بالعناصر المشعة وأعطيكِ النتيجة، وأعتذر عن المقاطعة، أكملي.
زينب: أهم مميزات الكعبة التي لا تتخيلها، مبنية بأضلاعها الأربعة في الاتجاهات الأربعة الأصلية تمامًا، ولا شك أن تحديد هذه الاتجاهات بهذه الدقة في زمن موغل في القدم كالذي بنيت فيه الكعبة ينفي كون تأسيسها عمل بشري.
تابعت زينب: نأتي للحجر الأسود هو قطعة من الجنة هكذا قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): -الحجر الأسود نزل به ملك من السماء-، وقال أيضًا: -نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن فسودته خطايا بني آدم-، وأنا أتحداك لو ذهبت بفريق من العلماء بل من أبرع علماء الأرض لاكتشفت أنه حجر من الجنة وليس من الأرض، ولم تجد له أصل او مثيل من صخور الأرض وتُربتها أو حتى النيازك، ولا أستبعد بعد أن تصلوا لهذه الحقيقة ان يقول أحد علمائكم انه حجر له مثيل، وفي النهاية يقول إنه نيزك فريد من نوعه وتنفوا عنه الإعجاز!
آخرًا يا دكتور إليك هذه الحقيقة العلمية، وأنت تعرفها أكثر مني تمامًا؛ لكن أذكرك لعل الذكرى تنفع (جسمك يستقبل قدرًا كبيرًا من الأشعة الكهرومغناطيسية يوميًّا تهديها إليك الأجهزة الكهربائية التي تستخدمها، والآلات المتعددة التي لا تستغني عنها، والإضاءة الكهربائية التي لا تحتمل أن تنطفئ ساعة من نهار، أنت جهاز استقبال لكميات كبيرة من الأشعة الكهرومغناطيسية أي إنك مشحون بالكهرباء وأنت لا تشعر. بما يؤثر بالتعب والإرهاق والآلام على الإنسان، وأخيرًا توصل بعض الباحثين أن أفضل طريقة للتخلص من هذه الشحنات الكهربائية الموجبة التي تؤذي جسمه أن يضع جبهته على الأرض أكثر من مرة، لأن الأرض سالبة فهي تسحب الشحنات الموجبة كما يحدث في السلك الكهربائي، الذي يُمَدَّ إلى الأرض في المباني لسحب شحنات الكهرباء من الصواعق إلى الأرض، ضع جبهتك على الأرض حتى تُفرغ الشحنات الكهربائية الضارة.
ويزيدك البحث بيانًا وإدهاشًا حين يقول: الأفضل أن توضع الجبهة على التراب مباشرة!
ويزيدك إدهاشًا أكبر حينما يقول: إن أفضل طريقة في هذا الأمر أن تضع جبهتك على الأرض وأنت في اتجاه مركز الأرض، لأنك في هذه الحالة تتخلص من الشحنات الكهربائية بصورة أفضل وأقوى!
وتزداد اندهاشًا حينما تعلم أن مركز الأرض علميًّا: مكة المكرمة! وأن الكعبة هي محور الأرض تمامًا كما تثبت ذلك الدراسات الجغرافية باتفاق المتخصصين جميعًا!
إذن فسجودنا في صلواتنا تجاه الكعبة هو الحل الأمثل لتفريغ الشحنات الضارة.

هذا غير حالة من السلام الإنساني والأمان النفسي والحياتي وفقدان التفكير في الدنيا والتأمل، وهذه من أوامر الحج الإخـلاص فـي النيـة والعمـل والانقطـاع عـن العمـل، وعـدم الاهتمـام بـأمور الـدنيا وجعـل العقـل والنيـة فـي العمـل الصـالح والسلام والحب، وهذا ما تحاول فعله الأديان الروحية مثل طقوسهم من تمرير الطاقة واليوجا...إلخ.
زينب: هل تعتقد بعد هذه الأدلة على مكانة الكعبة وتوسطها للكرة الأرضية وبنيان إعجازي من حيث الموقع الهندسي والفلكي أن تكون مجرد مكعبًا طينيًّا أو صخريًّا، إنها هبة إلهية إلينا وإن لم تعي هذا، فلا بد أن تعرف أننا نؤمن بالقلب والعقل وهذا ما يجعلنا نفخر بديننا ونتمسك به داخليًّا، ألا ترى دين شامل وعلاج وكمال وإصلاح نفسي بل علاج أي مرض نفسي هو الذهاب إلى الكعبة والصلاة والعمرة أو الحج بنفس خاشعة مقبلة على الله.
جاسر: لن أصدق أي من هذا الكلام أو اقتنع أو حتى أجادل إلا إذا قمت بالتجربة والتحقيق والبحث العلمي لإثبات هذا، لكن أنا غير متأكد أن مكة هي مركز الأرض، بسبب حركة الصفائح التكتونية، وشكرًا على هذا ننتقل إلى نقطة أخرى.
زينب: كما تشاء.
وتابعت زينب وقالت: لكن اعلم أن هذا الإعجاز العلمي ليس في الصلاة تجاه الكعبة فقط، بل في الطواف وجربه بنفسك، وتأكد أنك ستشعر بتغير تام.
جاسر: من الأفضل أن ننتقل إلى نقطة أخرى.
زينب: اتفضل سل ما تشاء.
جاسر: ما رأيك في قصة ابتلاع الحوت ليونس، وهل ترينها أمر مهمًا كان قد يخضع خرافيته للتصور العقلي أو يجد الإنسان يومًا حينما يتقدم في العلم له تفسير، ألا ترى أنه دين خرافات وخزعبلات؟
زينب: هل تعلم أن ابتلاع الحوت لنبي الله يونس (عليه السلام) أمر أثبت الإعجاز العلمي احتمالية حدوثه وبشكل علمي تمامًا؟
جاسر: ما أروعك يبدو أن النقاشات الكثيرة ذهبت بعقلك!
زينب متجاهلة كلامه: أثبت لك الأمر علميًّا ولك حرية التفكير، الحوت الأزرق في المتوسط يتراوح طوله من ٢٦-٣٠ مترًا وعرضه من ٣-٥ مترًا، لا يأكل اللحم يتغذى على الهوام والقشريات التي في الماء لا ترى بالعين المجردة، يتبلع الماء ليأخذ منه غذاءه ويحجز غذاءه تحت لسانه، ثم يعود ويطرد الماء ويبتلع غذاءه، يتنفس الأكسجين الجوي مثله مثل الإنسان، من ذوات الدم الحار مثل الإنسان، العلماء يقولون إن الإنسان يستطيع أن يسبح في أوردته من اتساعها، ما بالك بمعدته التي ليس بها عصارات هضمية مثل حوت الأوركس مثلاً، بل عبارة عن بالون كبير، معدة ضعيفة غير مجهزة لهضم اللحم، أن ابتلع إنسان ودخل معدته سيمكث داخل بالون يتنفس الأكسجين الجوي الذي يتنفسه الحوت، درجة الحرارة مناسبة لدرجة حرارة جسم الانسان، سبح النبي وهو في هذا الابتلاء بدعاء عظيم (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) مكث مدة لا يعلمها إنسان ولا أي مخلوق هل هي دقائق، سويعات، يوم، أيام، لا يعلم أحد، الحوت وجد جسم غريب بداخله حتى أمره الله بلفظه، فلفظه وخرج حي سليم من الابتلاء، مثل الإنسان حينما يبتلع شوكة ولا يستطيع هضمها فيلفظها خارجه وهنا تم الإعجاز بشكل علمي، لكن هو خرافي بالنسبة لعقولكم، رغم إثباتكم العلمي له وأنتم لا تدرون وتعتمدون على جهل المسلمين بمستجدات العلم،

فإذا جاء عالم مسلم وبين هذا الإعجاز الذي اكتشفه علمكم اتهمتموه بالجهل، للحقد على الإسلام والمسلمين ليس إلا، وكل شيء إعجازي علم من عند ربي و لن نصل ولو ذرة من علمه سبحانه - عز وجل - ولهذا أنت تعتبر كل هذا خرافات وخزعبلات، لأنك جاهل علم بالنسبة لعلم ربك وتقيس علم ربك بمستوى ضعفك العلمي.
جاسر: قصة يونس ذكرت قبل ذكرها في القرآن في ملحمة جلجامش والتوراة والإلياذة، ليس أول ذكر لها في القرآن.
زينب ضاحكة: أنا لم أقل إنها أول ما ذكرت في القرآن أنت حاولت أن تُكذب القرآن لا تكذب ملحمة جلجامش ولا التوراة ولا غيرها.
جاسر: أقصد أن هذا التفرد ليس للقرآن والإعجاز ليس للقرآن.
زينب: تقصد أن رسولنا الكريم حاشا لله نقلهم من هذه الكتب إلى القرآن.
جاسر: ممتازة، هذا ما قصدته بالضبط.
زينب: وكيف نقلها؟
جاسر: زيارات رسولكم إلى الشام مع عمه أبو طالب، وورقة بن نوفل الذي كان علامة عصره.
زينب: ورقة بن نوفل مات قبل إعلان النبوة، أما الأهم رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلمَ) كان أُميًّا، وأتحداك لو أتيت بكتاب سيرة واحد يقول إنه كان يقرأ أو يكتب فكيف لأمي أن ينقل ويكتب وإليك هذه الآية: -وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ-. (العنكبوت ٤٨)
الله - عز وجل - كان يعلم أنه سيتهم من المبطلون أنه نقل بعض الآيات من أساطير الأولين كما تقول؛ لكن قدر له أن يكون أمي ليكتمل الإعجاز، وكل كتب السيرة حتى كتب الهجوم على رسولنا الكريم، التي صدرت قديمًا ما عدا في القرن الثامن عشر وما بعده اعترفت أنه أُمي وهذا إعجاز للتعجيز.
جاسر: وربما نقله شخص؟
زينب: دعني أخبرك أمرًا، المسلمون لم يترجموا كتب الحضارة اليونانية والهندسية والفارسية إلا في نهاية العصر الأموي والأكثر في العصر العباسي، والجزيرة العربية هي منطقة الأميين، ثانيًّا تشابه بعض القصص مع القرآن لا يساوي واحد على مائة من القرآن، القرآن نزل على قوم فصاحة بيان وهم أفصح الناس، فجاء بلغتهم مكتملًا بإعجاز لغوي لا يضاهي وبنيان تام بدون خطأ واحد، رغم أن معلقاتهم التي كانوا يكتبونها بالذهب بها أخطاء لغوية، القرآن جاء لتعجيزهم بكماله، ولو أنت تقول أن محمد من كتبه فأنت تضعه في مستوى الإله، وتقول إنه نقل ممن لن تجد شخص إذن فمحمد في رأيك بهذا الكمال إله، هذا غير نقطة مهمة جدًّا القرآن تفرد بإعجاز رهيب عن كل الكتب التي سبقته وهذا قمة الإعجاز أنه مختلف تمامًا.
تعجب جاسر من كلامها خصوصًا أنه أول مرة يشعر أنه أبله أو مجادل سفسطائي، نظر إليها حائرًا، وهو يريد أن يقول الكثير من الكلام لكن شفتيه لا تتحرك رغم أن عقله ينطق، ظل شاخصًا ببصره تجاهها، حتى شعرت بالإحراج فغضت بصرها، ولأول مرة تشعر أن جاسر به الكثير لكن عاجز، إنها صدمة اهتزت به أشياء داخلية هل آمن أن هذا القرآن يستحيل أن يكتبه بشر أو يكون بشريًّا؟ هل الإعجازات هزت أفكاره وقناعاته فشعر بالهزة الداخلية؟
حتى قال جاسر: تسمحي لي بالانصراف.

أومأت زينب برأسها موافقة ولا تعرف ماذا تقول؟
قام صامتًا شاردًا وحمل أشياءه انصرف، وكعادة الكثير من البشر في عصرنا الحديث، حينما يحبون أن يتحدثوا مع الله يذهبون إلى مكان مرتفع، لاعتقادهم أن الله سيراهم أقرب بدون تشويش، وذهب بالفعل إلى هضبة المقطم، وصعد بسيارته إلى مكان خالي، جثى على ركبتيه وهو تائه مشتت وعقله ممزق وقال وهو ينظر للسماء: أنا لا أؤمن بك ولا أصدق أنك موجود وحقيقي، يقول المسلمون عنك أنك نور، فدلني إلى نورك أرشدني إليك لألجأ إليك إن كنت حقيقة، يقولون إنك لا ترد من يرد بابك، من سنة ماضية كان يمكن أن أقول هذا الكلام سخرية أو وعقلي مغلق تمامًا لاستحالة وجودك؛ لكن أنا الآن مشتت فان كنت موجود فلن تتركني، لأنهم يقولون إنك أرحم علينا من أمهاتنا، وإن لم تريني نورك فسأعتبرك غير موجود نهائيًّا.
قالها وهو ممزق نصفين، نصف يترجى الإله إن كان موجود ينقذه والنصف الآخر تحدى بعدم وجوده من الأساس، بغرور بشري بشع، نهض وهو غير مصدق لنفسه أنه جثى على ركبتيه ودعا الإله، كيف استسلم هكذا رغم أنه تناقض بين الترجي والأمر وهو لا يعلم قدر الإله، شعر أنه في سكرة، بل ذهب عقله كأنه بطل فيلم قديم من الأفلام التي كان يسميها مبتذلة يترنح عقلًا وسكرًا.
عاد إلى منزله وأخذ حمامًا دافئًا طويلًا يخرج به كل همومه، وخرج من الحمام بعد أن غنى كثيرًا وتراقص تحت الماء ليخرج توتره، وخرج وهو يشعر أنه فاق من هذا السكرة وقرر أن يفاجئ زينب بقوة المناظرة وهزيمة دينها، وفي اليوم التالي فاجأته زينب برسالة تركتها مع أمينة المكتبة، تقول فيها أمي مريضة ولا بد أن أبقى بجوارها أسبوعًا واعتذر عن الغياب، شعر أنه سيحرم من زينب وأنه لن يتحمل المكوث في مصر هذا الأسبوع وهو تطارده الذكريات وقوة المناظرات والنقاش والجدل، حتى قرر أن يتقدم بطلب إجازة، وسافر إلى أمريكا أسبوعًا ليخرج كل هذا التوتر والضعف الذي أصابه، وهناك انقسم إلى نصفين، نصف يعود لملهاته وملذاته وعبثيته، ونصف في حوار مع خاله يحدثه يوميًّا عن الإسلام والغريب أنه تقمص شخصية غريبة، شخصية المدافع المحايد، وبدأ حواره مع خاله يحدثه عن الحريات في الإسلام وكيف أن الإسلام جاء للحفاظ على الحريات الفردية والاجتماعية في إطارها الصحيح.
خاله تفاجئ وشعر أن ابن اخته في خطر وأنه ربما يوشك على الإسلام فنظر له وقال: يا جاسر انظر للعرب والمسلمين في الشرق، إنهم في تخلف وتشرذم وهمجية، إنهم لا يحترمون حتى أنفسهم، إنهم لا يحترمون إشارات المرور، إنهم يلقون القاذورات في طرقهم، إن بلدانهم لا تحترم العلم والعلماء، العالم هناك لا يساوي شيئًا الراقصة تساوي كنوزًا، إنهم مثل البقر يرعون ويأكلون ويروثون، ونحن ننظف خلفهم، لا يضيفون شيء للعلم ولا للحضارة العالمية، قمة طموح المصري - وأنت عشت في مصر- الأكل والشرب والزواج والتملك، لا أحد فيهم يفكر كيف يبني حضارة أو منارة، أو يصنع مجدًا شخصيًّا له حتى بشكل مختلف، أو يجعل بلده مختلفة.
جاسر: وهل دول العالم الأول متقدمة يا خالي؟ الناس هنا يحترمون القانون لأنه ينفذ على الكبير والصغير وحازم؛ لكن لولا وجود القانون لذبحنا بعضنا البعض، هناك في مصر أماكن بدون قانون والشرطة تهملها وربما تغيب تمامًا ولا يذبحون بعضهم البعض، المسلمون هنا في الغرب يلتزمون بالقانون ويقدمون علماء عدا المتطرفين بالفكر المتشدد، هل وجدت أمريكي أسلم و أصبح جاهلًا أو مخربًا، أما في الشرق المسألة ليست احترام بقدر ما هو جهل، زرع بداخلهم حتى جعلهم مثل البقر ونحن هنا نساعد على هذا، أليست أمريكا تأخذ لبن هذا البقر ولحومهم وجلودهم، ونحرم

أطفالهم حتى من ألبانهم ونصنع منه جبنتنا التي تتلون بأشكال كثيرة، أنت قلت لي كلام كثير غير واقعي.
خاله: مثل ماذا؟
جاسر: أنت قلت لي دينهم الكثير من الحرام القليل من الحلال.
خاله: الطعام والنساء والشراب ليسوا محرمات، والإسلام يحرمهم، نبيهم تزوج تسعة غير السرائر ونحن محرم علينا.
جاسر: إقناعك صعب؛ لأن ما قلت محرم هو ليس المحرم، المحرم المضر فقط والنساء ليست محرمة، المحرم في نظرك هو الكم والكيف؛ لكن النساء نفسها غير محرمة، انظر لكيفية تحليلها، أسالك سؤال صعب يا خالي، لماذا لم يدع محمد الألوهية وقد كان بإمكانه بعد أن استتب له الملك والكل كان يحبه وجعل نفسه عبد مثل باقٍ البشر؟
خاله: لم يكن يصدقه أحد ثم إنه هو الإله فعلًا لديهم هو خدعهم بعبادة إله غير موجود؛ لكن الإله الحقيقي هو محمد يصلون عليه كثيرًا.
جاسر: كيف لن يصدقوه وهم صدقوا أنه أُسرى به وأُعرج به للسماء، وكما قلت إن أهل قريش كانوا وثنيين كانوا يعبدون أصنامًا، الإنسان إله أفضل من الإله حجر، كانوا سيؤمنون أنه الإله ما دام صدقوه في كل هذا، ثم كيف يأتي محمد بهذا الكتاب الإعجازي بين قوم من الأميين.
خاله: أساطير الأولين، نقل محمد جزء من كل كتاب من أساطير الأولين إلى كتابه.
جاسر: لكن يا خالي، لا تشابه آيات القرآن مع الإنجيل أو التوراة أو ملحمة جلجامش أو الإلياذة أو الأوديسة أو حتى كتاب الموتى في مصر.
خاله: عبثية الصدفة.
جاسر: هل سألت يومًا شيخًا عالمًا مثل الشعراوي وقد كان في عصرك عن الشبهات التي جعلتك تلحد وتكفر بالإسلام وبالإله خاله: أول مرة أراك يا جاسر غير مرتب عشوائي في أسئلتك، وتفتقر إلى روح البحث العلمي المنظم، هل طبع عليك جهل المسلمين؟ وأصبحت في جهلهم وعشوائيتهم.
جاسر: لأن الحوار أساسًا غير عقلاني، كل شيء أصبح غير عقلاني.
يا خالي كيف يكون عقلانيًّا، وهتلر الذي قتل ملايين البشر والضحايا، ويتساوى النساء والأرامل مع طفل بريء حينما يموتون الاثنان، فالنهاية سواء لا شيء عبث!
خاله: إنها عبثية الحياة، قانون الصدفة لا تفكر به؛ لأنه ليس باختيارك.
جاسر: غريب ردك، كل شيء عبثي بدون سبب كيف ونحن لا نؤمن بإله المسلمين من أجل السببية، وهنا السببية تتساوى مع عبث لا سببية اعطني عقلك، كيف نكفر بالله ونحن لأننا لا نعرف سبب خلقنا ولا سبب عدم رؤيتنا له ولا ماهيته ولا مكانه وحينما نسأل عن الموازين والمنطق نقول إنها عبثية الحياة.
خاله: يا جاسر انظر، المسلمون يقتلون بعضهم بعضًا، وانظر للحضارة هنا حرية وتسامح.
جاسر: لأننا زرعنا هناك حكام فاسدون، يحكمون باسمنا، وجعلناهم في جهل مطبق ونفرغ بلادهم من العلماء وكل ما يفعلونه خارج الدين بل صراع سياسي، انظر لهم قبل القرن الخامس عشر هل كانوا يقتلون ببعضهم البعض؟ هل كانت بلادهم دماء؟ هذا ليس بسبب الدين هذا بسبب الجهل.
خاله: هل تهذي، نحن من نقتل.

جاسر: من يعطي القاعدة السلاح الأمريكي والروسي والفرنسي والإنجليزي؟ من يصنع الإرهابيين السلاح؟ من يصدر لهم السلاح هم لا يصنعون السلاح، لو كانوا يصنعوا السلاح لقلنا إنهم دمويين ويقتلونا؛ لكن نحن صناع السلاح الأهم ونحن من نعطيهم إياه بالقدر الذي نريده، نحن زرعنا بهم الجهل ثم أعطيناهم سلاح، حولنهم لمجانين لهم ثأر كبير، ثم أعطيناهم السلاح، ماذا يفعل جاهل ومجنون وهو بيده سلاح؟ أو دعنا من العرب يا خالي ماذا فعلنا هنا في جمهوريات الموز التي بجوارنا؟ ألم نحولهم إلى جهل وتمزق وحروب أهلية لنسيطر على ثرواتهم؟ هذا قانون الغاب تمامًا، القوي يأكل الضعيف ثم يلصق بالضعيف كل الموبقات.

خاله: اهدأ لا تتعصب هذا واقع تخلفهم.

جاسر: كما يقول قرآنهم: -وتلك الأيام نداولها بين الناس- هل سمعت حينما كانوا أقوياء والحكم الثيوقراطي مسيطر على الغرب كانوا يعطوننا السلاح ليقتل الأوروبيين بعضهم بعضًا؟

خاله: بل هم من كانوا يقتلون ويفتحون بلاد الغرب لنشر الإسلام بحد السيف.

جاسر: كذب، كانوا يردون الاعتداء، لا تقرأ التاريخ من طرف واحد اقرائه من كذا طرف واحكم بأسلوب العلم المقارن.

٠ خاله: هل تناقشني في الداروينية أم في التطور أم في الإسلام أنا لا افهمك؟

جاسر: أمرك غريب جدًّا يا مثلي الأعلى وأستاذي، أنت تعلم أن ٩٠٪ من أساتذتي هنا مسيحين ويؤمنون بالرب ويسوع وأنت علمتني أنه لا إله، دوكنز نفسه في كتاب وهم الآلهة قال: -إنه يشك أنه ربما يكون هناك إله، وضع احتمالية ضعيفة لوجود الإله، وأنت تنفيها تمامًا لما-.

خاله: وإذا كان الله موجود؛ لماذا لا ينقذ المسلمين؟

جاسر: لا أعرف.

خاله: انسى هذا الحوار وسأترك لك الحرية؛ لكن ستنسى الإسلام قريبًا بعد أن تتعمق في المجتمع المصري.

وتابع خاله كلامه تعالى معي ذهبا بالسيارة إلى منزل ثم نزلا، وهناك وجد جاسر أول فتاة صادقها وكان مرتبطًا بها جدًّا، سلما على بعضهما البعض وتعانقا وقال لها خاله: أريدك أن تنسيه اسمه.

انتفض جاسر فجأة وسأل خاله: هل منع الإسلام فضيلة يا خالي أو حرمها؟

قال له خاله: اجلس مع صديقتك وأنا سأنتظرك في الخارج وبعد أن تنتهي سأجيبك على سؤالك وكل شيء.

دخل جاسر مع صديقته السابقة وطال الوقت وكأنه كان يريد أن يخرج كل الضغوطات التي بداخله، خرج وهو شاعر بالمتعة؛ لكن شاعر انه خان زينب، لأنه أول مرة يقول لفتاة أنا أحبك وهو مع زينب، شعر بالألم واللذة.

وجد خاله يقول له: هذه المتعة يريد المسلمين حرمانك منها، لإرضاء وهمهم الأكبر الذين يسموه إلههم.

جاسر ضاحكًا: لو كان لدي عقل وصبر ورغبة في الحوار العلمي لكنت شرحت لك حكمة حرمانية تحريم الزنا كما شرحت لي من المعلمة الكبرى؛ لكن لدى سؤال أخير هل لو أسلمت ستغضب مني؟

خاله: وهل أسلمت يا جاسر وتكذب علي؟ أنا لا أصدق أنك تسلم يستحيل.

جاسر: ولو كذبت عليك ما المشكلة هل الكذب حرام؟

خاله: لا تتذاكى علي لتقول لي إنه هناك حلال وحرام، المسألة احترام وتقدير لا أكثر، كيف تكذب على من رباك؟
جاسر: إذن الكذب يخلق البغضاء ويفقد الاحترام (صدقتي يا زينب)
خاله: لا أفهم منك أي شيء أنت مضطرب وغير متزن.
جاسر: نعم، لأني أول مرة أشك أن الإسلام هو الطريق الصحيح.
خاله: إياك يا جاسر!
جاسر: علمتني حرية الرأي والاختيار والآن تقول لي إياك يا جاسر، لا تخف ما زلت مقاتل شرس ضد الإسلام، والآن اتركك واذهب لحجز تذكرة العودة.
خاله: لم تعد مثلما كنت.
جاسر: بل إنا كما إنا لكني مُشتت.
خاله: سأتمنى لك الخير.
جاسر: ممن تتمنى لي الخير من الرب، أم من الدنيا، أم من الحظ؟
خاله: اذهب واحجز تذكرتك أنت تهذي كثيرًا.
جاسر ضاحكًا: لا تنتظر عودتي سأسافر مباشرة وداعًا أيها الخال الطيب السمين.
خاله ضاحكًا: أنا أكثر رشاقة منك.
وانصرف جاسر إلى المطار، ولحسن الحظ وجد طائرة بعد ست ساعات، كان يحمل حقيبته معه كأنه كان يشعر أنه سيجد طائرة، انتظر في المطار وظل يقرأ في كتاب حول إرهاصات نظرية جديدة في الفيزياء تسمى (ام)، حتى حان وقت إقلاع الطائرة، وبالصدفة مقعده كان بجوار النافذة وكانت فرصة عظيمة لأن يتأمل الطائرة وهي تشق الغمام، وأخذ يسأل نفسه هل لو كانت الطائرة بها أي عيب من عيوب الصناعة هل كانت ستحلق وتتحدى الجاذبية ومحركاتها تقاوم كل النظريات القديمة؟ هل كانت تنساب هكذا وتقاوم المطبات الهوائية دون معادلات هندسية وميكانيكية وفيزيائية معقدة؟ أي خطأ بسيط ف أي معادلة كانت الطائرة ستسقط، كيف إذا الأرض بنظامها الدقيق ومعادلاتها المعقدة والنظام البيئي المترابط بالنانو متر والفيمتو ثانية متوافق بهذا النظام الهارمون؟ من المستحيل أن يصنعوا أنفسهم دون معادلات مثالية وقياس ثابت حتى التطور ومقاومة التغير موجود داخل جين كل مخلوق حي وداخل تراكيب الأرض ذاتها، فقال لنفسه إذا كان الله خالق كل هذا، فمن خلق الله، ومن الذي خلق من خلق الله، وإذا كان الله واحد أحد كما يقولون، فلماذا هو مختفي لا نراه؟
قال لنفسه: آآآه إني أشعر بدوامة تقتلع أعماقي تذيب مفاصلي حيرة، وتزيدني مقاومة ورغبة في المعرفة، أنا لا اقتنع بهذا الدين، وأجد نفسي كأني مغيب، اقتنع ثم قال لنفسه: لماذا أؤمن بدين وأمنع نفسي متع الحياة لشيء غيبي لا أراه ولا ألمسه؟ ثم قال لنفسه: ما هذا الهراء؟ هل أصبحت عشوائي كما قال خالي؟ هل فقدت نفسي وقوتها؟ حينما أعود لمصر سأنهي هذه القصة العبثية مع زينب.
نام جاسر في مقعده حتى وصلت الطائرة وعاد لمنزله، ليستريح ويذهب لعمله في الصباح، وصل للجامعة في الصباح، وظل منتظر زينب؛ لكنها لم تأتي، فذهب إلى إحدى زميلاتها التي كانت تجلس بجوارها ويراها أحيانًا تقف معها ليسألها عنها، قالت له: إن زينب لم تأتِ من فترة إلى

الجامعة إلا من يومين؛ لتطلب مني أن أنقل لها المحاضرات والأبحاث العملية، لأنها لن تستطيع الحضور لمرض والدتها.
في اليوم التالي حزم أمره، وقال لا بد أن يذهب لزينب ليقوم بالواجب، فقد شعر بالقلق عليها، وصل إلى منزل زينب، وهناك عرف أنهم في المستشفى، أخذ عنوان المستشفى وذهب إلى هناك، وبعد معاناة وصل إلى هذه المستشفى الحكومية، التي شعر أنها عبارة مقبرة وليست مستشفى، وبالطبع لم يعرف كيف يصل إلى غرفة أم زينب حتى دفع إكرامية لموظف ليبحث له عن الغرفة، وبعد دقائق أت له الموظف ليخبره بمكان الغرفة في الجناح الاقتصادي، وصعد جاسر إلى الغرفة لتتفاجأ زينب بزيارته.
جاسر: كيف صحة الوالدة؟ وما حالتها؟
زينب: نحن لا نعرف ما هو مرض أمي؟ وكل يوم تحليلات مختلفة، وأشعة، ولا أحد يجزم لنا بمرضها.
نظر جاسر إلى الغرفة والجناح الاقتصادي بكل اشمئزاز لا أعتقد في هذه المستشفى ممكن أن تجدي التشخيص أو العلاج! إنها تسبب الوفاة مثلها مثل التدخين.
زينب: إنها جيدة جدًّا، وهذا هو المتاح، بشروا ولا تنفروا يا دكتور.
جاسر: لو تسمحي يا أم زينب أن أخذك لمستشفى طبيب صديقي، هو يستطيع تشخيص حالتك جيدًا، وكان زميلي بأمريكا، وأنا أثق به ثقة عمياء.
نظرت زينب لأمها وهي تشير لها بعينيها أن ترفض، ولاحظها جاسر وابتسم؛ لكن أمها فاجأتهما ووافقت، هي تشعر بألم كبير، وتشعر أنها تحتضر في هذه المستشفى.
خرج جاسر وأنهي إجراءات المستشفى، وطلب عربة إسعاف لتحمل أم زينب، وذهب إليهما ليخبرهما بالاستعداد للخروج. لم تتوقع زينب أن يقوم بكل هذا بهذه السرعة، وأيضًا يحجز عربة إسعاف.
وقالت: سأنزل لأدفع حساب المستشفى ورسوم الإسعاف.
جاسر: دُفع بالكامل.
زينب وهي في قمة الغضب: وأخرجت ألف جنيه من حقيبتها، وقالت أنا دفعت حساب المستشفى حتى الصباح، وأعتقد أنك مستحيل تدفع أكثر من هذا، تفضل لا نقبل صدقات.
ابتلع جاسر إهانتها في صمت ولم يتكلم، الغضب يشتعل بداخله؛ لكن تقديرًا لمرض والدتها كظم غيظه.
نزلا وركبت زينب عربة الإسعاف مع أمها، وجاسر خلفهم بسيارته حتى وصلوا إلى المستشفى المنشودة، كانت بالنسبة للمستشفى التي كانت بها أم زينب قصر أو فندق خمس نجوم.
جلسا في الاستقبال على كرسيين متقابلين، وهي تتحاشى لقاء الأعين، وحينما تلتقي عينه بها يجد خوف وهلع واضطراب على أمها، وفي الوقت نفسه قوة وعزة وشموخ؛ حتى بعد ساعة خرجت أم زينب وحولها فريق طبي كامل محمولة على نقالة المستشفى.
وقف الدكتور أمام جاسر، وقال: إنها ضحية تشخيص خاطئ وعلاج خاطئ أدى لتدهور حالتها، كل ما هناك كان ميكروبًا في الأمعاء يحتاج لتشخيص دقيق، وسوف نقوم باللازم الآن، وإن شاء الله ستخرج من هنا وهي تمشى على قدميها في أتم صحة.
جاسر: شكرًا يا دكتور لم تخب ظني فيك.

ثم صعدا في المصعد مع النقالة حتى دخلا الغرفة التي ستمكث بها أم زينب، ونامت على السرير وهما واقفين بجوارها، والدعوات تنساب من شفتي أم زينب لجاسر بلا انقطاع، وزينب ممتعضة من داخلها، أما جاسر شكرها وطلب الانصراف حتى يرتاحوا.
خرجت زينب خلفه لتسأله كم أتعاب المستشفى؟ جاسر: أنتِ مجنونة قلت لكِ الدكتور صديقي لن يأخذ مني أتعاب.
زينب: هو صديقك أنت، وليس صديقي أنا.
جاسر: أمك تحبني، ودعت لأجلي كثيرًا، ولأجلها أذهب إلى آخر العالم، أنسي الأمر.
زينب: لو تعرف أمي حقيقتك لقالت أخرجيني من هذه المستشفى، ولطردتك شر طردة.
جاسر: إذن كنتِ تخدعيني، لقد أخبرتِني أن الإسلام يؤمن بحرية الاعتقاد، ويترك الحرية لكل إنسان في اختيار دينه.
زينب: نعم نؤمن بحرية الاعتقاد؛ لكن ليس بحرية الكفر، من يكفرون بالله هم الأشد عداءًا للمسلمين، وطالبنا ديننا أن نعامل الناس بالحسنى، لا أن نتصادق نحن وأعدائنا من يسبون نبينا وإلهنا.
جاسر: إذن أنتم والمسيحيون أعداء، لأنهم كفار وأشركوا لله ولدًا؟
زينب: المسيحيون يؤمنون بوجود إله، لا ينكرون وجود إله مثلك، وهم أهل كتاب، وأمرنا الله بالبر والإحسان لأهل الكتاب لا الكفار.
جاسر: إذن دينك يأمركِ بقتلي.
زينب: لا يأمرني بأن أتعامل معك بما يرضي الله؛ لكن لا أتهاون معك إن سخرت من ربي ومن رسولي، وأنت كافر تسخر من وجود إله، وتسخر من نبينا الكريم.
جاسر: لكن.
قاطعته زينب: لا داعى للمناظرة هنا، أنا قلبي مشغول بأمي.
جاسر: صحيح، قبل أن أمشي لا نهاجم كل المسلمين؛ بل نهاجم المسلمين لأنهم إرهابيون، وليس كل المسلمين.
زينب: هل تقصد أمي، أم عمال المستشفى، أم زملائنا في الجامعة، أم أصدقائك هؤلاء الإرهابيون المسلمون؟
جاسر: لا أقصد هؤلاء، ولا حتى الناس الذين يمشون في الشارع، أقصد الإرهابيين الذين يفجرون ويقتلون.
زينب: اسمهم المتطرفون وليسوا المسلمين، وفي كل دين متطرفين أبشع، ولا تصفوهم بالإرهابيين؛ لكن التهمة جاهزة ومعلبة للمسلمين بقيادة الإعلام اليهودي وأنتم؛ حتى الكفار أشد تطرفًا، وفي كل مواقعهم يتمنون موتنا، ويتمنوا الشر لنا، ولا بد أن انصرف الآن، سلام عليكم.
جاسر: وهو يرفع صوته لتسمعه، غريبة لم تقولي سلام الله عليك مثل كل مرة، تجاهلته زينب، ومضت في طريقها.
بعد أسبوع شفيت أم زينب تمامًا من مرضها، وذهبت للاستقبال لتدفع حساب المستشفى.
قال لها الموظف المسئول: الحساب مدفوع بالكامل.
زينب: ممكن صورة من الفاتورة.
أعطاها الموظف صورة الفاتورة، وجدت جاسر دفع الحساب والفاتورة قيمتها خمسمائة جنيه.

شكرت زينب الموظف وأمها بجوارها تمشي في أتم صحة وشفاها الله - عز وجل - وعادوا إلى بلدهم، وبعد إن اطمأنّت زينب على أمها عادت لتستأنف دراستها.
في نهاية اليوم وجدت جاسر بانتظارها، وبادرته بالقول: ما دامت تنتظرني إذن المستشفى أخبرتك أننا خرجنا وتم العلاج.
جاسر: لا، أنا أجلس في المكتبة باستمرار أحببتها.
زينب: بدون لف ودوران، كم الحساب من فضلك يا دكتور؟
جاسر: كما هو مكتوب في الفاتورة، وهل ستخسر المستشفى إنها فاتورة ضريبية؟ ولماذا سيخدوعكِ؟ ولي في ذمتك خمسون جنيهًا دفعتها إكرامية لطاقم التمريض؛ أما الخمسمائة جنيه أنتِ دفعتيها مسبقًا، ونحن في المستشفى الحكومي، لأن تكلفة المستشفى الحكومي كانت خمسمائة جنيه هي والإسعاف.
زينب: لو سمحت.
جاسر: كل ما تديني لي به خمسون جنيهًا بفاتورة رسمي، ولا أريد الحوار في هذا الأمر بشكل قاطع.
أخرجت زينب من حقيبتها خمسين جنيهًا، وأعطتها لجاسر وانصرفت، غضب جاسر ونهض وانصرف هو الآخر؛ وهو ينوي ألا يكلمها أبدًا.
مر أسبوعان وهم في حالة خصام تام؛ حتى إن جاسر أصبح أكثر قوة ولا يفكر أن يكلمها، فقد تجاهلته كأنه نكرة، وشغله أكثر دراسة الإسلام حتى أصبحت قراءة القرآن ودراسته تنسيه آلامه وضعفه، وصنع بداخله قوة، رغم أنه يقرأه لاكتشاف ضعفه؛ حتى جاءت زينب له في يوم بعد انتهاء المحاضرة وهو جالس في المكتبة، وقالت: يبدو أن الإسلام يغزو قلبك، فقد أصبحت أقوى، ولم تعد تأبه بشيء.
جاسر: لا لم يغزو قلبي؛ لكني سئمت جرح كرامتي، فقررت أن أعيدها لمكانتها.
زينب: لم أهدر كرامتك مرة واحترمها جدًّا، كل ما في الأمر إني إنسانة ألتزم بتعاليم ديني، وأنت تعتبر التزامي بتعاليم ديني إهدارًا لكرامتك، وإحساسي أنك تتصدق علينا يقتلني، وفي العموم أنا آسفة.
جاسر: لا أصدق أول مرة تعتذري لي وجهًا لوجه! ولم أتصدق هذا الحساب بفاتورة.
زينب: أنت حر، أشكرك فقط على نقلنا للمستشفى، هل سنكمل مناظراتنا؟
جاسر: حدثت مناقشة بيني وبين خالي كتبتها لكِ كاملة؛ لكن قبل أن أعطيكِ الورقة، خالي عالم وأنا دكتور متخصص، حوارنا دومًا متزن وعقلاني، لا يعرف التشنجات أو سفاسف الأمور؛ لكنك ستجدين في الحوار المكتوب أن حواري عشوائي، وغير مرتب أو علمي، وغير مقنع، لأني حاولت أن أتقمص شخصيتك وفشلت.
زينب: هذا طبيعي جدًّا، أنا وأنت فيزيائيان، ومع ذلك لم نجعل نقاشنا فيزيائيًّا نهائيًّا؛ بل فلسفيًّا عقلانيًّا، وطبيعي أن تكون مضطربًا، لأنك تدافع عن شيء لست مؤمنًا به، وتردد أطروحاتي وأنت في رحلة من الشك لليقين، إن نجحت في الوصول لليقين.
أعطاها الورقة، وبدأت تقرأ الحوار، وقالت تلقائيًّا: خالك متربص جدًّا بالإسلام، ما ذنب الإسلام بظلم الشعوب وتخلفهم وسيطرة القوى الكبرى والنظم الحاكمة الفاسدة، هذا غير أن المسلمين

أساسًا متخلفون، لأنهم غير ملتزمين بدينهم هل الجوامع مليئة؟ إنها فارغة بلدنا بها خمارات وملاهي ليلية هل هذا من الإسلام نحن غير ملتزمين إسلاميًّا؟
خالك ليس محبًا للإلحاد، هو كاره للإسلام.
واصلت القراءة حتى وصلت إلى السطر المكتوب فيه أن خاله أخذه إلى الفتاة التي كان جاسر يرتبط بها، ودخل ليذوق المتعة، ألقت الورقة من يدها، وذرفت دمعة رغم أنفها، وقالت: هل زنيت؟ ألهذه الدرجة أنت بهذه الحقارة؟ أنا بكرهك، وتركته وانصرفت.
ظل جاسر في مكانه بعد انصرافها، وهو يشعر أنه يحلم، أول مرة يفقد سرعة بديهته أو الفهم، هل زينب شتمته؟ من المستحيل لا هو يسمح بهذا، ولا أخلاقها تجعلها تفعل هذا، شعر أنه كان يحلم، غير مصدق لما حدث.
خرج وهو تائه، ركب سيارته، وظل يقود على غير هدى، كيف تسبه؟ كيف هانت عليه كرامته؟ كيف تكون الزهرة البريئة كالنمرة الشرسة وأيضًا تكرهه؟ لم يشعر بالإهانة هكذا أبدًا، ثم غير اتجاهه، وقرر أن يعود لبيته، وهناك أخذ يفكر ويفكر؛ حتى قرر أن يعود إلى أمريكا، هنا هو ليس في بلده.
قاطع شاب من الدعاة الشيخ عاصم: يا شيخنا حينما تقول المرأة لرجل أكرهك فهي تعني أنها تحبه، كيف لم يفهم هذا؟
الشيخ عاصم: يا ولدي من تربى في الغرب لا يفهم الشرق، ولذلك الغرب والشرق لا يلتقيان.
طلب باقِ الشباب من الشيخ أن يكمل القصة؛ فهم مندمجون بكل حواسهم.
في اليوم التالي انتظرت زينب حضور الدكتور جاسر ولم يأتي، ومر يوم خلف يوم ولم يأتي جاسر، وبدأت تشعر بالقلق، حتى سمعت من زميلاتها أن الدكتور جاسر قدم طلب لنقله إلى أمريكا مرة أخرى وإدارة الجامعة وافقت.
وقع الأمر عليها كالصدمة، كان لديها أمل أن يشرح قلبه للإسلام، ماذا ستفعل الآن؟ شعرت أنها أخطأت خطئًا كبيرًا ستندم عليه لبقية عمرها.

****

توقف الشيخ عن الحكي لأن آذان المغرب قد حان، وبعد انتهاء الصلاة والتفافهم حول الشيخ عاصم التف حوله الطلاب، فجأة اهتز هاتفه، انتحى جانبًا وأجاب التليفون، لتخبره زوجته أن والدته مريضة، هلع الشيخ عاصم ونهض وهو متعجل تجاه الخروج، ولم يكن معه سيارة؛ لكن كان مع أحد طلابه سيارة، وبالطبع نهض ليوصل شيخه، وهو يخبرهم في عجالة أن والدته مريضة ولا بد أن ينصرف.
وصلا إلى منزل الشيخ عاصم، وصمم الشاب أن يظل بجوار أستاذه، جاء الدكتور، وقام بفحص والدة الشيخ عاصم، وقال: بسيطة لا تهلعوا غيبوبة سكر، وبعد أن قام الدكتور باللازم وكتب الروشتة ذهب ليوصل الدكتور للخارج، وجد تلميذه واقفًا في غرفة المعيشة أمام لوحة متسمر وهو غير مصدق لما يرى.
انخلع قلب الشيخ عاصم حينما وجد الشاب عيناه متسمرة على اللوحة، اقترب من الشاب وهو غاضب، ماذا أدخلك غرفة المعيشة؟
الشاب: آسف يا شيخنا، وأنا أُخَرِج محفظتي وقعت مني عملة تذكارية عزيزة علي، وظلت تتدحرج حتى دخلت هنا، طرقت الباب لم يجيب أحد؛ فدخلت لألتقطها، وشاهدت اللوحة؛ فصدمت.

اقترب الشيخ عاصم من الشاب أكثر، وقال له: عدني بميثاق غليظ أمام الله ألا يعرف مخلوق هذا السر، الذي رأيته أبدًا.
نظر الطالب وعيناه زائغة، وتكاد تدمع: أعاهدك بميثاق غليظ لن أخبر أحد أبدًا.
انصرف الطالب، وبقى الشيخ عاصم بجوار أمه يطببها، وزوجته معه في أسرة تترابط بالحب والحنان، حتى حان موعد ذهابه لطلابه في اليوم التالي.
بعد صلاته وجد طلابه يلتفون حوله، وعيناهم كلها شغف وفضول، لمعرفة ما حدث بين جاسر وزينب.
قال لهم وهو مبتسم: هل تريدون أن نتدارس شيئًا آخرًا بدلًا من قصة الملحد جاسر؟
هتفوا جميعًا نريد أن نعرف ماذا حل بجاسر وزينب؟
****
لم تدرِ زينب كيف تتصرف؟ لكن في اليوم التالي قررت أن تقوم بأمر غريب عليها تمامًا، بحثت عن رقم جاسر حتى وصلت إليه، وقررت أن تتصل به ليس من هاتفها؛ بل من مركز اتصالات، وهاتفته.
جاسر: أهلًا، من معي؟
زينب وهي ترتجف: أنا، أنا زينب.
جاسر غير مصدق لنفسه وأعاد السؤال: من معي؟
زينب: نعم، أنا يا دكتور، زينب.
جاسر: هل هذا رقمك؟
زينب: لا، أنا أتصل من مركز اتصالات.
شعر جاسر بالحنق، واسترد كبريائه الجريح، ورد ببرود: وماذا تريدين؟
زينب: أريد أن أقول لك أنا أسفة، لا تسافر، بلدك تحتاجك فلا تتخلى عنها.
جاسر: بلدي فقط!
زينب: أنا أُكِن لك كل مشاعر الاحترام والتقدير لأنك أستاذي؛ لكن بلدك في تخلف وتحتاج كل عقل وقلب يعمل من أجلها.
جاسر: شكرًا لك؛ لكني اتخذت قرارًا نهائيًّا.
زينب: فكر، وراجع نفسك وضميرك.
جاسر: لا يوجد شيء اسمه ضمير، وقراري لا رجعة فيه، وأغلق الخط في وجهها؛ كأنه ينتقم لشيطانه.
أخذ يسأل نفسه لماذا أغلق الخط؟ لماذا أهان زينب؟ هل بالفعل انتهي حبها في قلبه واسترد غروره؟ لكنه قرر ألا يعود للجامعة، ويسافر ليعاود نجاحاته وأبحاثه، ويحقق كل طموحاته.
أما زينب رغم الجرح شعرت أنها المخطئة؛ فقد أهانته في شيء لا يخصها، وهذه ليست أخلاقها.
مرت الأيام متثاقلة بطيئة على كليهما، والأيام تذهب بنضارة زينب دون أن يشعر أحد بها، حتى ذات يوم وجدت جاسر يدخل عليهم المحاضرة، ويقول: لقد جئت ألقي عليكم نظرة الوداع المحملة بعبق ذكريات أجمل سنين عمري رغم قلتها، ومهما حققت مكانة لن تصل لمكانة الحب والألفة التي عشتها وسطكم، في طيبة أجمل وأعظم شعب، ولا أخفي عليكم سرًا وأنا في أمريكا قديمًا

كنت لا أحب أن أذكر إني عربي أو مصري؛ لكن الآن أنا فخور جدًّا أني عربي ومصري، وسأكون أفضل رسول لكم من يرفع رؤوسكم للأعالي.
ابتسمت زينب وهي تسمع هذه الكلمات، وعيناها داخل قلبها تدمع على الفراق، وعلى أنه لم يدخل الإسلام، ولاحظ هو حزنها ولونها الذي فقد بعض بريقه؛ لكن لم يشأ أن يضعف، وهم بالانصراف.
حتى قال طالب متى ميعاد طائرتك يا دكتور؟
جاسر: الحادية عشر صباحًا.
وفي اليوم التالي في المطار وجد جاسر زينب ومجموعة من الطلبة يقفون لوداعه، وزينب وزميلة لها يحملان لافتة مكتوب عليها لا تنسى مصر، وقف حائرًا أمام هذا الحب الذي يلقاه من طلابه، ماذا يفعل؟ إنه يحب زينب وجرحته كثيرًا، وكان ضعيفًا، وهي اقتربت منه فقط لتناقشه وتقنعه بالإسلام، إنه أصبح يكره هذا الدين أكثر من ذي قبل؛ لأنه كان سببًا في ضعفه وتوقفه واستسلامه لفتاة؛ وهو يناقشها لو لم يكن الدين ما كانت رفضته، ورغم كل هذا قوة الحب الإنساني والمجتمعي تتغلب على الشر مهما كانت قوته شيطانية، عاد معهم قبل أن تلمس قدمه حتى سلم الطائرة، وهم يحيطونه بحب وعاطفة لم يعرفها أبدًا في حياته، إن الحب المجتمعي والإنساني أقوى من ألف حب عاطفي.
عاد ليكمل رحلة معاناته مع زينب، والدين الذي عاداه طوال عمره، حتى التقيا في المكتبة هذه المرة دون سابق ترتيب لتعود نقاشاتهم النارية دون ترتيب أيضًا.
جاسر: أشعر أنكِ تتجنبيني رغم أنك من طلبتي مني البقاء في مصر؟
زينب: شعرت إني أغضبتك وأنك تتجنبني، وهزني أكثر أن المناظرات أضحت بلا فائدة، وأن الحوار أصبح عراكًا، فابتعدت حتى لا أثير غضبك، أو ندخل في جدل بيزنطي، ليس الهدف منه رؤية الحقيقة؛ بل انتصار أحدنا على الآخر.
جاسر: ولماذا قلتي لي إن مصر تحتاجك، رغم أني كافر؟
زينب: لأن مصر فقيرة في العلم، وأنت بالنسبة لها كنز، أما عن كونك كافرًا، عبد الله بن أريقط كان كافرًا وخدم الإسلام بحمايته لرسول الله بدهائه في رحلة الهجرة.
جاسر: خلفتي عهدك، وابتعدتِ عن النقاش رغم أني لم أخطأ في حقك، والتزمت بعهدنا، والآن تهربين لا مشكلة لدي؛ لكن أتضحت لي الحقيقة.
زينب: أنا لا أخلف عهدًا، كل ما في الأمر مرض أمي كان متسببًا في هزة نفسية داخلية، وأعاهدك ألا يتكرر.
جاسر: إذا عاودت مناظرتك فاعلمي أني متربص بك وبدينك بشدة، وإن نجوتي فاعلمي أنك تقربيني من الإسلام، وإن خسرتِ فاعلمي إنك ستتهزئين طوال العمر.
زينب: بعون الله نور الله سيهديني؛ بشرط أن تتخلى عن التربص، نجعلها رحلة البحث عن النور لكلٍ منا.
جاسر: أنا رجل علم، ولست برجل إمعة حاقدًا على الإسلام.
زينب: أشعر أنك غريب بشدة، في حوارك مع خالك دافعت عن الإسلام بشدة، والآن متربص؛ ثم تقول إنك رجل علم.

جاسر: هذا لأن وطنكم وقلة علماء دينكم الحاليين، وتخلف شعوب الإسلام، وأيضًا قلة المصليين الملتزمين بدينهم، رغم إيمانهم به يخلق حالة من الجنون.
زينب: للأسف حقيقة.
جاسر: إليكِ سؤال في السيرة، كيف تقولون على محمد إنه أشرف خلق الله وهو نكح زوجة ابنه؟
زينب: زوجة من؟! أبناء رسولنا الكريم ماتوا أطفالًا.
جاسر: زيد بن حارثة، ياللعجب ألا تعرفيه!
زينب: أعرف أنك تقصد زيد بن حارثة (رضي الله عنه)؛ لكن من المعقول أن يثيرك هذا الأمر، وتجعله شبهة، وقد آثاره قبلك كفار قريش، وأثاره المستشرقون، ورد عنه العلماء خير الرد، ثم إن الرد بسيط جدًّا أنت قلت زيد بن حارثة لا زيد بن محمد.
جاسر: ألم يكن يُدعى زيد بن محمد في وقت من الأوقات، وحتى إن لم يكن ولده، والاسم سيفند القضية كلها كيف يسمح الدين الكامل بهذه الشبهة وهذا اللغط؟
زينب: حتى ينتهي اللغط، ويحفظ الله الناس من سوء اللغط والحكم.
جاسر: لا أريد كلامًا فلسفيًّا، أريد ردًا علميًّا قاطعًا.
زينب: انظر للأمر بشكل أوسع وحكمة التشريع، واقرأ الآية مرة ثانية بهدوء ودون تربص، حرم الإسلام التبني الذي كان شائعًا قبل عصر النبوة، وأصبح من المحرمات مطلقًا لا مدخل للتبني ولا إمكانية حدوثه شرعًا في الإسلام، ولسد الذرائع حاضرًا ومستقبلًا صرف الله القدر ليزوج رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) من أمنا الكريمة [زينب بنت جحش] طليقة الصحابي الكريم زيد بن حارثة، ليسد باب التبني تمامًا تحت أي ظرف أو مسمى، وصرف القدر إلى هذا اللبس، هذا حجة للإسلام لا على الإسلام أن جاء بالتحريم والتطبيق والتحليل أيضًا، ليعطي لنا المثل والمعنى.
جاسر: إليكِ سؤال في السيرة أيضًا أحمله منذ وقت، وأتمنى إجابة واضحة لا فلسفية، ولا تلوين للكلام كلام واضح قاطع، أليس غريبًا أن يكون نبيكم الزاهد العابد المعصوم من الشهوات متزوج بعدة نساء بأكثر من أربعة هذا غير السرائر، والوحيد الذي ينكسر الشرع لأجله، ويجمع بين تسعة غير السرائر، أمر غريب جدًّا أن ينكسر الشرع له فقط، وأن يكون مزواجًا محبًا للنساء؟
زينب: أنا لا ألون الكلام، ولا أسمح لك بهذه الاتهامات، أنت المتربص وتحاول ترهب من يحاورك فكريًّا ليفقد اتزانه، أتمنى أن يكون الحوار بمستوى علمي تقبله كان بها، وإن لم تقبله أنت حر في عقلك.
جاسر: أوافقك الرأي، ولن أهاجم شخصك مرة أخرى؛ لكنك دافعتي عن نفسك قبل أن تدافعي عن رسولك.
زينب: ما دافعت عن نفسي إلا لصدق رسولي.
جاسر: لا أفهم.
زينب: دعنا من هذا، أجيبك على سؤالك، بالطبع المتربصون تحدثوا عن هذا كثيرًا وبأكثر مما قلت؛ لكن اسمعني بصبر.
١٠-عدد النساء اللاتي تزوجهن رسول الله بالسرائر اثنتي عشرة زوجة.
٢-لم يحرم السرائر على نفسه؛ حتى لا يستن بسنته المسلمون، وقد أحل الله السرائر؛ فخشى أن يقلده المسلمون.

٣- توفى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو عنده ثماني زوجات وسريرتين، توفيت السيدة خديجة قبل هجرته، وتوفيت السيدة زينب بنت خزيمة.
٤-تزوج واحدة فقط بكرًا، والباقي ثياب (سبق لهن الزواج)، تخيل رجل يحب الزواج ويتزوجهنَّ كلهنَّ وهنَّ سبق لهنَّ الزواج.
٥-كلهنَّ نساء عربيات؛ إلا مارية القبطية أهداها له المقوقس حاكم مصر.
٦-نسأل أنفسنا نفس السؤال الذي تسأله، هل زواج سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) شهوة وحبًا في النساء؟
نحلل الأمر لنصل للإجابة:
أ) الرسول منذ نشأته وحتى سن الخامسة والعشرين ظل أعزب، رغم أن العرب كانوا يتزوجون في سن أصغر من ذلك.
٠ ب) الرسول (صلى الله عليه وسلم) من سن الخامسة والعشرين حتى الخمسين وهذا سن فورة الشباب وقوته متزوج من سيدة أكبر منه بخمسة عشر عامًا؛ وهي [السيدة خديجة]، ولم يجمع معها زوجة هي فقط، وهذا يؤكد لك كلامي في بداية تناظرنا عن تعدد الزوجات، أن الأصل واحدة والتعدد استثناء.
ج) الرسول (صلى الله عليه وسلم) من سن الخمسين إلى الثانية والخمسين بدون زواج حزنًا على فراق زوجته، ركز في هذا سنتان بدون زواج حزينًا على زوجته، وزاهدًا في النساء.
د) الرسول من سن الثانية والخمسين إلى الثالثة والستين متزوج بتسع نساء.
أعطيتك أرقامًا تحليلية علمية، دعني اشرح، هل من المعقول أن تظهر الشهوة فجأة وهو في سن الثانية والخمسين؟
وهو الذي أضاع شبابه مع امرأة عجوز بالنسبة لسنه، وكانت هي حبه الأول بمعنى قصص الحب التي تسمعها أي شهوة أو ضعف؟ إنه كالملائكة حتى حينما ماتت بقي حزينًا عليها، حتى حينما تزوج عدة زيجات كانت لأسباب دينية وسياسية واجتماعية سنوردها الآن.
هل من المعقول أن رجلًا تتهمه بالشهوة وإمامة كل نساء العرب، والكل يتمنى رضاءه، أن تكون أول امرأة يدخل بها بعد السيدة خديجة السيدة [سودة بنت زمعة]، وهي كانت تقترب من الثمانين، كان تزوج [عائشة بنت أبي بكر] (رضي الله عنهما) ولم يدخل بها، أرأيت شهوة أكبر من ذلك يتزوج امرأة تقترب من الثمانين لأجل شهوة.
جاسر: دعينا من سودة بنت زمعة والأخريات اللاتي تزوجهنَّ.
زينب: اصبر وسترى، ولا تقطع حبل أفكاري، كل قصة زواج إما تكريمًا، أو قدوة لعمل إنساني أو سياسي أو اجتماعي وللترابط والتلاحم بين المجتمع ككل، أو حتى العبادات، السيدة عائشة روت بمفردها مئات الأحاديث منهم (٣١٦) في صحيح البخاري.
جاسر: لن أقاطعك أكملي.
تزوج بابنتي أكبر الصحابة ووزيريه، أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما)، وزوج ابنتيه لعثمان بن عفان، وابنته الثالثة لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، تزوج [بالسيدة جويرية] حتى يكرم بني المصطلق، ويقول لهم: إنهم جزء من المسلمين حتى يفتح قلوبهم للإسلام، فقد كانوا أسرى عند المسلمين بعد غزوة بني المصطلق رحمةً بهم.

كل قصة زواج لها حكمة كبيرة، وعمل إنساني؛ بل كانت تضحية منه من أجل المجتمع الإسلام والقدوة في الدين، سأشرح لك باقِ قصص زواجه، وتحدثنا عن قصة زواجه من السيدة [زينب بنت جحش].
جاسر: لا داعي لسرد القصص وحكمتها؛ لكن قولي لي ما الحكمة من زواجه [بعائشة بنت أبي بكر] وهي ذات ست سنوات؟
زينب: خطأ، الوارد أنها كانت ذات تسع سنوات وليس ست.
جاسر ضاحكًا: تفرق كثير تسع من ست!
زينب: بالطبع، لأن هذا شيء أقل من العادي، وليس بداخله أي علة تجعلك تتعجب، لسببين:
الأول: أن كل مهاجمي الرسول من كفار قريش، الذين قالوا عنه ساحرًا وكاهنًا وشاعرًا ومجنونًا، لم يهاجموه في هذا الأمر نهائيًّا وحتى القرن الثامن عشر لم يهاجم أي مستشرق الرسول في هذا الأمر، لأنه كان أمر اعتيادي، وكانت الفتاة تنضج في البيئة الصحراوية غير وقتنا الحالي، كيف لم يهاجمه أهل قريش وكل المستشرقين طول العصر القديم؟
والآن تقولون تزوج بطفلة، وضف إلى هذا أنه حتى منتصف القرن العشرين كان سن الزواج حتى في كثير من بلدان الغرب من الثالثة عشر حتى الخامسة عشر، هذا حتى القرن الذي ولدت فيه هل كنت موجودًا في بيئته لتحكم؟ ومن كانوا كفارًا مثلك في بيئته لم يهاجموه البتة، إذن أمر طبيعي جدًّا.
الثاني: السيدة عائشة كانت مخطوبة لجبير بن المطعم بن عدي؛ أي إنها كانت ستتزوج قبل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أي إنه كان أمرًا عاديًّا جدًا، وازن كل أمر مجتمعي بزمنه، لأن هذا ليس أمرًا علميًّا، وسؤال أخير لك أنت استشهدت برواية السيدة عائشة في الحديث عن زواجها برسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وعرفت سنها من خلال هذه الرواية صحيح.
جاسر: نعم.
زينب: إذن أنت تصدق كل الأحاديث التي روتها السيدة عائشة، وآمنت بها.
جاسر: بالطبع لا.
زينب: لماذا صدقت روايتها فقط واستقطعتها وقلت مصدقه، هذا يعني أن كل ما روته من حديث صادق، فالأعجب أن تراها كاذبة في كل الأحاديث، أو ترى الأحاديث منكرة، أو كلام مفبرك وتصدق هذه الرواية وتتمسك بها، هكذا أنتم الملحدون والمتربصون بالدين تحاولون أن تبحثوا في لوحة جمالية رهيبة عن أي عيب، ورغم أنه ليس عيبًا؛ بل انعدام فهم للغمامة التي على قلوبكم، عائشة خطبت قبل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسرة عائشة من سعت لهذا النسب، لا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم تهاجمه قريش؛ بل أنتم من تتباكوا الآن على الطفولة التي بمقاييسكم رغم إنها لم تكن ببيئتكم ولا عالمكم، والآن وأنتم في عز القوة تبكون على كيف تزوج طفلة رغم أنها لم تتزوج إلا وهي بالغة للحيض؟ تتركون آلاف الأطفال يموتون جوعًا؛ بل تضربونهم بقنابلكم وصواريخكم، وتهجروهم خارج ديارهم، وتصنعوا الأسلحة والأنظمة الفاسدة، وأنت تناظرني الآن ماذا فعلت أنت أو كل الملحدين لهؤلاء الأطفال غير التباكي على السيدة عائشة؟ الدنيا بالنسبة لكم عبث حتى ولو داخلكم إنسانية؛ لكن ليس عليكم فرض أن تساعدوهم، هذا إن كنتم تساعدوهم؛ بل تقتلوهم، ولا تقل لي لماذا لا يساعدهم العرب أو المسلمون؟ أنت متفق أن المسلمين والعرب في أشد حالات ضعفهم حضاريًّا

وماديًّا، ماذا عن دول الإلحاد والعلمانية في الغرب تمتلك٨٠ ٪ من ثروات العالم كله عشرة مليون طفلًا، كفيلين أنتم أن تحفظوا طفولتهم وتنقلوهم من اليأس إلى الأمل، أم متفرغون للتباكي على الطفلة المسكينة التي تزوجت منذ أكثر من ١٤٠٠ من رجل أكبر منها بكثير؟!

جاسر: أنا أتكلم كشخص، ولسنا إنسانيين مثلكم، ونحن أهل حرب ودمار، والحياة بالنسبة لنا عبث، وماذا عنكم ألستم دين الكمال، تزوجت عائشة من رجل عجوز ولم يكن لها رأي؟ زينب: -يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتنَّ تردنَّ الحياة الدنيا وزينتها فتعالينَّ أمتعكنَّ وأسرحكنَّ سراحًا جميلًا (٢٩) وإن كنتنَّ تردنَّ الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرًا عظيمًا(٣)-. (الأحزاب)

قالت السيدة عائشة: لما نزل الخيار، قال لي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إني أريد أن أذكر لكِ أمرًا فلا تقضي فيه شيئًا حتى تستأمري أبويك، قالت: قلت: وما هو يا رسول الله؟ فرد عليها، فقالت: فما هو يا رسول الله، قالت: فقرأ عليها الآيتين الذين ذكرتهما، قالت: فقلت بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: ففرح بذلك النبي (صلى الله عليه وسلم).

اختارت رسول الله بإرادتها بالبينة والدليل.

جاسر: أنا طلبت الدليل العقلي وليس النقلي.

زينب: وهل كنت معها لأراها تومئ برأسها خجلًا أنها وافقت على الزواج أم لا؟ وفي العموم كما ترى حضرتك لو كانت مجبرة على الزواج لتزوجت بعده.

جاسر: نعم، صواب.

زينب: اسمح لي بسؤال، هل لو أقامت فتاة في أمريكا عمرها اثنتي عشرة عامًا مع زميل لها في الفصل علاقة جنسية، هل يحق لأحد عقابهما؟

جاسر: هذه حرية شخصية؛ لكن لا بد من تنبيه الأهل.

زينب: في إسبانيا السن القانوني لزواج الفتاة هو أربعة عشر عامًا، والسن القانوني لإقامة علاقة مع شاب بالغ هو ثلاثة عشر عامًا، ولا أدري كيف في عصرنا الحالي تتزوج فتاة أو تقيم علاقة وتحمل، وهي في الصف الأول الإعدادي في دولة متقدمة، وتهاجمون ليل نهار في كل مواقعكم زواج رسولنا الكريم من السيدة عائشة (شيزوفرينيا حادة).

جاسر: أتدرين، نحن فعلًا نزج بأنوفنا في حياة رجل وزوجته لم تشتكِ منه مرة، هل نحن نجلس على المصطبة يا آنسة زينب أنا أسالك عن خير الخلق كما تسموه، وكل ما في حياته ملك لكل الناس، شرحتِ وأوفيتِ وكلامكِ مقنع لا داعي للاتهام.

زينب: سبحان الله غضبت للاتهام بالشيزوفرينيا، وأنت تتهم خير الخلق ليل نهار بتهم كاذبة!

جاسر: لا بد أن تكون حياته للتحميص والاختبار والوضع تحت الميكروسكوب هذا حامل الدين.

زينب: إن لم تكن مقتنعًا بكل ما أوردت إليك مفاجئة، لم يرد حقيقة واحدة توضح سن السيدة عائشة (رضي الله عنها) حين تزوجها رسول الله سوى رواية السيدة عائشة، ووقتها لم يكن هناك شهادات ميلاد، وكثير من العلماء قالوا إنها كانت بين الاثنتي عشرة والثالثة عشر، وإذا أردت الاستبيان للمراجع: (الإصابة لابن حجر ج ٨ ص ١٤) أو (المعارف لابن قتيبة ص٥٩).

جاسر: لن أُراجع، ولن اسأل، حتى تقولي من قمة الحكمة الإلهية أنها كانت صغيرة، وكان الإسلام في حاجة لامرأة صغيرة نابهة تعلم النساء والرجال أيضًا تعاليم الإسلام، وكان جزء من حكمة تقدير الله زواجها، أن تنقل الدين للأمة الإسلامية، وتبقى طويلًا لتكون حلقة وصل.

زينب: ما شاء الله، أنت قرأت الشبهة والردود عليها، لماذا تسألني؟ وأنت تعرف الإجابة كاملة.
جاسر: أسلوب عرضك فيه جانب لآراء مختلفة، نجاحك ليس في المعلومات؛ فهي متاحة لمن يحب أن يقرأ ويتطلع بعقل باحث مجرد؛ لكن هناك شيئًا غريبًا في طريقة العرض تجعلني أرى جوانب لم أراها.
زينب: الحمد لله، لله الفضل والمنة.
جاسر: وما ردك على قضية زواج [صفية بنت حيي بن أخطب]؟ وأنقلها لكِ من كتاب من أهم الكتب لديكم (سيرة بن هشام) قال ابن اسحق: -ولما افتتح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) القموص حصن بني أبي الحقيق، فمر بهما بلال وهو الذي جاء بهما على قتلى من قتلى يهود فلما رأتهم التي مع صفية صاحت، وصكت وجهها، وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: أعزلوا عني هذه الشيطانة، وأمر بصفية فحيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد اصطفاها لنفسه.
وأتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضير فسأله عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فأتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رجل من يهود؛ فقال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)
إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لكنانة أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟ قال نعم، فأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالخربة؛ فحفرت فأخرج منهم بعض كنزهم، ثم سأله عما بقى، فأبى أن يؤديه، فأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الزبير بن العوام؛ فقال عذبه حتى تستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى محمد بن مسلمة؛ فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة.
أنا نقلت لك من سيرة بن هشام حرفيًّا؛ حتى بالصلاة على نبيكم، نقلتها رغم أني كافر به؛ لكي أكون أمينًا وحرفيًّا، ماذا تقولين في تلك المصيبة تعذيب، وحرق، وقتل، وخطف زوجة من زوجها؟
زينب: كنت انتظر هذا السؤال منذ أول يوم في المناظرات، وكنت مستعدة له، وتعجبت أنك لم تسأله من البداية، وعامة أنا مستعدة للإجابة تمامًا؛ لكن سؤال هل سيرة بن هشام هي القرآن أو السنة؟
جاسر: بالطبع لا.
زينب: كل الكتب ذكرت الحادثة بشكل آخر؛ لكن في سيرة بن هشام مذكورة بهذا الشكل.
جاسر: إذن الغوا سيرة بن هشام، ولا تحسبوها من كتب السيرة ولا الكتب الإسلامية.
زينب: سبحان الله في الملحدين، يبحثون في كل كتبنا؛ سيرة، وفقه، وعبادات، ويبحثون عن أي شيء يحسبونه خطأ، ويقتطعونه من الكتاب ويؤمنون به، هل أي كاتب مهمًا بلغت عبقرية كتباته كامل، مستحيل نلغي كتاب لأجل عيب؛ بل خطأ بشري لعمل اجتهادي فيه كثير من الدرر، مثل أيضًا كتاب -الإقناع في حل ألفاظ أبي الشجاع- في الفقه الشافعي وجدت ملحدين في موقع إلكتروني يتندرون على مسألة في الكتاب جعلته مثار للسخرية، إنه عمل إنساني به الكثير من الاجتهاد، أنتم هكذا تقتطعون كلمةً أو موضوعًا أو سطرًا أو مسألةً وتقولوا هذا الإسلام، تأتون ببعض المتطرفين لا يمثلون شيئًا من المسلمين، وتقولون هذا الإسلام تجعلون كل

مسلم فرد من القاعدة، رغم أن جماعة القاعدة منبوذة، تأتون بفتاة منتقبة أخطأت وتقولوا انظروا التي ترتدي النقاب ماذا فعلت؟، وهل قال لكم أحد أن المنتقبة معصومة؟، ولماذا لا نقول نحن انظروا الملحد؟ ماذا فعل؟ أو نقول إن الديانات الأخرى عنصرية رغم أن بها جماعات متطرفة، وعنصرية، ودموية ولا وقت لشرحها، تختارون الاستثناءات لتجعلوها عامة، وإعلامكم يسلط الضوء (انظروا المسلمين).

جاسر مقاطعًا: نعم أصدقك، إن الإعلام يريد أن يجعل الحالات الشاذة حالة عامة تمثل الإسلام؛ لكن ما ردك في المسألة التي أثارتها؟

زينب: إليك نسف هذه الرواية من هذا الحديث -لا يعذب بالنار إلا رب النار-. (رواه البخاري)

لا اجتهاد مع نص أستاذي، هناك نص يحرم التعذيب بالنار لأي إنسان؛ وقائله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان المسلمون سيعترضون قبل الملحدين، انتهت المسألة الرواية خاطئة تمامًا.

تابعت زينب حوارها: أشرح لك أولًا لماذا غزا رسول الله خيبر؟

جاسر: أعلم لماذا غزا خيبر، وأنهم خانوا العهد، وكانوا أهل غدر.

زينب: إذن لن أروي لك سبب غزوة خيبر؛ لكن سأحدثك عن نتائجها، استشهد من المسلمين ١٦ رجلًا، ومن اليهود قتل ٩٣ رجلًا، وتقولون إن المسلمين قتلوا أهل خيبر، مجموع القتلى يحدث يوميًّا في انقلاب عبارة أو دهس أتوبيس، وأنتم تشاهدون بصمت ولا تأخذكم الإنسانية، ولا تفعلون شيء من أجل الضحايا سوى نشاطركم الأحزان هذا إن كتبتموها، لا أقصدك بشكل شخصي بل في العموم، ويقتلون المسلمون، ويقولون إن الإسلام إرهاب مجموع ضحايا المسلمين بسلاحهم ومؤامرتهم وإرهابهم يساوي واحد على ألف من قتلاهم الآن.

جاسر: لا أريد خطب عصماء تكلمي في موضوع النقاش.

شعرت زينب بالإحراج وعادت لتكمل، وقالت: زينب إليك قصة زواج نبينا الكريم بالسيدة صفية أم المؤمنين، هذه الرواية من صحيح مسلم كتاب النكاح فضيلة (٢٥٦١) عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) غزا خيبر، قال: فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس؛ فركب نبي الله (صلى الله عليه وسلم)، وركب أبو طلحة، وأنا رديف أبي طلحة؛ فأجري نبي الله (صلى الله عليه وسلم) في زقاق خيبر، وأن ركبتي لتمس فخذ نبي الله (صلى الله عليه وسلم)، وانحسر الإزار عن ساق نبي الله (صلى الله عليه وسلم) فإني لأرى بياض ساق نبي الله (صلى الله عليه وسلم)؛ فلما دخل القرية قال: الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين، قالها ثلاث مرات قال وقد خرج القوم إلى أعمالهم؛ فقالوا محمد والله قال عبد العزيز، وقال بعض أصحابنا محمد والخميس قال وأصبناها عنوة وجمع السبي فجاءه دحية؛ فقال: يا رسول الله أعطني جارية من السبي؛ فقال: اذهب فخذ جارية؛ فأخذ صفية بنت حيي؛ فجاء رجل إلى نبي الله (صلى الله عليه وسلم)؛ فقال يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيد قريظة والنضير ما تصلح إلا لك، قال: ادعوه بها، قال: فجاء بها فلما نظر إليها النبي (صلى الله عليه وسلم) قال خذ جارية من السبي غيرها، قال: وأعتقها وتزوجها؛ فقال له ثابت يا أبا حمزة ما أصدقها، قال نفسها أعتقها وتزوجها حتى إذا كان بالطريق جهزتها له أم سليم؛ فأهدتها له من الليل؛ فأصبح النبي (صلى الله عليه وسلم) عروسًا؛ فقال من كان عنده شيء؛ فليجئ به، قال وبسط نطعًا، قال: فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن؛ فحاسوا حيسًا؛ فكانت وليمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

جاسر: الرواية لا تختلف كثيرًا عن رواية ابن هشام، سوى أنها لم تتكلم عن قتل كنانة بن الربيع، وقصة تعذيبه، وحتى هذه الرواية في تهمة أن الرسول اشتهي صفية، وأخذها من الصحابي دحية الكلبي، وهذا يدل على الطمع.
زينب: دعنا نحلل كلامك والرواية، أنت قلت الحديث عن كنانة بن الربيع، كنانة بن الربيع حارب المسلمين، وقتل منهم وعاداهم، وحتى حينما أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقتله، لم يعرف أن زوجته صفية، ولم يراها بدليل أنه أعطاها لدحية الكلبي، وقتله قبل حتى توزيع السبايا، قتل كنانة كان لغدره وخيانته وقتله للمسلمين؛ مثل شخص قتل شخص فحكم عليه بالإعدام.
جاسر: حسنًا أحاول أن أقتنع، أنه لم يقتله من أجل زوجته، وسأسلم أنه قاتل وخائن ويستحق القتل، زواج نبيكم بصفية هنا شبهة، حتى لو نيته بريئة سيستغلها كل شخص، أنتم عندكم حديث أو حكمة تقول ادرأوا الشبهات.
زينب وهي متهللة، وتشعر أن في كلامه عقلانية، وحوار غايته الوصول للحقيقة لا للتشويه، وقالت: إذن متفقين لم يعذب كنانة بن الربيع، ولم يحرقه، وقتله كان لقتله المسلمين وخيانتهم ونقض العهد.
جاسر: نعم؛ لكن ما ردك عن الشبهة الأهم زواج نبيكم بصفية؟
زينب: سأورد لك الأمور بشكل تحليلي ورقمي، وتستمع بدون مقاطعة.
جاسر: موافق.
زينب: ١- لم يقع نبينا بحب صفية، لأنه لم يراها من قبل، هل هناك إنسان يرى إنسانة ويتزوجها في ساعة خصوصًا إذا كان بعقلية رسول الله (صلى الله عليه وسلم).
٢- ذكرنا من قبل أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ظل لمدة خمسة وعشرين عامًا مع امرأة تكبره بخمسة عشر عامًا، وهو في فورة شبابه، لا يريد امرأة سواها. هل فجأة يتزوج كل امرأة يجدها جميلة؟ وهو يدعو للفضيلة والأسرة أساس الإسلام، بعقلك العلمي لا يمكن أن نستسيغها.
٣- رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تصالح مع أهل خيبر، ولم يمت منهم سوى ٩٣ رجلًا في الحرب كاملة، كان يمكنه قتلهم جميعًا، ويتزوج كل النساء، أو يأخذهن سرائر له، وهل لم تكن هناك امرأة سوى صفية، وكلنا نعرف جمال اليهود، وهن يعملن على إغواء العالم أجمع.
٤- وقعت صفية في سهم دحية، وجاء رجل من المسلمين يستنكر أن تكون من هي في منزلة أميرتهم في يد دحية ليس عن تقليل للصحابي الجليل دحية؛ لكن انظر للعبقرية السياسية والأخلاقية إذا أخذ دحية صفية ربما كانت تولد غيرة وبغضاء في صفوف المسلمين تهدم الدولة ببطء، حينما تأتي أي غزوة كل صحابي أو إنسان، وهم بشر خطاؤون، يقول كما أخذ دحية أفضل النساء لن انتظر في أي غزوة؛ بل سأنزل إلى الساحة وأخذ غنيمتي بنفسي، والكل يتعارك على متاع الدنيا وهنا النفس القائدة تتحرك حتى لا تتكرر أخطاء غزوة أحد، والبعد الآخر تكريم بني صفية أنه لم يأخذ صفية جارية؛ بل تزوجها وجعلها من أمهات المسلمين، ما يمنع رجل قوي منتصر من أن يجعلها جارية، كيف يساوي بين اليهودية و بنت أبو بكر (رضي الله عنهم جميعًا)، إنها عبقرية الإدارة السياسية.
٥- اشتراها من دحية، لم يأكل حقه وأرضاه، وهذا الاحتواء والحب النبوي، ورغم أنه اشتراها من دحية إلا إنه حررها، وجعلها من جارية إلى أميرة كما يسميها زماننا، وكان هذا قمة الإنسانية؛ فأسلم الكثير من قومها تباعًا، وهناك من خرج من قومها للحاق باليهود الخارجين في السابق، هو

نبي رحمة يريد أي طريقة تدخل كل إنسان الإسلام حتى لو كان أعدى أعداءه وينجي البشر من النار إنه نبي الرحمة، وكل تصرف حتى لو كان بقسوة باطنه رحمة، ونحن حينما نتصرف بقسوة مع قاتل مسلم لحماية جسد المجتمع من المرض، وأن تصرفنا بلا مبالاة يزداد المرض.
٦- تساوى النبي بأصحابه، (المساواة) شيء نفتقده تمامًا في حياتنا، حينما جاءه دحية وقال إنه يريد جارية، قال له اذهب واختار ما تشاء، لم يقل له انتظر حتى اختار أنا أو فكر أن يختار، أو قال له هل ستتقدم على حاكمك؟ نحن في عصرنا الحالي لو موظف سار أمام المدير سيحوله للتحقيق.
٧- نأتي لأم المؤمنين صفية، من شروط الزواج في الإسلام الموافقة والإشهار؛ إذن ليست مجبرة كما تقولون وإلا أصبح الزواج في حكم المنعدم، ولنفترض بعقول الملحدين المريضة التي تتهم المسلمين في هذا أنها أجبرت، وسأقول إنها أجبرت، السيدة صفية (رضي الله عنها) عاشت لعصر معاوية بن سفيان (رضي الله عنه)، ومات عنها رسول الله وهي في أوج شبابها، لماذا لم تهرب وتذهب إلى ملك الفرس أو الروم بعد وفاة رسول الله، وتقول إن رسول الله اختطفني وأجبرني أن اتزوجه، وكانت ستكون أكبر هزيمة في تاريخ الإسلام زوجة رسول الله، وأرملته تذهب لملك الروم أو الفرس وتفضح الإسلام، أعتقد عقلك لم يتخيل هذا؟
وعندما اصطفاها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لنفسه وخيّرها بين الإسلام والبقاء على دينها، قائلًا لها:
-اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي (أي تزوّجتك)، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك، فقالت: - يا رسول الله، لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعوني؛ حيث صرت إلى رحلك، وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر أو الإسلام، فالله ورسوله أحب إليّ من العتق، وأن أرجع إلى قومي-. فأعتقها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتزوّجها، وجعل عتقها صداقها، وكانت ماشطتها أم سليم التي مشطتها، وعطرتها، وهيّأتها للزواج برسول الله-.
وأصل هذه القصة ورد في صحيح البخاري.
والسيدة صفية قالت الرد في هذه الآية:
قالت لكم الرد في هذه الآيات: -يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)-. (سورة الأحزاب)
إليك بعض مآثر السيدة صفية أم المؤمنين:
عن زيد بن أسلم: أن نبي الله (صلى الله عليه وسلم) في وجعه الذي توفي فيه، قالت صفية بنت حيي: والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي فغمزها أزواجه، فأبصرهن فقال (مضمض) قلن من أي شيء، قال: -من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة-.
ورد في الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٠/٠٣١٣)، ومن أروع مواقفها مع ثالث الخلفاء الراشدين (عثمان بن عفان) أنها في وجه الفتنة وقفت.

عن كنانة قال: كنت أقود بصفية لترد عن عثمان، فلقيها الأشتر؛ فضرب وجه بغلتها حتى مالت؛ فقالت: -ردوني لا يفضحني هذا- ثم وضعت خشبًا من منزلها ومنزل عثمان تنقل عليه الماء والطعام. مراجع (الاشتر هو مالك بن الحارث النخعي، كان على رأس أهل الكوفة الذين تولوا الفتنة أيام عثمان بن عفان (انظر بن حجر العسقلاني الإصابة ٦٠/٠٢٦٨) بن سعد الطبقات الكبرى (٨\١٢٨)

ألا ترى يا أستاذي شدة الإيمان ودفاعها عن الإسلام ومهما كتب الملحدون عنها، قلت لك كانت أمامها الفرصة لتهرب وتصل للروم وتتسبب في أكبر هزيمة للإسلام، أي الكتب أصح الآن، الكتب التي كتبها الملحدون، التي تفتقد للصدق ومتربصة ومشوهة ليس أكثر، وتظل تنقل في روايات وتشوه. ولم تفكر مرة ماذا فعلت صفية بعد رحيل حبيبها ومعلمها رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؟

جاسر: تصدقي أنا من كلامك شعرت أني بحب محمد وصفية، وقصة الحب الخالدة هذه، وأريد أن أنحنى أمامهم كيف أتيتِ بهذا الإقناع؟ ومتى قرأتِ كل هذا؟

زينب: من أول مناظرة عرفت أنك ستسألني عن قصة زواج رسولنا الكريم بصفية، لأني قرأت كتب الإلحاد؟ وعرفت أين الشبهات التي يثيرونها في القرآن عن انعدام فهم للآيات واللغة العربية والسير والأحاديث، والجانب الآخر تصوير المسلمين بمظهر سيء عن طريق التركيز على أي نموذج مسلم سيء كأن كل المسلمين من المفترض أن يكونوا ملائكة.

٠ جاسر: احتراماتي لكِ لو كل مسلم حينما ينهض لشيء يتعلمه ويدرسه جيدًا وبكل جوانبه، ويكون ليس قارئ فقط؛ بل قارئ وفاعل لهذا الكلام ستكونون أفضل أمة على وجه الأرض.

زينب: لماذا أفضل أمة؟ ولماذا ليست أمريكا أقوى دولة على وجه الأرض ورمز الحضارة لكم.

جاسر: لأني عشت بداخلها وأعرفها جيدًا من الداخل، ولا أريد أن أتكلم عنها.

زينب: كما تحب أستاذي.

جاسر: هل تستسيغي فكرة ملك اليمين والجواري والسبايا.

زينب: الساعة انتهت ولا بد أن أذهب.

جاسر: إذن أسألكِ سؤالًا أخيرًا قبل أن تذهبي أجلته للنهاية في قصة زواج صفية، كيف تزوج رسول الله صفية قبل أن تنقضي عدتها الثلاثة شهور وعشرة أيام؟

زينب ضاحكة: انتظر هذا السؤال من البداية؛ لكن يبدو أنك كنت تريد ونحن في نهاية النقاش وأفقد تركيزي وتنقض علي إليك الإجابة: عدة المسبية في الإسلام غير عدة الحرة، فقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن أبي سعيد الخدري، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: -في سبي أوطاس، لا توطأ حامل حتى تحيض ولا غير حامل حتى تحيض حيضة- أي سؤال آخر.

جاسر: هذا سيرجع بنا للسبايا، وملك اليمين يا من جاهزة بكل الأدلة.

زينب: غدًا إن شاء الله، سلام الله عليك.

جاسر: قبل أن تمشي أشعر أنك تغاري على صفية أكثر من نفسك.

زينب: وهذه حقيقة أنا أغار على رسولي وعلى آل بيته أكثر من نفسي، ألا تغار على أمك!

جاسر: إنها ليست أمك.

زينب: بل أكثر من أمي إنهن أمهات المؤمنين، وأنا أحسب نفسي منهن، أحب أمي صفية جدًّا (رضي الله عنها).

جاسر: ألا تقولون في دينكم لا يزكي نفسه إلا إبليس يا مغرورة، كيف تحسبين نفسك مؤمنة وأنتِ لستِ مرآة نفسك؟
زينب: حاشا لله من الغرور، يكفي أني مؤمنة بما أنت كافر به، سلام الله عليكم.
جاسر: سلام.
في اليوم التالي مباشرة جاء جاسر مبكرًا وانتظر زينب في المكتبة، وهو متحفز جدًّا حتى أتت زينب؛ لكن الغريب قبل أن يبدأ جاسر الكلام، قالت زينب: هل من الممكن أن تؤجل الحوار عن ملك اليمين والسبايا إلى يوم آخر حتى أجمع كل المعلومات الممكنة؟
جاسر: غريب أمرك إنه موضوع أسهل من قضية السيدة صفية، وتطلبي تأجيله أنا تقريبًا أعرف كل الردود؛ لكن أسلوب عرضك هو المختلف.
زينب: تعرف كل المعلومات دعني أسالك سؤال صعب هو من يوفقني فقط -هل لو الرجل له جارية خاصة به، ورفضت أن تكون له رغم أنها ملكه اشتراها بمال، هل يحق له شرعًا اغتصابها، وأخذ حقه بالقوة حلال أم حرام؟ -.
جاسر: سؤال رائع، ما تخيلت أنه سيخطر ببالي؟ وما رأي الأئمة الأربعة؟ وهل هناك حديث عن رسول الله في هذا الأمر لا بد أن نستند لنص.
ضحكت زينب حتى ظهرت نواجذها، وأحمر وجهها، تقول رسول الله ورأي الأئمة، وأنت الذي سألت، من منا الملحد ومن المؤمن؟
جاسر: أنا لا يمكن أنا أؤمن بمحمد؛ لكن معنى أن هناك قضية وقفت في طريقك إنها شائكة جدًّا، وإنك لم تقتنعي جيدًا؛ فصعب على جهدك، وفكرت في أن أساعدك أعطيكِ المعلومات، وأنتِ تقومي بالعرض، طريقة عرضك هي المختلفة فقط عن المعلومات التي أجمعها لأنك بالنسبة لي الحصن الأخير للإسلام، فإن انهار الحصن انهارت لذة الغوص في هذا الدين الغريب الشيق المريب وتضيع اللذة.
زينب: ما أعجبك!
جاسر: هل تعتبريني من المتربصين بالإسلام أم مجرد رجل لا يريد أن يؤمن بالغيبيات والخرافات؟
زينب: نعم أنت متربص بالإسلام.
جاسر: أنتِ لا تفهميني، أنت تؤمنين بأشياء غيبية، والإيمان عملية روحية تمامًا تجعلك متقبلًا ومتلقًا لأي شيء؛ لكن أنا أؤمن بالديناميكية والحقائق العلمية.
زينب: بالعكس الديناميكية والحقائق العلمية ذاتهم جزء من الإسلام، وحينما تصل لهذه الحالة تجد عملية إيمانية طاغية بداخلك، خصوصًا أن الإعجاز القرآني تاريخي، مكاني، لغوي، علمي.
جاسر متهكمًا: الإسلام يؤمن بالعلم هذا أكبر نكتة، الإسلام لا يؤمن بالعلم أصلًا حتى نقول إنه ديناميكي.
زينب مبتسمة وبكل هدوء: كل ما في الإسلام علمي تمامًا وفوق مستوى علم البشر؛ فالبعض يعتبره خرافات لأنه فوق مستواهم العلمي، الدكتور الفرنسي [موريس بوكاي] يقول: -القرآن فوق المستوى العلمي للعرب، وفوق المستوى العلمي للعالم، وفوق المستوى العلمي للعصور اللاحقة، فوق مستوانا العلمي المتقدم في عصر العلم والمعرفة في القرن العشرين، ولا يمكن أن يصدر هذا

عن أميّ، وهذا يدل على ثبوت نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، أكاد أجزم لك أن معظم العلوم ذكرت فيه أن لم يكن كل العلوم-.
جاسر: أتهذي؟! إنه يتعارض مع الكثير من العلم؛ بل أكاد أجزم.
زينب: بل يتعارض مع النظريات لا مع الحقائق العلمية، كيف تقيس نظرية ليست حقيقة علمية كالتطور أو غيرها بالقرآن، إن نظرية التطور أسقطها كثير من العلماء المتخصصين، وحققها كثير من المتخصصين، كل جزء يعتبر نفسه الصواب؛ لكن لم تسلم في كل المجامع بأنها حقيقة علمية، النظرية النسبية نفسها بدأ بعض من العلماء يعلنون سقوطها في الألفية الجديدة، دعني أسألك: ما الفرق بين الأمية والجهل؟
جاسر: الأميّ من لا يعرف الكتابة والقراءة، الجاهل من لم يتثقف.
زينب: خطأ، الأمي من لا يعرف، أما الجاهل هو من يعرف خطأ؛ كأن يقول شخص أول رئيس حكم مصر هو جمال عبد الناصر، ومهما تحاول إقناعه أن أول رئيس حكم مصر هو محمد نجيب وهو مصمم على أنه عبد الناصر، هو تعلم هكذا، وعقله أغلق هكذا؛ فهو جاهل لأنه يعلم خطأ، وأنا أمية في الطب ولست جاهلة به؛ لأني لا أقرأ به، وأنت أمي مثلًا في الزراعة؛ لأنك لا تعرف بها؛ لكن الجهل أن نجعل النظريات حقائق علمية، وهي مجرد نظرية، وللتدليل العالم كله يجمع على أن الأرض كروية، إذن هي حقيقة علمية رغم أنها كانت نظرية في البداية، العلم كله منقسم على نظرية التطور، إذن ليست حقائق علمية، وبالتالي أستاذي هل الحقائق العلمية تتعارض مع القرآن؟
جاسر: دعني أسالك أنا سؤال آخر، أنتِ قولتي إن كل العلوم ذكرت في القرآن، هل علم الوراثة موجود بالقرآن؟
زينب: -إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا(٢)-. (سورة الإنسان)
-وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون(٤)-. (سورة الرعد)
جاسر: اشرحيها.
زينب: نطفة الأمشاج (الأمشاج) هي التي تحمل الصفات الوراثية في كل إنسان؛ أما الآية التي في سورة الرعد -وفي الأرض قطع متجاورات-. متقاربات يقرب بعضها من بعض، وهي مختلفة: هذه طيبة تنبت، وهذه سبخة لا تنبت، وهذه قليلة الريع، وهذه كثيرة الريع (وجنات) بساتين (من أعناب وزرع ونخيل صنوان) رفعها كلها ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب، عطفًا على الجنات، وجرها الآخرون نسقًا على الأعناب. والصنوان: جمع صنو، وهو النخلات يجمعهن أصل واحد. (وغير صنوان) هي النخلة المنفردة بأصلها. وقال أهل التفسير صنوان:
مجتمع، وغير صنوان: متفرق. نظيره من الكلام: قنوان: جمع قنو. ومنه قول النبي (صلى الله عليه وسلم) عن العباس: -عم الرجل صنو أبيه-. ولا فرق في الصنوان والقنوان بين التثنية والجمع إلا في الإعراب، وذلك أن النون في التثنية مكسورة غير منونة، وفي الجمع منونة. -يسقى بماء واحد- قرأ ابن عامر، وعاصم، ويعقوب -يسقى- بالياء أي يسقى ذلك كله بماء واحد، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى: -وجنات-، ولقوله تعالى من بعد: -بعضها على بعض-، ولم يقل: -بعضه-. والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام. -ونفضل بعضها على بعض في الأكل- في الثمر

والطعم. قرأ حمزة، والكسائي -ويفضل- بالياء، لقوله تعالى: -يدبر الأمر يفصل الآيات-. (الرعد - ٢)
وقرأها آخرون بالنون على معنى: ونحن نفضل بعضها على بعض في الأكل، وجاء في الحديث (في قوله):
-ونفضل بعضها على بعض في الأكل-، قال: -الفارسي، والدقل، والحلو، والحامض-.
[ص: ٢٩٥] قال مجاهد: كمثل بني آدم، صالحهم وخبيثهم، وأبوهم واحد. قال الحسن: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، ويقول: كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن - عز وجل - فسطحها، فصارت قِطعًا متجاورة، فينزل عليها المطر من السماء، فتخرج هذه زهرتها، وشجرها، وثمرها، ونباتها، وتخرج هذه سبخها، وملحها، وخبيثها، وكل يسقى بماء واحد، كذلك الناس خلقوا من آدم (عليه السلام) فينزل من السماء تذكرة فترق قلوب فتخشع، وتقسو قلوب فتلهو. قال الحسن: والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى: -وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا-. (الإسراء – ٨٢)
أعتذر عن الإطالة يا دكتور؛ لكن طلبت الشرح وأنا لست مفسرة قرآن فنقلت لك تفسير الطبري لأثبت لك بالحجة القاطعة وجود الهندسة الوراثية قبل أن تعرفوها، والنباتات كلها من نفس الأرض، ونفس الماء؛ لكن الاختلاف الجيني والوراثي، هل عندك شك في هذا الإعجاز؟
جاسر: هذا كلام أدبي، أكثر منه علمي.
زينب: هذا قمة الإعجاز العلمي أن تكتب كلام بعبقرية لغوية بسيطة لقوم أُميين أن تقول لهم: لماذا الاختلاف لو قلت لهم الهندسة الوراثية في النباتات وليس الأرض، حتى في إنتاجية الأرض واختلاف الزروع حتى في مصر هناك أرض تزرع القصب ولا تزرع الأرز، وهناك أرض تزرع الأرز ولا تزرع القصب، عبقرية بحتة ولاحظ أن أهل مكة لم يكونوا أهل زراعة؛ بل كانوا أهل رعي، تتعجب حينما تجد القرآن في عصرهم يدل على شيء، وفي عصرنا يشرح علم توصلنا له، وفي العصور المقبلة سيدل على شيء آخر تمامًا، وفي كل الأحوال هو القرآن ثابت لا يتغير.
جاسر: سؤال أصعب بكثير، هل ذكر القرآن الهندسة الإنشائية؟
زينب ووجها يبتسم في فرحة: نعم ذكرها.
زينب: هل تسمح لي أن أقوم بإحضار كتاب للمهندس مجد متولي غريب، اسمه (إشارات هندسية في آيات قرآنية)
أنقل لك إعجازًا هندسيًّا عبقريًّا في آية واحدة.
جاسر: تفضلي.
زينب: -أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ-. (التوبة – ١٠٩)
وقد جمعت الآية في تصوير فني رائع بين المعقول والمحسوس، وشبهت المعنوي المفهوم بالمادي الملموس، فمن أسس بناءه بغرض ونية النفاق والكفر، كمن وضع أساس مبناه على شفا جرف هار، والنتيجة هي الانهيار المفاجئ والسريع للجرف والمبنى معًا، وفي الآية إشارات هندسية إلى أساسات المباني وطبيعة البناء، التي تحكم درجة صمود البنيان ومتانته أو تؤدي إلى انهياره، وتضمنت عدة إشارات تمس جانبًا من علم ميكانيكا التربة والأساسات، في الهندسة المدنية

والإنشائية، وبينت الآية وجهًا من أوجه الإعجاز الهندسي في القرآن الكريم يمكن استنباطه من المفاهيم والإشارات الهندسية التالية التي وردت في نص الآية:

الاستنباط الأول:

تناولت الآية عدة عوامل ذات تأثير فاعل ومباشر في تأسيس أساسات المنشآت؛ فلفظة (أساس) معناها في اللغة أصل كل شيء، وأساس البناء مبتدؤه، وفي الهندسة: التأسيس والأساس هو العنصر الإنشائي الذي يستخدم لنقل الأحمال المؤثرة من البنيان إلى التربة أو الأرض، وعند ذكر التأسيس والأساس: (أسس بنيانه) لا بد أن تكون هناك أحمال ناشئة من البنيان تستلزم إنشاء أساسات لها، وتستلزم اختيار نوع مادة الأساسات طبقًا لذلك.

فعامل الأحمال المؤثر مأخوذ في الاعتبار أيضًا، ولفظة (على) في قوله: -عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ- لها معنيان هندسيان؛ أحدهما: يفيد أن نوع الأساس المختار هو الأساسات السطحية Shallow Foundation وليس الأساسات العميقة deep Foundation، لأنه لو كانت الأساسات عميقة لكان التعبير المناسب هو (في شفا) وليس (على شفا) فعامل نوع التأسيس ملحوظ ومأخوذ في الاعتبار، وهذا المفهوم الهندسي يتطابق مع معنى الآية الكريمة؛ حيث يكون الانهيار مؤكدًا عندما يكون الأساس سطحيًّا وليس عميقًا.

وثانيهما: أنها تفيد بعمق التأسيس، فلفظة (على) أفادت أن الأساس على السطح، أي أن عمق التأسيس يساوي الصفر، فلو أن الأساس على عمق من سطح الأرض لكان التعبير المناسب مثلًا هو (بداخل شفا) فعامل عمق التأسيس مأخوذ في الاعتبار. وهذا المفهوم الهندسي يتطابق مع معنى الآية؛ حيث يكون الانهيار مؤكدًا حين يكون الأساس سطحيًّا وعلى سطح الأرض مباشرة، لأنه إذا كان الأساس سطحيًّا، وكان على عمق من سطح الأرض ربما لا يحدث انهيار.

ولفظة (شفا) معناها في اللغة (حافة)، وفي الهندسة لها مدلول يفيد بأنها المنطقة التي تبدأ من حافة الجرف، وحتى نقطة بدء التصدع في الجرف، التي يحدث عندها شكل الانهيار نتيجة ميل طبقة الجرف، فعامل بُعد التأسيس عن حافة الجرف مأخوذ في الاعتبار.

وهذا المفهوم الهندسي يتطابق مع معنى الآية؛ فحتى يكون الانهيار مؤكدًا لا بد أن يكون التأسيس داخل منطقة الشفا، لأنه لو بعد عنها قد لا يحدث انهيار.

ولفظة (جرف) في اللغة تعني (بئر) أو (حفرة)، وفي الهندسة: الفجوة من الأرض قد تنشأ بفعل السيول، وبالتالي لا بد أن نأخذ في الاعتبار تأثير المياه على الأساسات، وعلى تربة التأسيس، وقد تنشأ هذه الفجوة بفعل عوامل التعرية، فلا بد أن نأخذ في الاعتبار شكل جوانب الجرف ودرجة ميلها أي زاوية ميل الجرف، وتأثير الإجهادات على حوافها، وهذا المفهوم الهندسي يتطابق مع معنى الآية؛ لأنه كي يكون الانهيار مؤكدًا لا بد أن يكون للجرف حافة، وأن يكون التأسيس عليها.

ولفظ (هار) في اللغة قد تأتي بمعنى مشرف على السقوط، وفي الهندسة تأتي بمعنى التربة القابلة للانهيار، فعامل نوع تربة التأسيس مأخوذ في الاعتبار، وهذا المفهوم الهندسي يتطابق مع معنى الآية، فحتى يكون الانهيار مؤكدًا لا بد أن تكون التربة ضعيفة وغير قابلة للتأسيس عليها.

لقد تضمنت هذه الآية الكريمة الإشارة إلى ثمانية عوامل، تمثل معايير أساسية في تأسيس الأساسات، وهي:

١.نوع الأحمال المؤثرة.

٢.نوع مادة الأساسات.

٣.نوع التأسيس (سطحي٠/٠ عميق).
٤.عمق التأسيس عن سطح الأرض.
٥.بُعد التأسيس عن الحافة.
٦.تأثير المياه على تربة التأسيس، وعلى الأساسات نفسها.
٧.زاوية ميل التربة.
٨.نوع تربة التأسيس.
ومن هذه المعايير يمكننا إثارة نقاط بحثية ودراسية جديدة تتعلق بالآية الكريمة، أو تأكيد ما هو معروف من مفاهيم.
الاستنباط الثاني:
ثمة إشارة هندسية في قوله تعالى: -فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ- فذكر (به) في الآية أعطى مدلولًا واضحًا ومحددًا لشكل وهيئة الانهيار؛ حيث إن الجرف انهار به البنيان، فالانهيار هنا ناشئ عن خلل في منطقة الجرف وليس في البنيان ذاته، وفي ذلك تعبير قرآني بليغ.
فالحق لم يقل: -فانهار في نار جهنم- لأن المعنى في ذلك يحتمل التساؤل: أيهما الذي انهار؟ الجرف أم البنيان؟
فالفعل (انهار) يحتاج إلى فاعل مفرد مذكر، وكل من الجرف والبنيان مفرد مذكر، ويرد إلى الخاطر هذا التساؤل:
هل يمكن للجرف أن ينهار دون البنيان؟ أو ينهار البنيان دون الجرف؟ هندسيًّا يمكن للجرف أن ينهار دون أن يلحق الضرر بالمبنى إذا أخذت الاحتياطات اللازمة عند اختيار وتصميم وتنفيذ نوع الأساسات المناسبة للمبنى ولتربة التأسيس، وأيضًا يمكن للمبنى أن ينهار دون أن ينهار الجرف، وتوجد مفاهيم هندسية عديدة يمكن أن تُثار حول هذين الاحتمالين، ومنها ما يمكن أن يكون نقاط بحث وتطوير وابتكار؛ لكن معنى المثل في الآية أن البنيان الذي أسس بنيّة تقوى الله هو مسجد قباء والصلاة فيه جائزة، بينما الذي أسس بينة التفريق بين المؤمنين هو مسجد الضرار ولا صلاة فيه، فكل من المبنيين مسجد؛ لكن الفرق يكمن في النية من تأسيس كل منهما؛ فيظل مبنى مسجد قباء مسجدًا، بينما مبنى مسجد الضرار يحرم استخدامه كمسجد لقوله تعالى: -لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا- فهو لم يعد يفي بالغرض الرئيسي من بناء المساجد، وهو إقامة الصلاة، المبنيان موجودان؛ لكن انهار الغرض من استخدام أحدهما كمسجد.
وبناءًا على ذلك ففي قوله: -فَانْهَارَ بِهِ- دقة في التعبير القرآني تجعل المفهوم الهندسي واضحًا ومحددًا، نحو شكل الانهيار الحادث، فهو جاء نتيجة لانهيار الجرف وما عليه من بنيان، بينما (فانهار) فقط لا تحدد هذا المفهوم الهندسي، ولم يقل الحق: -فانهار في نار جهنم- لأن المعنى هنا وإن كان سيشير للانهيار؛ إلا أنه لا يحدد السبب الرئيسي المؤدي للانهيار؟ هل هو من الجرف أم من البنيان أم من كليهما؟ وكذلك لا يبين أيهما الذي انهار، هل هو الجرف فقط؟ أم الجرف بما عليه من بنيان؟ أم البنيان فقط، وإذا كانا انهارا هما الاثنان؛ فهو لا يبين أيضًا أيهما الذي انهار؟
أولاً: هندسيًّا يجوز أن يكون الانهيار بسبب أي من هذه الاحتمالات؛ لكن المراد من التشبيه هو توضيح الفرق بين من أسس بنيانه بنية التقوى من الله ورضوانه، ومن أسس بنيانه: بنية النفاق والكفر، فمفهوم البنيان ثابت في الحالتين؛ لكن الاختلاف في التأسيس، وبناءًا على ذلك ففي قوله تعالى: -فَانْهَارَ بِهِ- دقة بليغة في التعبير وتجسيد كامل للمفهوم الهندسي بأن الانهيار يحدث بسبب

الجرف الذي يتم عليه التأسيس، وتبعًا لذلك ينهار المبنى المؤسس عليه، بينما -فانهار في نار جهنم- لا تجسد هذا المفهوم الهندسي.

الاستنباط الثالث:

من قوله تعالى: -شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ- يمكن استنباط إشارة هندسية تمس تأثير شكل المرتفعات ونوع التربة في سقوط الأجسام، فالآية الكريمة أوضحت ثلاثة عوامل مؤثرة في تحديد أقصى سرعة لسقوط الجسم، وبالتالي أكبر كمية حركة، وهي ما يعرف بقوة الانهيار.

فالعامل الأول درجة الميل؛ فكلما كان الميل شديدًا كانت سرعة الجسم كبيرة، وأقصى سرعة نصل إليها حين يكون الميل رأسيًّا - أي يصنع خط الميل ٩٠ درجة مع المستوى الأفقي - وبالتالي فإن قوة الانهيار تكون أقصى ما يمكن، ولفظة (جرف) توحي بهذا المفهوم الهندسي.

فهي في اللغة تأتي بمعنى (بئر أو حفرة)، وفي علم المساحة الطبوغرافية قد تأتي بمعنى مرتفع أو منخفض؛ حيث إن خطوط الكونتور تعبّر عن خط وهمي يمر بجميع النقاط ذات المنسوب الواحد، وهي تتباعد في الانحدارات الخفيفة، وتتقارب في الانحدارات الشديدة، وتصل إلى درجة التماس، وتنطبق على بعضها البعض لتكوّن خطًا واحدًا عندما يكون الميل٩٠ درجة، وهي تحدث عندما يكون المرتفع أو المنخفض رأسيًّا تمامًا، فإذا سقط الجسم من فوق الجرف فإن تحركه يكون في اتجاه الجاذبية الأرضية، وتحت تأثير وزنه، لعدم وجود قوى خارجية مؤثرة على سقوطه، ومع عدم وجود قوى مقاومة ممثلة في الاحتكاك في جسم الجرف، لأن حافة الجرف رأسية؛ فإن الجسم المنهار سيتحرك بعجلة تساوي عجلة الجاذبية الأرضية، وطالما أن الجسم يتحرك تحت تأثير وزنه وبعجلة تساوي عجلة الجاذبية الأرضية، فإنه يصل لأقصى سرعة له؛ وحيث إن كمية الحركة تتناسب طرديًّا مع مربع السرعة، فإن سقوط وانهيار الجسم (كمية الحركة) تصل لأكبر قيمة لها عندما تكون السرعة أقصى ما يمكن، وهو ما يحدث عندما يسقط الجسم من على الجرف، وهذا التحليل الهندسي مطابق للمعنى الذي قصدته الآية الكريمة لتصوير سرعة وقوة انهيار المنافقين في نار جهنم، لأنهم اتخذوا مسجد الضرار كفرًا وتفريقًا بين المؤمنين، والفاء في قوله: -فَانْهَارَ- تدل على هذه السرعة، كما دل عليها التحليل الهندسي، والعامل الثاني: نوع التربة فكلما كانت التربة التي يتكون منها الجرف (المرتفع) غير متماسكة، زادت سرعة وكمية حركة الجسم، وازدادت قوة الانهيار.

ولفظة (هَارٍ) توحي بهذا المفهوم الهندسي، فمعناها في اللغة: مشرف على السقوط؛ لكنه لم يسقط، ومعامل تماسك التربة يؤثر تأثيرًا مباشرًا على قيمة إجهادات التربة، والتربة غير الصالحة للتأسيس لا تتحمل أي إجهاد وأحمال عليها؛ فعند وضع جسم عليها تهبط فجأة وتنهار، فيسقط الجسم، فلفظة (هَارٍ) أعطت وضوحًا لحالة التربة؛ وهو عنصر أساس للمعنى، لأن الجسم قد يستقر على حافة الجرف إذا كانت تربة الجرف متماسكة كالتربة الصخرية مثلًا، وهكذا فإن المدلول الهندسي للفظة (جُرُفٍ) ولفظة (هَارٍ) يثبت أن الجسم يسقط بأقصى سرعة ممكنة، وبأقصى كمية حركة، وفي ذلك دلالة على قوة السقوط والانهيار.

والعامل الثالث: مكان تحميل الجسم، فكلما كان الجسم قريبًا من حافة الجرف ازدادت السرعة وكبرت كمية الحركة، لعدم تغيير زاوية الميل أثناء الانهيار.

ولفظة (شَفَا) توحي بهذا المفهوم الهندسي، فهي في اللغة تأتي بمعنى حافة ـ كما ذكرنا من قبل ـ فلو وضع جسم بعيدًا عن الحافة، قد لا يحدث انهيار للجرف، وإذا حدث انهيار له، فإن خط ميل

تأثير الجسم لن يتطابق مع خط ميل الجرف، وبالتالي تقل سرعة وقوة سقوط الجسم عن الحالة التي صوّرتها الآية. وهكذا تتكامل الألفاظ الثلاثة في قوله تعالى:
-شَفَا جُرُفٍ هَار- لتجسيد المعنى وتصويره تصويرًا فنيًّا بشكل ملموس في الواقع.
والمفاهيم الهندسية المستوحاة من نص هذه الآية الكريمة أكسبت المشهد حركة وحيوية، فساعد الحس الهندسي على حضور الصورة ورسوخها في الذهن، ومن هذا المفهوم الهندسي للآية يمكننا إثارة مفاهيم بحثية ودراسية، تمس الجانب التطبيقي في ميكانيكا التربة والأساسات، وهي تحديد وحساب قوى الانهيار في المنشآت، وتأثيرها على المنشآت المجاورة، والمفاهيم الهندسية الواجب وضعها في الاعتبار لتلافي حدوث هذه الانهيارات.
الاستنباط الرابع:
المعنى الهندسي لـ -شَفَا جُرُفٍ- يفيد بأنها الجانب من التربة المتآكل نتيجة السيول، وليس لها ساند قوي، وعند قدوم السيل يجرف من الأودية التربة الرقيقة جدًّا ليتجمع على طرفه؛ فيصبح طينًا واهيًا.
ومن هذه المفاهيم يمكن إثارة نقاط بحثية ودراسية، حول أسباب عدم التأسيس على الحواف المنهارة، وكذلك على التربة التي تكونت نتيجة السيول.
خاتمة: هذه أربعة آراء ومفاهيم مختلفة مستنبطة من نص الآية القرآنية، ويمكن إضافة مفاهيم جديدة، وأبعاد هندسية وغير هندسية لنص الآية نفسها، والآية تحتمل كل هذه المعاني، ففيها إشارات يتعايش معها مهندسو الأساسات في تجاربهم ودراساتهم وتصميماتهم.
ونقلت لك دراسة بحثية تخص آية واحدة، هل تريد أن أنقل لك إعجاز هندسي في سورة أخرى؛ وهي (سورة الكهف).
• جاسر: كفى أرجوكِ كل هذا من آية، تفسير إبداعي ودراسة إبداعية، أنتِ تكادي تقنعيني أنا الذي أخذت الدكتوراة، ولم أكمل ٢٢ عامًا أني جاهل وأمي ومتعجرف ولا شيء، لماذا أنتم غير متقدمين رغم هذا العلم والبحث وهناك اجتهاد منكم؟
زينب: هل سمعت عن هذا المهندس من قبل وكتابه، وأنت رجل مثقف وعالم وقارئ.
جاسر: لا، أول مرة أسمع عن هذا الكتاب، وما ورد به.
زينب: لهذا نحن متخلفون، تسمع فقط عن الراقصات أو لاعبي الكورة أو شيخ متطرف يقول: إنه يريد هدم الأهرامات، إعلامنا ونظامنا السياسي يشجع ظهور هؤلاء، ويحتفي بهم، أما لو إنسان يحب العلم وينصر الإسلام لا أحد يحتفي به في إعلامنا، لذلك تبقى النماذج السيئة، ليبدلوا بها عقول الشباب، ويجعلوهم شواذ الفكر والروح وأحيانًا الأخلاق.
جاسر: صدقتي في هذا الجزء، ليس خطأكم، أنتم لاحول ولا قوة ولكم؛ لكن لماذا لا تتحدوا وتكونوا جماعة منكم أنتم الصالحون وتنشروا هذا؟ وتتفاعلوا مع بعضكم البعض؛ لتنهضوا بالمجتمع الإسلامي بالعلم والعمل.
زينب ضاحكة: مجرد أن نتجمع إما يقال عنا إرهابيون أو جماعة هدفها قلب نظام الحكم، ونذهب خلف الشمس، خصوصًا أن الجماعات التي تكون في الإسلام لم تقدم خدمات علمية أو فكرية لنصر الإسلام واقعيًّا.
جاسر: معك حق النظم السياسية تدمركم أول بأول، نعود للموضوع ألا ترى أن قانون الصدفة يخدمكم كثيرًا في الإسلام بالإضافة إلى تطويع اللغة ومرونتها؟

زينب: قانون الصدفة هذا لديكم أنتم الماديون، إنّا نحن كل شيء عندنا بمقدار، لا يأتي عبثًا؛ بل بإعجاز إلهي وتناسبه مع كل عصر وزمان، هذا إعجاز يجعلك تقول الشهادة فورًا، ونسيت أنك قلت إن رسول الله رجل من البادية وأمي، أناس لا يعرفون العلم ولا يعرفون العمران كل ما يعرفونه الرعي والتجارة، والتجارة كانت للسادة فقط؛ أي أقل نسبة في المجتمع، لا مجال للصدفة هذا لديكم أنتم؛ أما نحن دين الكمال.

جاسر: كل ما استطيع قوله: إن من كتب هذا الكتاب أعلم أهل الأرض جميعًا، بأن يجعله بالمرونة التي تتناسب مع كل عصر هذا إعجاز.

زينب: هو فعلًا أعلم من في الأرض ومن في السماء جميعًا، إنه العليم الخبير، ولنفترض أن كاتبه إنسان كما تقولون، هل يعقل أن يكون هذا الإعجاز صدفة؟!

جاسر: رغم عدم اقتناعي يستحيل أن يكون صدفة.

زينب: والغريب أنك تؤمن بالغيبيات، واللا معقول تؤمن بالتطور، تؤمن بالعبثية والصدفة، تؤمن بأنه لا جنة ولا نار موت وتحلل فقط، رغم أنك لم تمت لتجرب وتخبرنا عن ماذا بعد الموت؟ أليس هذا غيبًا ولا دليل عليه سوى نظريات لا واقع ولا حقيقة علمية لها، غيبي بحت، كل ما في الأمر أن من يكفر غالبًا لديه غرور، ويكره أن يكون محاسبًا، كأنه إله نفسه، أو يكره أن يلتزم ويرتقي، يحب الغرائز الحيوانية العبثية، يحب الشذوذ الفكري أو الشذوذ الأخلاقي، يحب خالف تعرف، يحب الملذات، لا يريد أي رابط، الإيمان حلو لمن يتذوّقه ومر لمن لا يعرفه، لا تحسب أن كثير من المسلمين يرون حلاوة الإيمان، بعضهم مسلم لأنه يخاف من العذاب فقط؛ فيلتزم بالإسلام وليس كل أخلاق المسلم، كمن هو مريض يأخذ دواء مر يكبت رغباته وشهواته، النفس هي عدو الإنسان الأول بأمراضها وبتقلبها، ترويض النفس هو الإيمان، وللإيمان حلاوة.

جاسر: ولماذا المسلمين يتحاربون مع بعضهم البعض في الدول العربية والدول الإسلامية ودماء باستمرار؟

زينب: أولًا ليس كل المسلمين، ولا توجد حروب إلا في المنطقة العربية، وهذا لموقعها الإستراتيجي، والنفط، وكثرة الموارد الخام، والتحكم في حركة التجارة العالمية، حينما دخل الاستعمار إلى الدول العربية قام بأربع إستراتيجيات:

١-أفسد التعليم في كل الدول العربية، وحاول هدم اللغة العربية، وكان من أهم عناصر التعليم التي زرعها (كراهية الاختلاف)، لا بد من اتباع رأي واحد فقط، الإقصاء إما أنا أو الآخر.

٢-زرع في كل دولة عربية فتنة طائفية؛ بحيث لا يجتمع المجتمع، ويؤججها دومًا بإعلامه، والطبقة القائدة العميقة التي تتبعه، وتؤتمر بأوامره، والحرب تأكل أي تنمية.

٣- أثناء الاحتلال حارب الدين، وحاول إخراجه من جوهره عن طريق شيوخ السلطة؛ سواء شيوخ متشددين أم شيوخ متفرجين؛ فجعل المسلم بين شيوخ متشددين جدًّا، يعتبرون كل شيء بدعة حتى البنطلون، وشيوخ يحللون ما حرم الله كالربا والتدخين؛ بل حتى ببعض بوادر الزنا حللوها، وهنا أصيب الشباب المسلم بالانفصام، فلا يعلم لأي الطرفين يذهب، غياب التجدد الفقهي والدين الوسطي؛ كالشعراوي مثلًا في مصر، وليس الدين الوسطي الذي يتكلمون عنه في الإعلام ويحض على الرذيلة، غياب الوسطية هزمت شباب أمة، والتطرف نار تأكل الأمة، مثلما الفجور والبعد عن الدين نار تهلك الأمة.

٤- لم يخرج الاحتلال من الدول العربية؛ بل ظل يحكم بالإنابة (ولن أطيل في هذه النقطة حتى لا أجد أمن الدولة يقبض علي).
جاسر ضاحكًا: ولماذا هناك طوائف في الإسلام مثل السنة والشيعة؟
زينب: هل لو أعلنت إسلامك وأنت لست بمسلم وتمتلك من الذكاء الكثير، وأتيت بجماعة من الملحدين تعرفهم، وقلت لهم هيا نوجه ضربة للإسلام، ونعلن عن طائفة جديدة نحرف القليل من قواعد الإسلام حتى لا يقولوا كفارًا، ونتمسك به، وندعو إليه، ولا نحرف في الأصول؛ بل نحرف في الفروع وجيل وراء جيل ستجد الاتباع يزدادون مع ازدياد الجهل، وازدياد أجناس المسلمين، واختلاف ثقافتهم مع غياب القوة المنظمة والعلم الحاكم، انتشر مذهب معين؛ هل هذا يسيء للإسلام؟ وما ذنب الإسلام فيه؟
جاسر: وأي طائفة على صواب يا فيلسوفة؟
زينب: الطائفة التي لا تقدس إلا الله، ولا تجعل القداسة لبشر، وتدعو للحب، ولا تسب أحد من المؤمنين أو غير المؤمنين، عندما تجد طائفة مثلًا تسب امرأة؛ وصفها (القرآن) كتاب الله - عز وجل - بأنها ليس لها مثيل في العالمين، هل تعتقد هذا من الإسلام؟
جاسر: بالطبع لا.
زينب: ابحث بنفسك أي الطوائف أصح دين السنة والجماعة أم ما صنعه المنافقون؟
جاسر: هل تكفرين أحد الطوائف؟
زينب: لا أحب الفكر التكفيري، له مختصون، ويخرج عن مجلس علمي، ولا يحق لشيخ أو فقيه تكفير شخص؛ بل التكفير يخرج عن مجلس علمي.
جاسر: يا ليت هناك هذا الجانب التنظيمي، التي تخبريني إياه، كان إسلامكم غزا القلوب؛ لكن هذا كلام نظري وليس عملي.
زينب: وهذا ما أقوله لك منذ أول مناظرة أن الدين صحيح والتطبيق الخاطئ نابع من المطبقين له، وأنت تقيس الإسلام بالمسلمين، وهذا خطأ اقرأ تعاليمه ومنهاجه، وتدبر، وابحر في بحر العلم، ستصل للحقيقة، أنا كل ما أفعله معاك أن أسير معك فقط في طريق قصير اسمه من رحلة الشك لليقين، أو من رحلة الشك إلى اللاعودة.
جاسر: نعم كلام مطلق؛ لكن واقع لا، أنا رجل عملي، أريد شيء يخبرني بما في الغد؛ ما شكله؟ ويسبق الحاضر.
زينب: والقرآن يخبرك، والإسلام والسنة تخبرك، ما شكل الغد؟ وما شكل الخلود والجنة والنار؟ لكن أنت تعتبر هذا الكلام خزعبلات ووهم، رغم كل الكمال الذي تجده في الشريعة، ويسبق الحاضر، القرآن أول من رسم ملامح تكون الجنين، القرآن أول من قال إن الأرض كروية.
جاسر: ماذا؟ القرآن أول من قال إن الأرض كروية، إن هذا لشيء عجاب.
زينب: إليك هذه الآيات: -وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)-. (الأنبياء)
في هذه الآية استخدم الله كلمة (فلك)، وتعني الاستدارة أو المدار. إذن القمر يسبح في مدار دائري، وبما أن القمر يدور على الأرض؛ فالأرض دائرية.
ولو قال لهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن الأرض دائرية لكانوا قالوا إنه يكذب - حاشا لله - أو سخروا، وإليك هذه الآية: -وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ

جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)-. (الرعد)
هذه الآية بها أربع إثباتات علمية، نكتفي منها بواحدة كروية الأرض، المد هو الإطالة، كيف يمكن أن يتحقق هذا مع أرض مسطحة؟ لا بد أن نصل لحافة ونهاية؛ لكن إن كانت ممدودة بلا حافة؛ فهذا يعني أنها كروية، وإننا نحيا فوق هذه الكورة الممدودة دومًا بلا حافة.
جاسر: لماذا لا يكون القرآن أوضح من هذا بمعنى يسلب العقول؟
زينب: -خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)-. (الزمر)
كيف بالله عليك يكور الليل على النهار والنهار على الليل في حركة تبادلية دائمة لا تتوقف، ويصف الليل والنهار بشكل كروى، أرجو الحيادية، وعقلك كيف يكون الليل والنهار على شكل كورة في معنى صريح والأرض مسطحة؟ ألم يكن من الأولى أن يقول يسطح الليل على النهار والنهار على الليل، إذن القرآن أول من سبق الحاضر، ووضع نظرية كروية الأرض، وأقر العالم بحقيقة كرويتها، ووضعت الحقيقة بشكل يتناسب مع العصر الذي نزل فيه، ويتناسب مع عصرنا وعصر ما بعدنا، هل ما زال لديك شك؟
جاسر: دعيني أبحث الأمر بنفسي وبشكل علمي بحت.
زينب: كما تشاء؛ لكن قبل أن أنصرف لأن الساعة شارفت على الانتهاء، لدي سؤال وأتمنى أن تبحث عن إجابته، من هو الكافر الذي نصر القرآن بكفره وبشره القرآن بعذاب أليم؟
جاسر: لا أعرف!
زينب: وأنا لن أقول لك إجابته أبدًا، أبحث بنفسك عن إجابته. سلام الله عليك.
جاسر: سلام.
وحينما هم جاسر بالنهوض جاءته أمينة المكتبة تستأذنه في سؤال.
جاسر: تفضلي.
أمينة المكتبة: ألاحظ أنك تجلس أنت وهذه الفتاة دومًا في المكتبة في كرسيين متقابلين، وفي هذا الركن، ولا تلتفتان لأي شيء، ولاحظت إنه لا يجذب انتباهكم شيء أبدًا كأنكم معزولان عن العالم رغم ما يحدث حولكما، كنت في البداية أحسبكم حبيبان؛ لكن الفضول دفعني لأن أسالك ما طبيعة الحوار الذي يجعل اثنان في هذا الانفصال عن الواقع؟
جاسر: الفيزياء، أنا أرى في هذه الطالبة مشروع سميرة موسى جديدة.
أمينة المكتبة: شكرًا وعذرًا على التطفل.

****

قطع الشيخ عاصم الحكي، وقال لهم: حان موعد الآذان نصلي ونعود لنكمل قصة جاسر.
بعد أن فرغ شباب الدعوة من صلاتهم، والتفوا حول الشيخ عاصم بادرهم الشيخ عاصم.
الشيخ عاصم: يا أبنائي لاحظت أنكم أنهيتم صلاتكم بسرعة والأذكار، لا بد من الاطمئنان في الصلاة، أنا أعلم أنكم تؤدون الفروض؛ لكن أريدكم أن تحبوا الفروض، وتطمئنوا بها من فقه السنة، أن تطمئن في صلاتك، ومن العبادة الربانية أن تحب الصلة بينك وبين الله، تحبها من كل جوانحك كأنها متعة تأخذك من الدنيا.
أكبر الطلاب: حقًا يا شيخنا، غالبية المسلمين يؤدون الفروض وأذكار الصلاة كمن يؤدي واجب مدرسي مفروض عليه، نفتقد الحب، وإن شاء الله حينما ينتشر الحب في عباداتنا وأفعالنا سينتشر

الحب في المجتمع والسلام النفسي.
تكلم أصغر الطلاب: يا شيخنا هل سيؤمن جاسر؟ وهل سيتزوج زينب؟

رد طالب برد مقتضب، وهو متهجم: نعم سيؤمن ويكون شديد الإيمان.
نظر له الطلاب وفي الوقت نفسه قالوا: وما أدراك إنه سيؤمن؟ سكت قليلًا ثم قال: أتوقع هذا.
أما الشيخ عاصم نظر لهذا الطالب وهو في قمة الغضب؛ لكنه كظم غضبه وقال: دعونا نكمل حكاية الشاب الملحد، ولن أخرج من المسجد اليوم حتى أُنهيها لكم.
فرح الطلاب، وتهللوا، وسكتوا ليكمل الشيخ عاصم السرد.
****
حضر جاسر إلى المكتبة ليجد زينب في انتظاره، ضع في اعتبارك أن هذا اليوم هو الأخير لنا في النقاش في المكتبة، لأني سأغيب، والامتحانات اقتربت، وأنت أهدرت الكثير من وقتي في البحث والإجابات والنقاش، ولا بد أن أعود لأجمع ما يمكن جمعه.
جاسر: إليكِ كل الأبحاث التي تخص كل المواد التي تدرسينها، ومن كل قسم جعلت أصدقائي يقدمون إليّ أفضل الأبحاث لأعطيها لكِ، وأنا على وعدي أن آتي إليك في أي مكان تختاريه لأعطيكِ دروس خصوصية.
زينب: موافقة؛ لكن في بيت خالي، وتعوضني الوقت الماضي، تريد كم في الحصة؟
نظر لها جاسر ووجه تحول إلى لون الدم، وهو يعض على شفتيه، وهو يريد أن يضربها، فشعرت بغضبه، وقبل أن يتكلم تابعت ثمن الدروس كوب من الشاي.
ضحك جاسر وهو يعلم أنها حولت الأمر إلى مداعبة، وحولت الغضبة إلى ضحكة، وقال: آتي متى؟
زينب: غدًا في الساعة الخامسة إن شاء الله.
جاسر: مساءًا أم صباحًا؟
زينب: صباحًا حضرتك سوف تأتي لتوزع علينا اللبن.
جاسر متهكمًا: أجمل شيء في الدنيا تصنع الغباء، شعرت زينب بغبائها.
وقالت: لا يوجد إنسان غبي وآخر ذكي، هناك من يستغل النعم التي أعطاها له الله - عز وجل - جيدًا، وهناك من يستغلها خطأ.
جاسر: تحدثيني دومًا عن المساواة، وأن الإسلام في جوهره إنهاء للعنصرية، والأفضلية فقط للتقوى والعلم والعمل، وأن تحريف الأديان الأخرى سبب نزول الإسلام، رغم أنكم تشابهتم مع الأديان الأخرى، في اليهودية يقولون عن أنفسهم شعب الله المختار، في المسيحية قيل إنهم ملح الأرض، في الإسلام كنتم خير أمة أخرجت للناس، أليست هذه عنصرية ولا مساواة نهائيًّا.
زينب: أولًا: لن أقارن بين الإسلام والأديان الأخرى، وأنا طلبت منك هذا من البداية، محور حوارنا الدين الإسلامي، ثانيًا: أكمل الآية -كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ(١١) -. (آل عمران)
هنا الخير مسبب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والبعد عن المنكرات، وهل من يفعل منكرًا يكون من أهل الخير؟
الإنسان ليس خير بذاته بل خير بأفعاله، وجودنا كبشر مجرد رقم؛ لكن الاختلاف يكون في العمل؛ مثل أي عالم تجعلونه من العظماء لأنه أفاد البشرية بعلمه، والآية تتكلم عن

الحضارة الإنسانية ولُبها فعل الخير، ومقياس ما تقدمه للبشر.
جاسر: كيف؟
زينب: ببساطة يا أستاذي في التاريخ المكتوب هناك أربع حضارات حكمت العالم بالترتيب: (الإغريقية - الرومانية-الإسلامية - الغربية) متوسط عمر الحضارات من ٥٠٠-١٠٠٠ سنة، إذا حسبنا عطاء كل حضارة في المساواة والحفاظ على الروح الإنسانية ونشر السلام، وبحسب كتب المؤرخين الغربيين وليس المسلمين، رغم أن التاريخ يكتبه المنتصرين غالبًا، ستجد أن الناس كانت عبيدًا أو شبه عبيد في أي حضارة غير الحضارة الإسلامية، حتى الحضارة الغربية الحالية تمتص خيرات دول العالم الثالث، وتجعلهم في حروب مستمرة، لتأخذ خيراتهم وتختار حكامهم أيضًا احتلال وعبودية بشكل جديد، أقل الحضارات دموية بعد الإسلامية الحضارة اليونانية، عدد القتلى في حروب طروادة طبقًا لكتب التاريخ المختلفة والإلياذة والأوديسة سبعة أضعاف كل غزوات رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) إذن أكثر حضارة نشرت سلام نسبي وحققت المساواة بين الشعوب، ولم تستعبد الشعوب وتقول إن أهل مكة خير الناس، والباقي عبيد أو رعايا، كما فعلت الحضارات الأخرى أو حتى الحضارة الغربية، الحضارة الغربية لا تساوي بين أمريكي وأي مواطن من دولة أخرى؛ بل حتى لا تساوي بين الأمريكي الأبيض والأمريكي الأسود، إذن هم خير أمة بأمرهم بالمعروف والنهي عن المنكر، وفعلهم الخير؛ لكن لم يقل الإنسان المسلم خير بذاته بل قال الأمة، وجهت الصفة للأمة لا للفرد.
جاسر: هذا بمقاييسك أنتِ، وليس هذا تفسير الآية الصحيح وغير سبب النزول.
زينب: قلت لك سابقًا إن هذا القرآن نزل منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة بصلاح لعصرهم، وصلاح لعصرنا، وصلاح للقرون التي تلينا، لا أريد أن أتكلم عن سبب النزول لأن القرآن شامل، وأنت تريد حصره في نقطة واحدة، والإسلام يساوي حتى بين المسلم وغير المسلم في الحقوق والواجبات، وأنا أفهم إلى ماذا ترمي وماذا تريد أن تقول؟
جاسر: أعرف أنك تفهمين ماذا أقصد؟ إذا أنا فعلت خير وتصدقت، ومنعت الشر على الضعفاء، لماذا لا أكون من خير الناس.
زينب: نفترض أنك صاحب منزل وتؤجره لشخص، وهذا الشخص لا يدفع إيجار، ولا يعتبرك مالك المنزل؛ لكنه يقوم بإصلاح المنزل هو والسكان أول بأول، وهو من يجمعهم للحفاظ على المنزل، وينهي المشكلات بينهم، وأنت تتركه ولا تأخذ منه الإيجار جزاء عطاءه؛ لكنه ينكر ملكك للمنزل تمامًا، كيف ستراه؟
جاسر: أراه حرامي يسلبني ملكي.
زينب ضاحكة: وسوف تطلب الشرطة لاسترداد ملكك، الله - عز وجل - يتركك بحريتك رغم عدم اعترافك بملكه، وهو قادر على عقابك فورًا، ويؤخرك للحظة تسترد بها وعيك وتعود إليه، ويأخذك بالسراء والضراء، والابتلاء، والعطاء عسى أن تهتدي، وإن لم تهتدِ فقد أخذت أكثر من الفرصة المتاحة للاعتراف بملكه، وحق عليك العقاب.
شعر جاسر بقشعريرة تسري في جسده؛ لكنه انتفض وقال: وإذا كان كما تقولين، وأن البشر متساوون كلهم حتى المسلمين مع الديانات المختلفة ولا عنصرية، لماذا المرأة ليست متساوية مع الرجل في الإسلام، وليس لها جميع الحقوق التي للرجل، لها نصف ما يرث الرجل فقط، الطلاق بيد الرجل فقط، ممنوع عليها مهن كثيرة، في الطلاق لا تأخذ إلا أثاث المنزل، في الغرب حينما

يتطلقون تأخذ المرأة نصف الثورة، المرأة عندكم في الإسلام عورة، عبارة عن عورة تمشي على الأرض.
زينب: كلامك هذا يشمل أكثر من قضية، نحلله جزء جزء ونأخذ كل قضية بمفردها.
جاسر: حللي كما تشائي؛ لكن أعطيني نتائج واضحة، لا تلوي عنق الكلام والمعاني.
زينب: إن شاء الله أعطيك ما تشاء؛ لكن لا تلوي عقلك أنت وتنظر في اتجاه واحد، ولا تغلق قلبك.
جاسر: أنا حيادي جدًّا.
زينب: أشك؛ لكن سأقوم بواجبي أولًا: ميراث المرأة نصف ما يرثه الرجل وقمة العدالة؛ بل وإكرامًا للمرأة أكثر من الرجل، الرجل هو من يصرف على المرأة، هذا واجب وأمر شرعي وليس تفضل، ثانيًا: هي لها ذمة مالية مستقلة، لا يحق له أخذ جزء من ميراثها إلا إذا أعطته كرمًا منها، وهي معززة مكرمة أخذت من والدها ولها ملك زوجها؛ لكن لأجل العادات الاجتماعية، والمرأة المسلمة عظيمة تساعد زوجها حينما يضيق بهم الحال من أجل بيتها وأبنائها، وذلك العطاء لنا قمة السعادة وفرق بين العرف السائد والدين، ولها الحق ألا تشارك زوجها إن أرادت، إذا طبقنا نظرتك للمساواة في أن ترث ميراث كامل بماذا سيفيدني ميراث كامل وقتها؟ حتمًا سيتوجب عليا المشاركة بالأمر في إيجاد منزل والمشاركة في تأسيسه، والصرف على المنزل فأنا متساوية مع الرجل ماديًّا، والمصريون مثلًا في غالبيتهم فقراء الميراث، سيكون جنيهات معدودة لن تجعلني أفتح بيت وأؤسسه، وأتزوج وأكون مثل الرجل، إذن لا تنكر كرمني الإسلام بنصف الميراث، ورفع عني واجبات وشروط لا تتخيلها، أخذ من زوجي ومن أبي، وهو لا يأخذ مني، إذن أخذت أكثر منه مرة ونص، لو أني زوجتك ما تملكه لي إذن ما تملك ملكي، وما أخذته من أبي لا تملكه.
قاطعها جاسر: يا ليتك زوجتي؛ لكن فعلًا أنتِ على حق، أنتم هكذا تنهبوننا، والعبء على كاهلنا نحن الرجال.
زينب ضاحكة: وإن لم يكن يعجبك أشرب من البحر، الإسلام أعطاني هذه الحقوق، هبه من الله - عز وجل - لنا.
تابعت زينب، أما بالنسبة للنقطة الثانية: حق الطلاق للرجل، المرأة عاطفية وسريعة الانفعال سواء بالفرح أم بالحزن؛ حينما تغضب أول كلمة تقولها طلقني، أنا نفسي قلت لك بكرهك في لحظة غضب وأنا لا أكرهك، إذن الطلاق بيد الرجل للحفاظ على البيت المسلم وتماسكه، وهذا تكريم، والمرأة التي لا تطيق فراق زوجها لديها الخلع، والرجل الذي سيطلق، سيدفع نفقة ومؤخر صداق لها، ونفقة للأطفال، ونفقة متعة، المرأة حقوقها مصانة حتى بعد الطلاق، لها الحق في أن تجد مرتبًا ثابتًا تصرف منه، أما بالنسبة لاقتسام الثروة، ماذا لو كانت الأسرة فقيرة واقتسموا الثروة التي هي الفقر، وفي البطالة المنتشرة في مصر، والبيت كان بالإيجار؟ ماذا ستقسم خبرني ستقسم الفقر وتنام في الشارع؟! أرأيت مدى إكرام المرأة في القرآن؛ بل وتأخذ الأثاث أيضًا وشقة للحضانة، ما أروع عظمة التشريع الإسلامي.
• جاسر: وماذا عن صوت المرأة عورة؟ وتقريبًا كل شيء يخص المرأة عورة.
زينب: لا يوجد نص واحد يقول إن صوت المرأة عورة، هذا كلام دارج يقوله الناس؛ لكن إن أنكر الأصوات لصوت الحمير، الصوت العالي منكر، قلة الحياء منكر يا دكتور، مواقع الإلحاد هي من تكتب المرأة عورة؛ ليسبوا المسلمين ولضعفهم، إذا رأيت إنسان يسب فاعلم أن المرض تملك به، هو لا يستطيع حوار العقل، وضعيف الحجة يسب ليداري ضعفه، كان هناك شخص ما في موقع

إلحادي يتكلم عن الإسلام بأسوأ ما يكون، أول ما تكلمت وأخذت أحاججه وشعر بهزيمته قال لي انصرفي يا عورة من هنا، هل تعتقد أن هناك من أكرم المرأة أكثر من الإسلام كما شرحت لك.
جاسر: ربما كلامك صحيح؛ لكن لماذا المرأة لا تعمل ما تشاء؟
زينب: أتعلم أن الاختلاط حرام، قالها أكابر الشيوخ في الماضي، وقالها الشعراوي في العصر الحالي، أتدرى لماذا؟
جاسر: لا؛ لكن هذا تشدد.
زينب: سأشرح لك، نفترض إني أركب حافلة أو المترو، ولا يوجد مكان مخصص للنساء، وهناك شخص يقف في الممر وهو لا يمتلك الحياء واحتك بي، ما مدى إحساس المهانة والرخص الذي سأشعره كإنسانة ضعيفة من إنسان أراه مثل قمامة الطرق؟ لا ليس إنسان بل إنه حيوان بمعنى الكلمة، هل تدري كم تتمزق المرأة؟
جاسر: آه تقصدين أن الأعمال التي فيها اختلاط حرام، ولا تصلح على المجمل للمرأة.
زينب: خطأ أحيانًا الاختلاط يتخطى مرحلة الحرام، كما نحن هنا في الدراسة يعتبر مختلطين؛ لكن رغم أنوفنا، أو مكاتب العمل...وغيرها، هنا نقول إننا لا نختلط بإرادتنا، هذه القوانين والظروف وضعتها الدولة، وليس علينا وزر؛ لكن نفترض أنك لديك معمل، وأنا مساعدة لك في مكان مغلق هنا العمل في هذه الخلوة حرام، حرم علينا العمل الذي به خلوة، والأعمال التي لا تناسب المرأة لأنها كثيرة الأوزار؛ لكن كل عمل يناسب طبيعة المرأة وبين الناس واضح لا غضاضة فيه، العمل عبادة.
جاسر: أشعر أنك انقلبتِ فجأة للجماعات الإسلامية المتشددة.
زينب: أنا أرى أن الجماعات الإسلامية جاءت وبالًا على المسلمين، لا مكملة للمسلمين ومقوية لمكانة الدولة، ونشر صحيح الإسلام؛ بل أصبحت كالجيتو، جماعة ضمن شعب هم الأفضل، الفكرة العنصرية أيهما أخير التي كنت تناقشها؛ لكني أورد لك أقاويل كبار العلماء، وإعلامنا يشوه الإسلام ويكرهه، لم أجد إعلاميًّا ممن يمتلك ميكروفون يدافع عن الإسلام بقوة، وحينما يحاربون شيء ينسبون الفتوى لشيخ متطرف من رأيهم، كنت أناقش ابنة خالتي عن فكرة حرمانية الاختلاط، قالت لي: هل تسمعين لمشايخ التكفير والمتشددين، قلت لها: لا؛ بل هذا رأي جمهور الفقهاء، قالت: مثل من؟ قلت لها: مثل كذا وكذا وظللت أعدد آراء أكابر علماء المسلمين لم تقتنع، وحينما قلت لها:
والشعراوي قال هذا لم تصدق حتى أسمعتها الفيديو.
هذا حال كثير من المسلمين الآن، الإعلام يأتي لهم ويقول الشيخ المتشدد قال هذا حرام؛ لأنه متشدد لكنه ليس حرام، وأناس تقتنع من كراهيتها لجماعات أو شيوخ هذه الجماعات، إذن أنت تجد الإعلام يتخذ الجماعات المتشددة لشن حرب على الإسلام وغسل عقولهم دون أن يدروا وهكذا أنت، الآن أصبحت في متاهة ولا تعرف أين الصواب؟ ونحن أصحاب الدين الصحيح ليس لنا أي منبر أو مكان نظهر فيه نحن نختفي في البيوت والأزقة وفي كل جامع نصلي صمتاً لا يدري أحد بنا، بعكس الجماعات لها منابر إعلامية وصوتية، والإعلام الذي ينشر الإلحاد والعلمانية منتشر في كل ربوع مصر، وهو يدعي أنه دين وسطي وهو بالأصل يحارب الإسلام، أما نحن في بيوتنا لا نستطيع الخروج وسط هؤلاء أو هؤلاء وليس لنا قوة تحمينا إلا الاستعانة بالله، فنحاول في وسط أهلنا وأقاربنا أن ننشر صحيح الدين.

جاسر: معاناة ومأساة، وإذا كان هناك الله؛ لماذا يترك دينه يعاني هكذا ويصبح غريبًا في بلاده؟
زينب: عدنا للسببية، والسؤال عن حكمة قرار لله - عز وجل -، الله يَسأل ولا يُسأل، لأن ربما الكثير يقولون لابتلاء المؤمنين وتثبيت الدين، والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف؛ لكن صدق كلماتي من أجمل لحظات الإيمان أن تستقبل القدر، وهو كلمة الله دون أن تسأل لماذا؟ بل تقول الحمد لله على قدره، وأنت حامد شاكرًا مهما كان الابتلاء، وهذا تعظيم لأوامر الله وعباده، وأن تدعو الله أن يرفع هذا البلاء، الله يحب أن يسمع دعاء عباده الصالحين يارب تكون منهم.
جاسر: بعد الشر، بالمناسبة أنتِ لم تقنعيني بكلمة العورة أراها بشعة.
زينب: أنت لا تريد أن تقتنع سأشبه لك شيء، المرأة في الإسلام ملكة، وليست مثل أي فتاة التزمت بدينها، تعرف بالطبع ملكة إنجلترا، كان الناس يلتفون حول قصر باكنجهام لرؤية الملكة وهي خارجة ليفوزوا بشرف نظرة للملكة، أنت حينما تجد إنسانة منتقبة أراك تحملق بها، وكأنك تريد أن تنول شرف رؤية وجهها ولو لمرة، ويثيرك ما هو مختبئ واللهفة تستبد بك، واللهفة لا تخرج إلا للكنوز، والمسلمة كالملكة لا تسمح بالاقتراب إلا لأول من يستطع عبور الأسوار، ثم الحرس، ثم الأبواب، ثم يقترب وتفكر أتسمح له أم لا؟ كملكة في قصر أجمل من قصر ملكة إنجلترا، أهناك عزة دون ملك مثل هذه؟
جاسر: ما أروعك في الشعارات والتشبيه!
زينب: لنفترض أنك من أول مرة اقتربت مني حصلت على ما تشاء، هل كنت ستبذل الغالي والنفيس لأجلي؟ هل تتعب كل هذا التعب من أجل عورة أم من أجل ملكة؟
جاسر: كأنى التزم ببروتوكول إنجليزي عتيق لمقابلة الملكة، صدقتي يا فتاة من ريف مصر، لو كنت حصلت عليك فعلًا كنت تركتك منذ وقت طويل.
نظرت زينب للسماء وهي رأسها مرفوعة.
قال جاسر: لا تغتري هكذا.
زينب: ومن قال لك إني اغتر، والعياذ بالله من الغرور، أنا أحمد الله - عز وجل - أن جعلني ملكة وغالية ومسلمة.
جاسر: لنغير محور الكلام، لماذا لم تقولي إن المرأة مختلفة بيولوجيًّا وتشريحيًّا عن الرجل فلا تصلح لمهن كثيرة؟
زينب ضاحكة: لأن المرأة المصرية كسرت القواعد، وصارت تعمل كل شيء، حتى لو حرفي، أصبحت بناءة وسواقة وكل شيء، المرأة المصرية عبقرية تفاجئك دومًا بكل شيء.
جاسر: في نهاية الحوار عن المرأة نقول: إن الإسلام ساوى بين الرجل والمرأة.
زينب: لا؛ نقول إن ديننا دين تكامل أكمل الرجل بالمرأة وأكمل المرأة بالرجل، أم، أخت، زوجة، ابنة، أب، أخ، زوج، ابن.
جاسر: أنحني لهذا المعنى.
زينب: سؤال مني ما موقف الملحدين والماديين من المرأة؟
جاسر: المساواة.
زينب ضاحكة بسخرية: يقول الفيلسوف الملحد [نيتشه] -المرأة فخ نصبته الطبيعة، إذا كنت ذاهبًا للقائها، فخذ معك سوطًا- ويقول [داروين] أبو نظرية التطور -المرأة لا تصلح إلا لمهام المنزل، وإضفاء البهجة على البيت؛ فالمرأة في البيت أفضل من الكلب للأسباب السابقة- يقول

[مـاركيز دي سـاد] -مصـير المـرأة أن تكـون فـاجرة مثـل: الكلبـة والمستذئبة، ويجب أن تنتمي لكل من يحصل عليها-.
جاسر مقاطعًا: كل هذه الآراء تخص أصحابها لا الفكر الإلحادي، وقلت لكِ سابقًا إن الملحدين غير متشابهين في الفكر، لا تعممي كما تطالبينني بعدم التعميم على النماذج السيئة في المسلمين.
زينب: ديننا ثابت قرآن وسنة، هات بهم خطأ إن استطعت، كمال ما بعده كمال، واضعه الله - عز وجل -؛ أما دينك أو فكرك واضعه هؤلاء من نقلت مقولاتهم، ولهذا أنتم تجعلون المرأة أداة للمتعة مثل: الكلبة كما يقول مؤسسين الإلحاد؛ لكن في ثياب المساواة؛ كأنه يقول لها تعري أكثر لتتساوي مع الرجل، كوني عاهرة كوني قذرة، وتحمل في رحمها الأمراض وأطفال لا تدري كنههم، هذا ما يريدونه عباد العلم من المرأة المسلمة أن تكون مثلهم.
جاسر: أنا لا أعبد العلم، ولا أعبد شيء أنا أقتنع بالماديات.
زينب: أعتقد الآن تؤمن بعجزه وقصوره.
جاسر: لم تجاوبي على مسألة السبايا والجواري وملك اليمين.
زينب مبتسمة وهي تعلم أنه هرب من النقاش، وسأل في هذا السؤال ليقوي موقفه؛ فقالت بكل رسوخ: -لقد رد على هذه الشبهة الكثيرون وأشبعوها تفنيد، لو كنت فكرت أن تقرأ بتعمق لوجدت آلاف الردود لهذه الشبهة المثارة، وكان نطق لسانك دون أن تدري يا رحيم بالعباد يا الله.
جاسر وهو ينظر لعينيها بغيظ: اعذريني فهمي بطيء وعقلي مغلق، لا أفهم إلا من سيادتك.
زينب: أنا لا أبحث عن هزيمتك، أنا أبحث عن هدايتك بحب؛ لكي تدخل الجنة.
جاسر متهللًا: هل تحبينني بحق؟
زينب: أقصد الحب في الإسلام، أن تكون من أهل الصلاح، وليس الحب الذي تقصده.
جاسر: نعود لحوارنا أفضل.
زينب: إليك المعطيات ونستخلص النتائج سويًّا؛ لكي نصل إلى الحقيقة سويًّا.
أولًا: لم يستحدث الإسلام الرق أو جاء به نظامًا جديدًا؛ بل كان معمولًا به قبل الإسلام بقرون طويلة، والرق موجود في كل الأديان السابقة.
جاسر: هل وجود ظلم يتيح لدينكم تكرار الظلم وفعله، ألستم تصفون دينكم بدين الحب والرحمة؟!
زينب: بلى؛ لكن لا تستعجل الأمور، دعني أوضح المعطيات، ونستخلص النتائج كما تشاء.
١-لم يخترع الإسلام الرق، ولم يأت به؛ بل هو نظام موجود فعليًّا.
٢-كان متأصلًا وليس حدثًا عارضًا أو موسمي، ويعتمدون عليه كليًّا.
٣-لم يحرم الإسلام الرق تحريمًا صريحًا، ولم يأمر به؛ إذن الإسلام لم يأمر بالرق، ولم يحث عليه؛ بل وجده قائمًا؛ بل أمر بالعتق، والعرب يرونه أمرًا مكتسبًا لا يمكن التخلي عنه، وفيه مكاسبهم ومعايشهم.
٤-كانت الأمة أو الجارية قبل الإسلام إنسانة لا تصل إلى درجة البشر، وجسدها مباح لكل طالب متعة؛ فسيدها لا يشعر تجاهها بحمية العرض والشرف، كما أنها ملك لكل أفراد العائلة وللضيوف والمعارف، وتعمل في الدعارة لتدر على سيدها دخلًا، ولا تنل حريتها أبدًا، وعلى فرض أنها حملت لا يعرف من أبو طفلها من كثرة من تمتعوا بجسدها، لذلك يسترق طفلها سواء كان ذكرًا أم أنثى، وكان هذا حال الأرض كلها قبل الإسلام.
٥-مصادر الرق قبل الإسلام التي تحول الحر إلى عبد:

أ) الحروب سواء كانت مشروعة أم غير مشروعة.
ب) الخطف من اللصوص أو قطاع الطرق، يخطفون الناس ويبيعونهم في سوق العبيد، تخيل أنك ماشي في طريق ويخطفك أربعة رجال، ويبيعونك لشخص ما معه مال؛ فتصبح كالسلعة وخادم لهذا الرجل.
ج) ارتكاب الجرائم كالقتل والسرقة والزنا، كان يحكم على مرتكبيها بالاسترقاق.
د) العجز عن سداد الدين، كان يحول الفقراء المدينين إلى أرقاء لدى الأغنياء الدائنين.
هـ) سلطان الوالد على أولاده، كان يبيح له أن يبيع أولاده إذا أراد.
و) النسل المولود من الإماء أو الجواري.
ز) الأجير الحر، إن لم يكن له عصبية أو عائلة قوية تحميه، كان صاحب العمل يستعبده أو يبيعه.
ح) كان الاحتلال الروماني والفارسي يفرض ضرائب باهظة على سكان المستعمرات، ومن لا يستطيع الدفع كانوا يبيعونه أو أحد أبنائه في سوق العبيد.
ك) العنصرية واستعباد جنس لجنس، كان الرومان يستعبدون شعوبًا كثيرة.
هذه مصادر الرق قبل الإسلام، جاء الإسلام وجفف كل مصادر الرق إلا مصدر واحد ألا وهو الحرب.
جاسر: وهل من المعقول يا أستاذة أن يكون أسير الحرب عبد أو امرأته أو بنته!
زينب: يا دكتور إذا انهزم جيش المسلمين سيتم أخذهم عبيد والنساء جواري، هذا قانون العصر ويسري على الجميع.
جاسر: ألا تقولون إن الإسلام دين الكمال، كيف يكون دين الكمال وأنتم تستعبدون الأسير ولا تقولين لي انظر للأديان السابقة أو الحضارات السابقة؟، أنتم ملائكة ولا بد أن تختلفوا، وتأتوا بالكمال والحرية، وللعلم من أنهي الرق الحضارة الغربية وليس الإسلام.
زينب: كذب وإفك، لم تنهِ الحضارة الغربية الرق؛ بل ما زالوا يستعبدون الناس بمسميات أخرى، انظر في أفغانستان والعراق وفضيحة السجون التي ينشرون فيها الشذوذ والدعارة، يكتبون معاهدات ورقية، ويخونون العهد، ويزهقون روح الأطفال والنساء، هل هناك عبودية أكثر من استباحة جسد إنسان؟
جاسر: هل هم ملائكة؟ بل بشر فيهم خطائين، ويعاقبوا حين يخطئوا.
زينب: غريب، أنت لا تؤمن بوجود ملائكة ولا شياطين، وأنت تقول هم غير ملائكة.
جاسر: أردت المعنى الرمزي، لا تحولي المعنى لخطأ لا يمت للحوار بصِلة، دعينا فيما نناقش.
زينب: الإسلام لا يريد البشر ملائكة؛ بل يحاول إكمال نواقصهم يا دكتور، إنما وضع الإسلام كمالًا لمن ينفذه بحب وبروحه، وفي الوقت نفسه وضع مساحة متنفس للخطأ حتى لا يقنط الناس، هذه المساحة هي نفس المساحة التي تركت في باب الرق، جفف الإسلام كل منابع الرق وترك بابًا وحيدًا لأن الله - عز وجل - يعلم أن هناك حجم اقتصاد هائل في تجارة الرقيق، وإذا حرمه مرة واحدة لنفر الناس من الإسلام، وأوقف الكثير من أعمالهم، وبدلًا من أن يكون هناك تحريم يكون هناك ترغيب في تحرير العبيد، بعكس الخمر جاء التحريم جزئيًّا حتى المنع التام؛ لكن في الرق تم تجفيف منابع الرق مثل: السرقة أو الخطف أو الاستعباد جبرًا، وليس جوازًا للرق كما يقول الملحدون وحتى المتحاربين، كانت هناك بعد المعارك تصالح وإطلاق سراحهم، ودليل على هذا موقف الرسول (صلى الله عليه وسلم)

من أسرى بدر، ولم يترك إلا باب مفردًا للرق وملك اليمين نكمل فيه الحوار يومًا آخر.
جاسر: لما؟
زينب: انتهت الساعة ولا بد أن أنصرف.
جاسر: ما زال باقي وقت أبقي معي قليلًا.
زينب وهي تنظر له كمعلمة تنبه تلميذ لخطئه: يبدو أننا سنعود لنقض العهد.
جاسر: لا خلف عهد ولا أي شيء من هذا، ما زال باقي أكثر من خمس دقائق.
زينب تخرج ساعة الإيقاف التي تحملها دومًا: انظر لنا ساعة ونصف نتحاور.
جاسر: حسنًا أيها الحكم الدولي، سآتي في الغد لمنزل خالك في الخامسة.
زينب: في انتظارك إن شاء الله.
جاسر: أليس من المفترض أن تعطيني رقمك حتى أهاتفك قبل أن آتي؟
زينب: تحب أن تأخذ رقم خالي.
جاسر وهو يشعر بالخيبة؛ فقد كان يحلم أن تعطيه رقمها حتى يهاتفها وقتما شاء، قال ووجهه يشتعل غيظًا: هاتي رقم خالك.
أعطته زينب الرقم، وقالت: سلام الله عليك.
جاسر: هل سنكمل موضوع ملك اليمين في بيتك خالك؟
زينب وهي تمشي أشارت بيدها بما يعني في الغد.
مشى جاسر وهو سعيد جدًّا أنه سيذهب لبيت خالها، ويتخلص من تلك المكتبة المملة، ويكون هناك في عالمها، وينتظر الغد بفارغ الصبر، يريد أن يراها بدون رسميات.
ذهب جاسر في الميعاد بالضبط، وطرق الباب ليجد رجلًا طويلًا شكله بشوش يستقبله ويسبقه بالكلام: دكتور جاسر.
• جاسر: حضرتك خال الآنسة زينب.
خال زينب: نعم، تفضل.
دخل جاسر المنزل وهو يتشمم رائحة زينب في المكان، ويشعر بسعادة، وقلبه يتراقص ومتلهف لرؤيتها في المنزل، وعيناه تدور في أرجاء المنزل البسيط؛ لكنه يشعر داخله بالألفة والروح الجميلة كيف لا يعرف؟ رائحة المنزل معبأة ببخور عربي، ونسمات صوت الشيخ محمد رفعت تتهادى من مذياع صغير، تعجب كيف في هذا العصر ما زال هناك من يستمعون للمذياع؟ والأعجب أنه لم يتضايق من صوت القرآن كما كان في السابق، شرد في التخيلات وشكل غرفة زينب، وهو جالس في غرفة الجلوس، حتى انتزعه صوت خالها: لحظات وهي قادمة.
جاءت زينب، وهي تتهادى وترتدي إسدال فضفاض، وألقت السلام، وجلست على الكرسي المجاور، وصمت، وهو ينتظر خروج خال زينب؛ لكنه لم يخرج وظل جالسًا في مكانه.
نظر جاسر لزينب، وقال هامسًا: هل سيظل خالك جالس معنا؟
زينب: نعم سيبقى في الغرفة، حرام أن تختلي بي حتى لو الباب مفتوح.
جاسر: كيف أشرح وهو جالس؟، وكنا في المكتبة تقريبًا نتكلم بمفردنا.
زينب: كان حولنا أناس كثيرون.
جاسر: لا أستطيع الشرح هكذا.
زينب: إذن لا داعي للدرس.

جاسر: أنا أداعبك فقط، سوف أقوم بالشرح من أول بحث.
زينب وهي مبتسمة: حاضر يا دكتور.
وبدأ جاسر الشرح، وزينب تركز تمامًا في كل نقطة لتفهم وتتعلم، حتى انتهي الدرس، كتب لها في الورقة ألن نناقش موضوع ملك اليمين؟
زينب: بلى، نكمل حوارنا.
وقبل أن تكمل حوارها تردد صوت الآذان من المسجد القريب، فقطع حوارهم خالها، وقال: هيا نصلي يا دكتور أم أن حضرتك غير مسلم؟
همت زينب أن تتكلم؛ لكن نظر لها جاسر نظرة نارية، وقال مسرعًا: أنا مسلم يا عمي طبعًا.
ونزل مع خالها للصلاة، وكان في أكثر موقف محرج له، وهو يتوضأ رغم أنه يعلم قواعد الوضوء؛ لكن لا يعلم كيفية تنفيذها بشكل صحيح، وخال زينب ينبهه إلي خطأ مر به؛ حتى ذهبا خلف الإمام ليصليا في لحظات لم يتخيل أن يحياها أبدًا.
لكن الغريب أنه كان يقلد حركات المصلين، وهو يشعر باللهفة، والغرابة، والحنق، والفرحة، وأحاسيس تقتلعه كأنه يحلم، أول صلاة في حياته جعلته تائه؛ كأنه فقد عقله وجسده من يأمره، وخرج من المسجد بعد انتهاء الصلاة، وهو زائغ البصر وفي الوقت نفسه داخله رعشة خوف، ويحاول أن يحنق ويغضب بداخله يشعر بطمأنينة، في مزيج يمزق عقله.
حتى صعد لزينب، وأول مرة يشعر أنها تضحك من داخلها بلا انقطاع وغير قادرة على السيطرة على نفسها من الضحك؛ لكنه حاول أن يتماسك قدر الإمكان، ولا يتكلم، ولا يجعلها تسأله عن إحساسه في أول صلاة في حياته، وهو زائغ البصر، قال: هيا نكمل موضوعنا.
زينب سأتكلم همسًا وأنت تسمع؛ حتى لا يسمعنا خالي.
جاسر: كلي آذان صاغية.
زينب: توقفنا عند أن الإسلام جفف كل منابع الرق إلا بابًا واحدًا، باب الحرب المشروعة بين المسلمين والكفار، التي تكون معلنة من ولي أمر المسلمين وليس أي حرب، نأتي لمن أسر ووقع في أسر المسلمين، وهنا أتى التشريع بالرحمة بدلًا من القتل بالاسترقاق والحفاظ على الروح الإنسانية؛ حتى لو كانت لعدو؛ وحتى بعد الاسترقاق يأمرك الإسلام بحسن المعاملة حتى لو كانوا رقيقًا.
جاسر: ولماذا لا تكملون معروفكم بعد أن حافظتم على روحه أن تطلقوا سراحه؟!
زينب: لأنه كان سيعود لقتالنا، وابحث بنفسك ستجد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أطلق سراح بعض الأسرى في غزوة بدر وبدون مقابل؛ لكنهم عادوا لقتال المسلمين مرة أخرى، ماذا ستفعل لو أن هناك شخصًا كان يحاول قتلك، وأنت صددته وعفوت عنه؛ ثم عاد يحاول قتلك من جديد؟
جاسر: أقتله ألف مرة.
زينب: هنا التشريع أمرنا بالحفاظ على حياته، وهذه هبة من الله وليس هذا فقط؛ بل أمرنا بحسن المعاملة، وليس هذا أيضًا فقط؛ بل ترك الباب مفتوحًا لحريتهم.
جاسر: كيف؟
زينب: قبل الإسلام لم يكن هناك باب لعتق العبيد إلا باب واحد؛ وهو إرادة السيد في عتق عبيده أو لا؛ لكن في الإسلام جعل هناك أبوابًا متعددة منها على سبيل المثال لا الحصر:
١-الذي يصنع ذنب بينه وبين الله، يقول له الله -عز وجل- -كفر عن ذنبك بعتق رقبة-.

٢-الظهّار: من يظاهر زوجته للتكفير، اعتق رقبة.
٣-كفارة يمين، اعتق رقبة.
٤-كفارة صيام، اعتق رقبة.
٥--٠فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣)-. أمرنا بعتق الرقاب صدقات.
مصارف أخرى كثيرة يا دكتور؛ إذن بالنظر إلى منابع الرق قبل الإسلام جاء الإسلام وجففها، ولم يعد إلا منبعًا واحدًا فقط (الحرب المشروعة)، وجاء إلى مصارف العتق وعددها؛ إذن لو مكثت الأمة ولم يعتد عليها أي أمة كافرة لمدة لانتهى الرق تمامًا من المجتمع الإسلامي؛ لجفاف المنابع وتعدد المصارف.
إذن الإسلام لم يشرع الرق؛ بل شرع العتق.
جاسر: ولماذا يجعل الباب مفتوحًا ولا يحرمه جملة واحدة؟
زينب: لأن الاقتصاد المجتمعي والدولي كان يعتمد اعتمادًا كبيرًا على الرقيق، وإنهاءه جملة واحدة يحدث هزة عنيفة جدًّا في المجتمع قد تؤدي إلى حرب أهلية، مثل الحرب الأهلية التي حدثت في أمريكا بعد أن أعلن [إبراهام لنكولن] عام ١٨٦٠ تحرير العبيد، وبالتأكيد تعلم ما دار في رحى هذه الحرب، إن الله -عز وجل- الذي يعلم الغيب وأخفى يعلم كل تشريع وما يترتب عليه بكمال، إذا كانت أمريكا التي ألغت الرق بعد ١٣٠٠ سنة من نزول الإسلام وقعت في حرب ضروس ما بالك لو من ١٣٠٠ عام تم إنهاء الرق ماذا كان سيحدث؟ وبهذا كان الإسلام السبب الأول في إنهاء الاسترقاق بعد تقدم البشر والحضارة الإنسانية انتهي باب الرق تمامًا، وهذا يثبت أن الإسلام لم يشرع الرق وإلا كان ظل مستمرًا؛ لأنه شرع؛ وهو أول من حارب العبودية بالأمر بالعتق.
جاسر: كيف كان تشريع معاملة العبد في الإسلام؟
زينب: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): -إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم؛ فمن كان أخوه تحت يده؛ فليطعمه من طعامه، وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلب؛ فإن كلفه ما يغلبه فليعنه-. (رواه البخاري)
هل هناك بعد هذا الأمر أفضل من هذا حسن معاملة؟
جاسر: وماذا عن الجواري وجعلهنَّ ملك يمين؟
زينب: هذا أيضًا من باب تصفية الرق.
جاسر: كيف؟ إذلال النساء وجعلهنَّ ملك يمين تصفية للرق!
زينب: إذا جاء عبد و تزوج تلك الجارية فكل أولادهما سيكونون عبيدًا تحت أمر سيدهم؛ لكن إذا كانت ملك يمين لسيدها وولدت ولدًا أو فتاة سيكون المولود حرًا لأبيه؛ بل ربما يكون ملكًا كما في العصر العباسي٧٠٪ من حكام العصر العباسي أبناء جواري، وصرنَّ ملكات بملك أولادهم، انظر لعبقرية التشريع وحكمته، وبعد النظر يعطي عزة كبيرة لا تراها في الظاهر، وليس هذا التكريم فقط؛ بل جعلها تتساوى مع زوجة السيد الحرة، وأنها مثل الحرة؛ بل ربما تتفوق عليها، وتشعر بأنوثتها بإحساس لا تقدره إلا المرأة، كيف يترك الحرة ويكون معها وهي أفضل؟ وإذا ترك ملك اليمين بدون رجل؛ فربما تنحرف وتؤدي لتفشي الرذيلة في المجتمع؛ فكل امرأة لديها احتياجات غريزية، فسد التشريع كل المنافذ ليعطي لها وللمجتمع الذي جبل على هذا.

ونهي الإسلام عن قول عبدي أو جاريتي؛ بل يا فتى أو يا فتاة، ويأكل مما يأكل، ويشرب مما يشرب، ولا يكلفه ما لا يطيق؛ فإن كلفه لا بد أن يعينه يدًا بيد، وأمام حسن المعاملة هذه دخل الكثير منهم الإسلام بإرادتهم بدلًا من أن يبقوا على الكفر، وكان هذا فتح نور لهم بحسن المعاملة؛ إذن يا أستاذي لا تقارن بين رق وحرية؛ لأنه لم يكن هناك حرية أبدًا قبل الإسلام؛ بل قارن بين قتل ورق، واختار الإسلام الرحمة وحسن المعاملة.

جاسر ناظرًا إلى زينب؛ وهو شاخص: كفى اقتنعت اقتناعًا تامًا.

نظرت زينب إلى جاسر متفاجئة من رده: لماذا تسخر مني؟!

جاسر: لا أسخر بالفعل مقتنع لا تتفاجئي، وجود حرب أهلية في بلدي أمريكا المتحضرة، وقتل [لينكولن] لأجل تحرير العبيد، هذا يجعلني أقتنع إقتناعًا تامًا بصحة التشريع من بلد ناشئ ودين ناشئ، إذا كان أهل القبائل حاربوا الدين فقط لمجرد أنه فكر جديد، فماذا كان سيحدث إن أخبرهم بتحرير العبيد؟ كان سيقضي على الدين الجديد، وليست مجرد حرب أهلية كما في أمريكا، لأنه كان سيهدم نصف بنائهم الاقتصادي.

هل تسمحي لي بالانصراف قبل آذان العشاء؛ حتى لا يجبرني خالك على الصلاة.

ابتسمت زينب: وقالت سؤال أخير إذا كان لدينا نهر وجففنا منابعه إلا منبعًا واحدًا ضعيفًا، وعددنا مصارفه ماذا سيحدث؟

جاسر: سيجف عاجلًا أو آجلًا، ومياهه ستكون ضعيفة جدًّا، لن يقدر على شرائها إلا الأغنياء جدًّا.

زينب: وهذا ما فعله الإسلام بالنص مع الرق. من الممكن أن تنصرف الآن، وإن كنت أفضل أن تصلي العشاء مع خالي إنها من أحب الصلوات إلى قلبي خصوصًا نوافلها والشفع والوتر.

غضب جاسر: وقال لا تستفزيني أريد الانصراف الآن، وأريد أن آتي غدًا بعد العشاء؛ حتى لا أُجبر على أي صلاة.

زينب: بعد العشاء تجتمع الأسرة، ونقرأ قرآن، ونتحاور، وننام مبكرًا؛ لنستيقظ قبل الفجر؛ لنصلي قيام الليل وقرآن الفجر، تعالى بعد العصر مباشرة الوقت سيكفي، ولن تجبر على الصلاة.

جاسر: جيد، أستأذن في الانصراف الآن.

****

قاطع شاب الشيخ عاصم، وقال: لماذا يا شيخنا تحكي لنا عما يمر به جاسر ومشاعره وأفكاره؟ وكل الحكاية محصورة بنفسه وخلجاته، ولا تحكي لنا عن زينب ومشاعرها وتفكيرها أو حتى وسطها الإنساني، ولا تحكي لنا عن والدي جاسر؛ كأن الحكاية مسخرة لجاسر فقط.

الشيخ عاصم: لأني أحكي قصة شاب ملحد، وهو جاسر.

وعاد الشيخ عاصم يكمل السرد.

****

حينما خرج جاسر ظل يحدث نفسه عما مر به، الوضوء، الصلاة الأولى، لأول مرة يقول لزينب أنه اقتنع اقتناعًا تامًا، حاول شيطانه أن يجعله يتمرد على هذا الاقتناع؛ لكن كيف؟ أخذ يحدث نفسه؛ كيف لو هناك خالق ويسبب لهم الأسباب وتارك حرية الخير والشر دون تدخل إعجازي؟ أن يشرع تشريعًا قد يهدم أمة ناشئة؛ إذن حكمة التشريع حق، غلق المنابع، فتح المصارف يساوي جفاف.

لكن الأغرب أنه لم يتعمق في التفكير في زينب؛ بل الأغرب أنه ظل يفكر في الوضوء والصلاة؛ وهو يشعر بألف مطرقة تضربه على رأسه، ظل في هذا التفكير حتى موعد اللقاء بعد صلاة العصر في منزل خال زينب.
وحينما وصل وجد طفل ربما في أول المرحلة الإعدادية يفتح له، وخالها ليس موجودًا، إنه ما زال في العمل، وفرح جدًّا بعدم وجوده؛ لكن قبل أن يدخل غرفة الجلوس وجد امرأة عجوز تدخل وتجلس في نفس الكرسي الذي كان يجلس عليه خالها حتى دخلت زينب، وقالت له: هذه جدتي، ويمكنك الحوار كما تشاء؛ فهي سمعها ثقيلًا جدًّا، لترتاح من همس الأمس.
وبغرابة لم يتكلم جاسر عن موضوع البحث، ولا حتى عن حوار الأمس؛ بل بدأ بسؤال غريب: لماذا تريديني أن أدخل الإسلام؟
زينب: صدقني ليس للحب والهراءات التي تدور في عقلك.
جاسر: أعلم، وأعي جيدًّا، ليس بسبب الحب؛ لكن لماذا تريديني أن أدخل الإسلام؟
زينب: أخرج البخاري ومسلم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مرت به جنازة؛ فقام؛ فقيل له: -إنها جنازة يهودي، فقال: أليست نفسًا!-.
الإنسان يا دكتور سر من أسرار عظمة الله، الروح سر رهيب ومقدرة تتخيل الله -عز وجل- يقول: -وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)-.
الحجر تتخيل يا دكتور مدى تكريم الإنسان، وأنه مصور وفيه الروح من الله، كيف تتمنى لهذه العظمة الإلهية أن تدخل النار؟! أتمنى كل إنسان في الجنة.
جاسر: زينب أنا لست شابًا صغيرًا أو مراهقًا، لا أصدق هذا الكلام، حتى لو كان إحساسك واقعيًّا هناك سبب أكبر؟ وإلا كنتِ أهدرتِ وقتك الثمين في محاولة هداية زميلاتك اللاتي تسمّونهن متبرجات.
زينب: أخبرك السبب الحقيقي ولا تغتر، وتعدني ألا تغير تعاملك معي، وتبقى بحيادتك، عدني.
جاسر: أعدك.
زينب: أنا أعرف قصة حياتك العلمية والعملية، وأنك مرشح لأن تكون من أكبر العلماء في العالم، عبقريًّا منذ طفولتك وبارعًا في مجالك، تجنبت مناقشتك في الفيزياء، أنت عالم وأنا تلميذة ستكون مناقشة غير عادلة، ولا مقارنة بينك وبين أي شخص، محايد عقلاني، لا أثق ولا أملك بعض زمام العلم إلا في ديني وثقتي في بنيانه المتين جدًّا جعلتني أتحداك رغم علمك الرهيب، لأنك لا تعرف جيدًا الإسلام، ليس كل من قرأ كتاب أو عشرة أصبح عالم دين، لست مسلمة بالاسم، وتعمقت في ديني كثيرًا، ووصلت إليه بالعقل والعلم والعمل، ولست عالمة دين أيضًا؛ فالإسلام بحر واسع وعلم كبير جدًّا، يعجز أي إنسان عن جمعه كله.
جاسر: حقًّا إنه أكبر علم كمًا وكيفًا.
زينب: دعني أكمل، إذا كنت سألتني إثبات وجود الله أو أين مكانه؟
جاسر: دعيني أجاوب بدلًا عنك، كنت لن أقتنع، ولن أصدق مهما أتيتي بآلاف البراهين.
زينب: دعني أكمل بالله عليك ولا تقاطعني، كل الملحدين لا يقتنعون مهما قدم أي عالم البراهين والأدلة، هو يحب تعجيز من يناقشه غرورًا وكبرًا وليس علمًا، أريد رؤية الله، أريد أن أدعوه؛ فينفذ دعوتي فورًا، أريد أن أقول له انهي الظلم؛ فينهي الظلم، أريد دليل مادي ملموس، ولا يحب

أن يفكر لأنه اختار الغرور والكبر وانعدام القيم والعبثية، ولا معنى لكلمة إنسانية أو حضارة مع انعدام وجود أي قانون؛ فنتيجة للإلحاد أنت حر في أن تقتل ما دام ليس عليك دليل أو تفسق وتشذ، هو إن كان لا يريد أن يقتل؛ لكن يريد أن يفعل كل الموبقات، ويحاول الهروب من فكرة الحساب، حتى لا يحيا في خوف، ورغم ذلك يحيا في خوف، يرى المؤمنين مجموعة من الجهلاء أو الموهومين، وهو أكثر منهم ذكاءًا وعلمًا؛ ليداري نقصه، وضعفه، وعبثية فكره، وضحالته أمام أي مسلم، وغالبًا يسب في أي نقاش، من الصعب أن تجد ملحدًا يكمل حواره بلا سب، أو شتم، أو تقليل ممن يحاوره؛ فهذه الحالة يحاول صنعها لإثبات قوة جوفاء، لأنها جوفاء خاوية بالفعل، أحدهم كان يتبع نظام القاعدة الإرهابي، وحينما صدم به، واكتشف أنه إرهابي اتجه للإلحاد، لأنه متطرف نفسي، التطرف بداخله، وليس في الدين، هو اختار في الدين التطرف، وحينما اكتشف تطرفه ذهب إلى النقيض الآخر التطرف الإلحادي، التطرف بداخله، ولم يبحث عن الوسطية، ويحسب نفسه أعلم العالمين، وبالتأكيد تعرفه هناك موقع شهير باسمه، فهمه الخاطئ، وتطرف نفسه جعلوه متطرفًا حتى على الناس، وحينما ناقشتك حددت بابًا نقاشنا الإسلام وتشريعه وإعجازه وبراعته، وكنت واثقة من حيادتك وعقلانيتك، وأنه سيبهرك بكمال التشريع وإعجازه وستدبر.

جاسر: لكنك لم تحدثيني عن الإعجاز اللغوي والمكاني والزماني في القرآن، وحدثتِني في شذرات قليلة جدًّا عن الإعجاز العلمي في القرآن، رغم أن هناك آلاف الكتب عن الإعجاز العلمي في القرآن، ولم تقولي لي كما يقول المسلمون آتني بعشر سور مفتريات، ولا تحديتِني.

زينب: أنت عالم لا تحتاج لأن أناقشك في كل أمر، يكفي أن تبحث بنفسك وستصل، لأنك أكثر مني علمًا وفهمًا، وما تفهمه بصورة خاطئة ستسألني به، أنت غير كل الملحدين الذين أقرأ لهم أنت عالم بحق، والعالم يجذبه الحوار، والعالم وإن وجد جاهلًا لا يتكبر عليه أو يسفه منه؛ بل يتجنبه -قال الشافعي رحمه الله: لو أني جادلت ألف عالم لغلبتهم، ولو أني جادلت جاهلًا واحدًا لغلبني- أنت عالم لست جاهلًا مثلهم، لا تقتطع الآيات وتبحث في المتون والأسانيد، ولا تكذب؛ بل نقاشك كله في البحث عن المغزى والتطبيق والتجريب والقياس، لست شاذًا أو فاسقًا أو تأخذ الإلحاد موضة أو تمرد، تجدهم يسبون الإسلام، ويقولون دين النكاح ودين الشهوة، ويقولون كلام فاجر، رغم أنهم خرجوا من الإسلام أساسًا من أجل حرية الشذوذ والجنس، ولا أقصد كلهم؛ لكن الغالبية، وهذا تناقض مرضي؛ لكن أنت تريد الحقيقة والحقيقة فقط إن أسلمت سيصبح إسلامك خيرًا على المسلمين، ستكون أفضل رسول لنشر صحيح الدين وتقديم صورة طيبة عن المسلمين، وبذكائك ستستطيع فعل ما لا تستطيع فعله فتاة ضعيفة مثلي؛ لكن لا تغتر إن لم تسلم لن ينقص الإسلام شيئًا.

جاسر: أشكرك على كلامك بشدة، الذي أثر بي؛ لكن أنا غير مقتنع نهائيًّا بالربوبية من الأصل تمامًا.

زينب: أعلم، وأنا خبرتك سابقًا أن جل ما أحلم به أن تصل ببحثك للحقيقة، وليس بكلامي؛ فإسلام شخص محترم وعقلاني محايد مثلك يساوي ألف ملحد مهترئ، وأكرر وإن لم تسلم لن ينقص الإسلام شيئًا نهائيًّا، نحن أكثر من مليار ونصف، وأنت نفسك اعترفت أن هناك علماء في المسلمين كثر.

جاسر: هيا نبدأ شرح البحث الثاني.

علمت زينب أن هناك أمر داخل قلب جاسر؛ كأنه يتغير ببطء؛ لكن التغير زاد الأيام الأخيرة نتاج التراكم، وحينما بدأ في الشرح ركزت معه بكل حواسها حتى انتهي من الشرح واستوعبت تمامًا، وقال نعود لمناقشة تشريعات الإسلام.
زينب: بكل سرور.
جاسر: ما قولك في حد الردة؟
زينب: أجمع عليه العلماء طبقًا لشرع الله، المرتد يستتاب ثلاثة أيام؛ وإن لم يتب يقتل.
جاسر: إذن هذا إكراه على الدين.
زينب: سأشرح لك دون الاستناد إلى أي دليل نقلي.
جاسر: تفضلي.
زينب: في كل الحدود حتى لو تاب المخطئ يقام الحد، إلا حد الردة؛ فإذا تاب المرتد يسقط الحد.
جاسر: هذا إكراه على التوبة.
زينب: أتعلم أن حد الردة هذا من أجمل الحدود في الإسلام، وهو الذي يحافظ على تماسك المجتمع من الوقوع في شقاق وبغضاء وعداوة، ويمسك بزمام الأمور في المجتمع، ويمنع الحرب على الدين كما هي منتشرة الآن.
جاسر: كيف؟
زينب: أنت مرتد مثلًا وتخفى ردتك هل سيأتي أحد ليعلم ما بقلبك ويقيم عليك حد الردة ويقتلك؟
جاسر: لا، لأن لا أحد يعلم بالأساس أني مرتد.
زينب: إذن من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، كل إنسان حر في دينه، وكما قلت لن يعلم أحد بردتك، في مجتمع إسلام، إذن أنت حر تمامًا؛ لكن إن أعلنت ردتك؛ فأنت تعلن الحرب على الإسلام، وأنك تراه دينًا فاسدًا، وتنشر الفتنة في المجتمع تتحول مثل السرطان في الجسد، لا بد من استئصاله حتى يبقى جسد المجتمع سليم.
جاسر: أنا حر، أسلم، أكفر أنتم هكذا تحجرون على حريتي.
زينب: ها أنت ذا كافر، هل حجر عليك شخص في حريتك؛ لكن حينما تعلن عن كفرك، فأنت تعلن عن مرض في الإسلام تستتاب ثلاثة أيام، وتجلس مع العلماء، وتشرح لهم أين المرض الذي تراه، ويشرحون لك الصواب، وما لا تفهمه، وما لا تعلمه بكل الطرق وإن صممت على كفرك تقتل حماية للمجتمع الإسلامي، وبالتأكيد ستقول ربما أسلم ظاهريًّا خشية القتل؛ لكن سيظل بداخل الكفر، سأقول لك أنت حر ما لم تضر، ما دام بداخلك، ما أدرانا بإسلامك هذا يحاسبك الله عليه وما دام أنت لا تنشر جراثيمك الإلحادية في المجتمع.
جاسر: هذه ديكتاتورية، لماذا لا أعلن عن ديني ومكنوناتي؟ هل ستتحكمون بما بداخلي؟
زينب: حينما تعلن كفرك بالإسلام هذه حرب منك على ديننا وأمتنا؛ فلسنا في مجتمع علماني؛ بل مجتمع إسلامي، وواجب عليك الحياة طبقًا لقواعد المجتمع ما دام لا يمس آدميتك.
جاسر: بل آدميتي وحريتي في أن أعلن عن تفكيري.
زينب: ولماذا تريد الإعلان بشدة عن مذهبك وتفكيرك؟ هل تريد نشره في المجتمع الإسلامي وتفتن المسلمين عن دينهم وتدعو لدين جديد؟، إذن تقوض دعائم الأمة الإسلامية، وتحاربها، وتعتدي على ديننا الإسلامي، ووجب علينا حربك.

جاسر: ما هذا التعنت؟ رسولكم لم ينفذ حد الردة على كل مرتد؛ بل عفا عن البعض، وطبقه على البعض، مثلما عفا عن [عبد الله بن أبي سرح]، مما يدل دلالة واضحة على أن حد الردة يطبق حسب الظروف السياسية التي تنفع المسلمين ولا تضرهم.
زينب: ما شاء الله أصبحت عالم دين ومفتي، كلامك يقترب من كلامي لا يختلف عنه كثيرًا، انظر لمواقع الإلحاد ستجد أشد الناس عداوة لنا ولديننا، ويتمنون موتنا حتى [محمد الدرة] يطلقون عليه الإرهابي الصغير، انظر لإهانتهم والعياذ بالله لرسولنا بأقذر السباب، والعياذ بالله الأكثر للذات الإلهية، ووصفنا بأحط وأبشع الصفات، وإعلانهم بصراحة أنهم يتمنوا فناء المسلمين، وإعلانهم أنهم وراء الإسلام حتى ينتهي أو ينتهي المسلمين، تحب أن أفتح لك بعض المواقع لترى بنفسك الآن.
جاسر: أعلم هذه المواقع، وأعلم أنها تحاربكم؛ لكنها لا تمثلني، ولا تمثل كل الملحدين، أنا قلت لكِ سابقًا كل ملحد لا يمثل إلا نفسه، نريد أن نكون أحرارًا، ويكون لنا حزبًا، ونتمثل في المجتمع بمطالبنا.
زينب ضاحكة: إذن أنها حرب على الإسلام، لأن مطالبكم كلها ضد الإسلام، وأنت تعلم هذا تمامًا، والحزب يعبر عن مجموعة متوافقة في الرأي؛ إذن هذا اتحاد ضد لهدم الإسلام.
جاسر: نعم حرب على دينكم وتخلفكم.
زينب: إذن إنها حرب، وهذا ما أردت قوله من البداية.
جاسر: أعتذر، كنت استفزك، وأتلمس حقكم كدين ومجتمع في الحفاظ الدين الإسلامي، واقتنعت بوجهة نظرك؛ لكن ماذا لو أني أعلنت إلحادي، ولم أسع لنشره في وسط المسلمين، وكنت في حالي تمامًا.
زينب: حينما تعلن إلحادك سيأتي لك كثير من شباب المسلمين يسألوك، وربما يحاولون إقناعك بالرجوع للدين الإسلامي، وربما علمهم الإسلامي والعلمي أقل منك، وبدلًا من أن يقنعوك أنت بالإسلام، تقنعهم أنت بالإلحاد خصوصًا مع ضعف العلم الديني وسط المجتمع حاليًا والفهم الخاطئ.
جاسر: لن أقنع أحدًا بالإلحاد أبدًا، ولن أحاول إقناع أحد بالأساس.
زينب: لن يتركوك، حتى من أقرب الأقربين أهلك وأقاربك، وبعلمك الفذ ستؤدي لنشر بذور الإلحاد، وتنتظر البذور اللحظة المناسبة لتتفشى في المجتمع، هي لن تنتصر؛ لكن ستسبب مرضًا.
جاسر: أوعد وعد، وأعطي ضمانًا أني لن أفعل.
زينب: لو كنت تضمن نفسك مائة بالمائة أنك لن تقنع أحدًا بالإلحاد، وأنك راسخ، ومستحيل أن تفعل هذا، هل تضمن غيرك؟ بالطبع مستحيل، وكان من المفترض أن يوضع نصًا شرعيًّا ويستثني جاسر من الحد.
جاسر: أول مرة تنطقي اسمى مجرد بدون يا دكتور أو أستاذي، هذه لحظة تدون في التاريخ.
زينب: يا دكتور لن يكتبوا اسمك زائد لقب في نص شرعي.
جاسر: هل الأئمة الأربعة والشعراوي مجمعين على حد الردة؟
زينب: نعم.
جاسر: هل برأيك الملحد أذكى أم المسلم؟
زينب: المسلم أنقى، الذكاء لا يرتبط بعقيدة.

جاسر: هذه الإجابة للعموم.
زينب: نعم عموم وتغليب، والحالات الشاذة لا تنقص العموم ولا التغليب لأنها شاذة.
جاسر: لماذا تفتخرون حينما يدخل الإسلام شخصية مشهورة مثل [محمد علي كلاي]، أنتم أكثر من مليار ونصف ما حاجتكم لزيادة فرد؟
زينب: نحن في أضعف لحظاتنا تاريخيًّا وحضاريًّا في أمية دينية وعلمية، ورغم هذا الضعف نجد الكثير من المشاهير يدخلون الإسلام رغم كل الكاميرات المسلطة عليهم، ضوء الإسلام هو من جذبهم، ويكونوا قدوة لغيرهم، ما بالك لو عادت لنا حضارتنا وقوتنا وإرادتنا كما نشأ ديننا، بالتأكيد سيدخل الناس في دين الله أفواجًا.
جاسر: أشعر بسؤال على لسانك.
زينب: نعم، لماذا بقت الكنائس والمعابد اليهودية وكنيسة المهد في بيت لحم حتى الآن منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة، كل الكنائس في أماكنها ونسبة غير المسلمين كبيرة جدًّا في الدول الإسلامية، والملحدين يقولون ليل نهار إن المسلمين كانوا يحاربون كل ما هو غير مسلم، ويكرهون الناس على الإسلام؟
جاسر: هذا معناه أن الإسلام والمسلمين حافظوا على هذه الكنائس والمعابد وحرية العبادة وعاملوهم معاملة حسنة وإلا كانت أصبحت بلد دين واحد مثل السعودية وما بقى كنائس ومعابد أثرية.
زينب: هل رأيت جريمة قتل [محمد الدرة] بغض النظر عن دينه؟ هل لم تؤثر هذه المشاهد فيك؟
جاسر: أنا أكره اليهود مثلك وأكثر، لأن ديانتهم عنصرية، وقتلة الأطفال، وأعرف تاريخ جرائمهم، أنا لا أتمنى موت كل المسلمين مثل الملحدين الذين ترينهم على المواقع أنا ضد سفك أي دم بريء؛ بل أشعر أن هذه المواقع ما هي إلا مواقع يهود وبعض الديانات الأخرى الكارهة للإسلام يتخفوا في أسماء عربية ليشوهوا الملحدين العرب.
زينب: لا يا دكتور فيهم ملحدين عرب ومسلمين ومن ديانات أخرى يتمنوا موت المسلمين، وإن كنت لا أنكر أن محركهم يهودي، ويأتمرون بأمره؛ لكن الأجمل أنك أصبحت حيادي مفكر فقط.
جاسر: هذا لا يعني إسلامي، أنا لا أحب هذا الدين.
زينب: أنت حر تمامًا أنا أتكلم عن الحيادية العقلانية بغض النظر عن فكرك.
جاسر: ألا ترين أن الأديان هي سبب الحروب بين البشر.
زينب: ألا ترى العلمانية هي سبب تجويع البشر، وانتشار الدكتاتوريات في العالم الثالث، ليستولوا على مواردهم، ويجوعوهم، كل هذه المجاعات يقوم بها النظام العلماني الرأسمالي، ليكبروا عروشهم، ويمتلكوا أفخم الرفاهية والآخر لا يمتلك رغيف خبز، من الذي جعل الكونغو في حرب أهلية وصدر لهم سلاح أمريكي وأوروبي ليتقاتلوا به ويبيع سلاحه ويستولى على مناجم الألماس، من الذي صنع دكتاتوريات جمهوريات الموز، وكلما قامت هناك ثورة وأدها كي يستولى على مواردهم، من سبب مذابح رواندا بسلاح أمريكي هل هم تجار السلاح المسلمين أم تجار السلاح الأمريكيين؟
من سبب حرب جنوب السودان، ويمول جنوب السودان بالسلاح؛ ليستولي على منابع النفط في الجنوب.
جاسر شعر بالضعف وغير الحوار لسؤال جديد: لماذا رفضتي مناقشة قانون التطور.

زينب: لأنك لا تؤمن بالإسلام.
جاسر: هل تهذي أم جننتِ؟! طبيعي ألا أؤمن بالإسلام ما دام أؤمن بنظرية التطور.
زينب: الإجابة بكل بساطة، اكتشف [داروين] نظرية النشوء والتطور من بعض الحفريات لهياكل العظام لبعض البشر التي كانت تشبه الهيكل العظمي للقردة، فقال إن الإنسان أصله قرد مع أن هذه الحفريات تصدق وتتفق مع القرآن الكريم فيما أخبرنا الله به أنه قد مسخ بعض اليهود الذين قد يكونون أجداد داروين إلى قردة وخنازير، كما هو وارد في القرآن، وبدلًا من أن يكون هذا إثبات إعجاز علمي في القرآن، وأن هذا دليل مادي على مسخ الله لبعض اليهود إلى قردة وخنازير، استحى أن ينصر دين الله الإسلام بإثبات ما جرى لجدوده، ولا يعد هذا من الأمانة العلمية والحيادية، فادعى هذه النظرية التي تم هدمها من كثير من العلماء في وقتها وبعدها، وظل كثير من الملحدين وعلماء الملحدين يحاولون إثباتها بكل الطرق لدرجة أنهم خلقوا بروباجندا تاريخية على إنسان نبراسكا، وقالوا إنه -الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان- حتى فضحهم الكثير من العلماء في هذا التدليس، واعترفوا بأنها بروباجندا خيالية، وحينما عجزوا عن استمراريتها، جاء الملحد الأكبر [دوكينز] ليضيف التطور الجيني بدلًا من التطور النوعي محاولة منه ترميم الكثير من الثغرات في النظرية التي رغم ذلك ظلت تتهدم إلا أن الملحدين تمسكوا بترميم دوكينز لها، ويحاولوا التدليل على واقعيتها إلى الآن، تخيل أنى ناقشتك في هذا الهراء، ستقول إني مغيبة ولا أؤمن بالعلم، ونظل ندور في دائرة مفرغة، لأننا نناقش شيء لزج؛ لكن إذا ناقشتك في بنيان قوي وهو الإسلام؛ فستجد نفسك تقارن البنيان المتهدم بالبنيان القوي دون أن أقترب من البنيان المتهدم نهائيًّا، أنت ستفعل هذا بنفسك وتقارن.
جاسر: هل حاولتِ الكتابة من قبل أو التأليف؟
زينب: نعم أنا أكتب قصصًا قصيرة، لما؟
جاسر: لأنك موهوبة.
زينب: ماذا تقصد؟
جاسر: لا يهم، هل تعلمين أنه هناك خطأ حسابي في آية الميراث؟
-يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كنَّ نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبوية لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث إن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا فريضة من الله إن الله كان عليمًا حكيمًا(١١)-. (النساء)
زينب: بالطبع قرأت القرآن كله، أخرج لي من القرآن عدد ركعات كل صلاة أو كيفية الحج أو الوضوء، ستجد أننا أخذنا الكيفية من السنة التشريع في القرآن والتفسير في السنة، القرآن عموم وشمول، والسنة تفسير وتفصيل، وبالتالي السنة تكمل القرآن، وهذا غباء وعدم فهم للإسلام ممن يجعلها شبهة، قلت لك سابقًا كل من يقرأ آية أو كتاب في الدين يحسب نفسه عالم دين، وللرد على هذه الشبهة بكل بساطة القرآن نص على مقدار الأسهم إلا أنه لم ينص من قريب أو بعيد على أن مجموع هذه الأسهم في كل مسألة يجب أن تساوي الواحد الصحيح، زائد أن لدينا في الإسلام بالنسبة للمواريث -العول والرد- لا يفهم بهما إلا دارس التشريع، وهما متضادين تمامًا ومكملان للقضية جدًّا، واقرأ أحاديث المواريث، وسترى كمال الدين، وأتحداك إن وجدت

قانون في العالم يساوي نصف قانون الشرع الإسلامي في الكمال، واتحدى لأول مرة يا دكتور قانون يساوي نصف القانون الإسلامي في المواريث.
جاسر: إذن هي شبهة لا تستحق، وأنا لم أقتنع بالأساس، إن كان هناك خطأ حسابي والخوارزمي واضع علم الجبر من المسلمين، ولو القرآن مكتوب من البشر لكانوا أصلحوه، أنا قلت هذا في نفسي، كيف يكون القرآن ويكون هناك خطأ مثل هذا؟
زينب: شبهة من مئات الشبهات المبنية على التدليس والكراهية وجهلهم بالدين، إنهم أجهل ما يكون بالدين، وحينما يتكلمون يحاولون أن يتصنعوا أنهم فقهاء في الدين.
جاسر: لماذا تعتبرون اليهود أشد عداوة لكم حتى من الكفار رغم أنهم أهل كتاب؟
زينب: لن أحكى عن مؤامرتهم وقتلهم النبيين بغير حق، أو محاولاتهم تدمير بلاد المسلمين، والتآمر وخلف العهد ونشر العري والفساد وهم يمتلكون معظم مصادر الإعلام في العالم حتى في مصر؛ لكن انظر لكل مؤسسي الإلحاد ونشره ستجدهم من اليهود وغيرهم الكثير هم من يريدون إلحاد الناس وتدميرهم وإشعال الحروب في كل مكان.
من أسس للإلحاد وحاول جعله حقيقة أغلبيتهم يهود: [داروين ونيتشه وماركس]، إنهم أهل إشعال الحروب في كل مكان وتخريب عقول الناس بإعلامهم.
جاسر: سأضطر للانصراف الآن قبل أن يؤذن المغرب، وأُجبر على الصلاة.
زينب وهي تبتسم لهروبه: سأنتظرك المرة القادمة قبل امتحاني الأخير.
جاسر: اتفقنا سلام.
مشى جاسر والتفكير يأخذه لسنة ماضية مرت عليه مع زينب، تقريبًا قضاها في دراسة الإسلام، ومحاولة معرفة تشريعاته وأحكامه والحكمة منها، حتى قرر أن يضع حد لكل هذا الصراع الدائر بداخله؛ لكن أغرب ما شعر به أن تفكيره في زينب يقل، وتفكيره في الدين يشتعل أكثر وأكثر، وقرر أن يفاجئ زينب بمفاجئة في المرة القادمة.
حتى حان موعد اللقاء مع زينب قبل امتحانها الأخير كان في منزل خالها في نفس الميعاد، وجلس مع جدتها حتى تأتي زينب.
وعندما دخلت زينب وجلست بادرها بمفاجئته، أن نقاشه اليوم سيكون الأخير عن الإسلام وأي تناظر بينهم.
زينب: وما السبب؟ جاسر: لم يكن هناك شيء أبغض لقلبي من الإسلام، والآن صرت لا أحبه ولا أكرهه، أصبحت أنظر له بشكل ضبابي، وأخشى أن أقع في حبه، لهذا وددت أن تكون هذه المناظرة الأخيرة؛ لكن لي شرط حينما أسألك عن أمر ما لا تطيلي الشرح، واجعليه مختصرًا قدر الإمكان، وننتقل لما بعده لن أعارضك.
زينب: كما تشاء، وأنا لدي في نهاية المناظرة مفاجئة لك أيضًا.
جاسر: الآن سأبدأ بشرح البحث الأخير حتى لا أقصر في دروسك، وفي النهاية نبدأ النقاش.
زينب: كلي آذان صاغية.
بكل تركيز وحرفية عالم أنهي الشرح في البحث، وبشكل مبسط يجعل زينب تعيه جيدًا؛ ليبدأ في نقاشه النهائي.
جاسر: بعد أن أنهيت الشرح، ووفيت بوعدي إليك السؤال الأول: إذا ذهبتي لدول الغرب وأمريكا وحاولتِ نشر الدين الإسلامي لن يعترضك أحد، وسيقول لك إنك حرة في اعتقادك ونشر

فكرك ما دام لا يتعارض مع حريات الآخرين، بينما لو عكستِ الصورة هنا لن تسمحوا لأي شخص غير مسلم نشر معتقداته أو أفكاره لو تتعارض مع إسلامكم؟
زينب: المقارنة خاطئة، لأن المقارنة هنا بين دين ودين، بينما في الحقيقة هي بين دين وفكر، هم ديانتهم الدولار والمادية والعولمة مجتمع علماني إلحادي لا مقدسات له إلا الماديات تسيطر عليه الشركات المتعددة الجنسيات التي تمتلك اقتصادهم، والدليل الذي ينتقد أحد أسس العلمانية أو التهمة المعلبة معاداة السامية التي ابتدعها [اللوبي] اليهودي بشركاته المادية في الغرب أو حتى من يشكك في محرقة [هتلر] يتم سجنه أو طرده من مراكز الأبحاث ومهاجمته علميًّا، ومثال على ذلك تم سجن من شكك في المحرقة أو هاجم الأسس المادية مثل [دفيد ايرفينغ ٠/٠ وروجيه جارودي]، وقبل هذا وتفصيل قانون التهم المعلبة، كان هناك المكارثية في أمريكا التهمة التي تم اختراعها، وحبس أكثر من مائتي شخص بسببها، وطرد عباقرة كثر مثل: [مارتن لوثر كينج ٠/٠ ألبرت أينشتاين ٠/٠ شارلي شابلن]، وكان لب تهمة المكارثية أن الشيوعية الإلحادية تريد القضاء على الديانة المسيحية، أليست هذه قضايا رأي؟، أليس هذا سجن لشخص لمجرد أن قال رأي يتعارض مع فكرهم؟؛ لكن أخطأت في المقارنة بين دين ودين، لأنهم بلا ديانة، وأصبحت مركزية المنظومة الفكرية عندهم هي المادية الإلحادية.
جاسر: السؤال الثاني: لماذا حروب الإسلام أو الغزوات تعتبرونها مقدسة رغم أنها كانت لردع الأعداء؟
زينب: قبل الإسلام كانت الحروب تقوم لأجل العصبية القبلية في الجزيرة العربية، ولما نزل الإسلام حاربوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رغم أنه كان محبوبًا بينهم قبل الرسالة، إذن حربهم على رسول الله لم تكن حربًا على شخصه؛ بل على الدين ومحاولة منع نشر الدين وانتشاره، لم تكن حروب عرقية كما أبادت أمريكا الهنود الحمر، ولم تكن حروب عنصرية من أجل لون البشرة، ولم تكن من أجل البترول؛ بل كانت من أجل الدفاع عن الدين والدين مقدس إذن الحروب مقدسة.
جاسر: بدلًا من أن تنزل الرسالة على الأنبياء لماذا كانت لا تنزل على كل إنسان رسالته مباشرة دون وسيط؟
زينب: وأين التكليف هنا؟ وإعمال العقل والفتنة، ستصبح الدنيا جنة؛ لكن جنة مملة لأنها أرض بلا أي اختبار وملذة، الجنة في الآخرة دنيا بلا نجاح أو رسوب، مجرد أدوار نقضيها بلا أي اختلاف كلنا متشابهين، ولا أبيض ولا أسود كلنا بنفس الفكر، هل تتخيل دنيا كهذه؟!
جاسر: قلتي لي سابقًا عن البراق ابحث عنه، وإن لم تجده سأكون كاذبة، كيف هذا وكل فقهائكم يقولون إنه من الجنة وليس من الأرض، إذن البينة على من ادعى وأنتم من عليكم إثبات وجوده.
زينب: هل أنت تؤمن بوجود جنة أو نار؟
جاسر: لا.
زينب: كيف أقنعك بوجود شيء أنت تنكره في مكان أنت تنكره؟! كان أسهل علي أن أبين عجز علمك عن اكتشاف الأرض التي نحيا عليها؛ فما بالك بغيبيات إلهية كيف أقنعك بها وأنت لا تؤمن؟، عجزك عن فهم ضعف العلم أمام العلم الإلهي والإعجاز الإلهي يجعلك في حالة تناقض بدليل أن تقريبًا معظم الملحدين يؤمنون بوهم وخرافات غيبية؛ لكن لا يؤمنون بالله رغم كل الشواهد.

جاسر: ماذا؟ نؤمن بوهم وخرافات وغيبيات!
زينب: نعم كثير جدًّا إليك مثال: كثير من العلماء الملحدين قالوا إن مخلوقات فضائية هي من بنت الأهرامات، وهذا وهم وخرافة لأنه لا يوجد دليل واحد على وجود مخلوقات فضائية أصلًا، وهناك علماء قالوا إن من بنى الأهرامات هم سكان قارة أطلانيتطس، رغم أنها وهم وخرافة، ولا يوجد دليل واحد على وجودها سوى ذكرها من فيلسوف واحد هو [أفلاطون]، وأنتم صدقتموه، وخرجت آلاف آلاف الأبحاث تتكلم عن القارة المفقودة رغم وهميتها وخرافتها، لمجرد كلام عارض من كاتب صدقتموه، وتستنكرون علينا لماذا نصدق كلام الله المثبت بالأدلة، وتتحدثون عن قارة وصلت لقمة الحضارة والعلم، لم يصل إليه الإنسان رغم عدم وجود دليل مادي واحد، من منا يؤمن بالوهم والخرافات؟
جاسر: لأن الإنسان فضولي، يشعر بشغف تجاه الأمور التي يشعر أنها خارقة.
زينب: الإنسان عدو ما يجهله، وأنتم تجهلون الدين، وعامة الفضول رائع إذا كان للعلم، ونقمة إن كان فضولًا لهدم شيء صالح لا يفهمه الإنسان.
جاسر: وما رأيك أنت الشخصي في قارة أطلانيتطس؟
لا أؤمن بوجودها لأن ليس عليها دليل؛ لكن أحيانًا نتاج اجتهاد شخصي، وليس تفسير للقرآن، مجرد إحساس عابدة مسلمة، حينما اقرأ هذه الآيات: -والفجر (١) وليال عشر (٢) والشفع والوتر (٣) والليل إذا يسر (٤) هل في ذلك قسم لذي حجر (٥) ألم تر كيف فعل ربك بعاد (٦) إرم ذات العماد (٧) التي لم يخلق مثلها في البلاد (٨) وثمود الذين جابوا الصخر بالواد (٩) وفرعون ذي الأوتاد (١) الذين طغوا في البلاد (١١)- (الفجر)
أجد ربنا اختص في هذه السورة بعد قسمه ثلاث حضارات في رأيي الشخصي هم أقوى ثلاث حضارات على وجه الأرض، وحينما تحدث عن أرم عاصمة قوم عاد، قال التي لم يخلق مثلها في البلاد أسلوب جزم بأن ليس لها مثيل، فأعتقد في رأيي أنها أطلانتطيس الأقوى، ثم ثمود التي تليها في القوة ثم ترك أقلهم قوة وتقدم وهي الحضارة الفرعونية، وهي رغم أنهم أقلهم قوى إلا أنها شاهدة على ضعف علمنا وعجزنا عن فك طلاسمها وأسرارها ليبين لنا مهما بلغنا من علم فنحن لا شيء، ورغم أننا فككنا شفرات لغتهم عجزنا عن فهم إعجازهم في الفلك والهندسة والطب؛ وهى مجالات التقدم الأولى في أي حضارة مع الفن الإبداعي، وفنهم يشهد على عظمتهم.
جاسر: إذا كان اجتهادك صحيح فهذا إعجاز علمي يسبق كل الموجود على الكرة الأرضية؛ لكن أنتِ قولتي رأيي شخصي لكن سأفاجئك حينما أقول لك وأنا اقرأ هذه الآيات؛ فسرت بنفس تفسيرك، لماذا لا يترك باب الاجتهاد مفتوحًا في القرآن.
زينب: الاجتهاد له قواعده وعلماءه وليس من حق كل إنسان أن يضع اجتهاده أو لمساته في القرآن ثم إننا لسنا أهل متخصصين؛ لكن لا أنكر أن هناك بعض التقيد والتشدد؛ فأنت تعلم أن في كل دين لا بد أن يوجد مجموعة متطرفين يكرهون التجديد بشدة.
جاسر: أتعلمين أن هناك مئات الشبهات التي تثار في دينكم لو أخذت في سردها لن تكفينا مجلدات؟
زينب: إليك هذه الآية -هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)-. (آل عمران)

في هذه الآية تجد أن الله - عز وجل - أخبرنا أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم؛ فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه فقد اهتدى، ومن عكس انعكس، وقد اختلف العلماء في المحكم والمتشابه، فما بالك بالناس الذين ليس لديهم علم أو فهم للغة العربية بمشتقاتها والتفسير، وما بالك بالمتربصين بالدين ويعادونه وفي قلوبهم زيغ ومرض تجاه الإسلام وحذر الله منهم، ورغم عدم علمهم يلوون عنق المعاني ويفسرون كيف شاءوا؟ أو يقتطعوا تفسيرات بعض العلماء ويضعونها كحقيقة مطلقة، ويقولوا هنا شبهات، ويظلون هكذا، يدورون في حلقة مفرغة، يثيرون كل شبهة عن جهل، وكأنهم أعلم الناس، ومن يقول لهم إنها ليست شبهة أنتم ليس لديكم علم للفهم يهاجمون ويتهمون الكل بالجهل، وأنهم أعلم الناس وشبهاتهم مردود عليها والله حذر منهم من قبل أن يثيروا مئات الشبهات؛ فهو أعلم بخلقه الصالح والطالح منهم، وهم يفعلون ما حذر القرآن منه، ووقعوا فيه كأنهم يثبتون صدق القرآن باتباعهم الشبهات، وكما قلت لو أفندنا لكل شبهة حديثًا لاحتجنا مجلدات للرد على المرضى والمهوسين، ولهذا في كل حوارنا استشهدت بالدليل العقلي وليس النقلي، لأثبت لك أنهم متربصين حاقدين على الإسلام بالفطرة، وأتممت واجبي تجاه ديني، رغم أنه كامل مكمل، وأتركك تكمل بنفسك ستجد الكمال وأنت تعلم هذا.

جاسر: لا أفهمك؟

زينب: هذا سيكون آخر لقاء بيننا، ولن يكون لي معك كلام مرة أخرى؛ فأنا ستتم خطبتي بعد الامتحانات.

جاسر: خطبتك هل هذه محاولة لاستفزازي للدخول إلى الإسلام؟!

زينب: أقسم بالله لا أكذب، ستتم خطبتي بعد الامتحانات لابن عمي، وهو مثلي الأعلى وحلمي منذ طفولتي، كان ونعم الإنسان الصالح الذي يقربني من الله درجة.

جاسر: أنتِ كاذبة، أنتِ تحبينني.

زينب: نعم أحببتك للحظات؛ لكن أحب ديني أكثر ولا تساوي أنت شيء أمام ديني وأمام إنسان يخشى الله، ويأخذ بيدي للجنة، وحتى لو أسلمت أنت لن أتزوجك، أنا كنت أحلم بهذا الشاب الصالح طوال حياتي، ولما أتيت في حياتي، وانشغلت معك، وشعرت أنه لا يشعر بما أحمله بداخلي تجاهه ركزت كل جهودي وطاقتي لأنفع بك الإسلام، وفجأة وجدته يطرق بابي يريدني زوجة على سنة الله ورسوله وأن نكمل ديننا ودنيانا، اكتشفت أن حبي لك وهم، هو كان مجرد انبهار، وكيف حتى أتعلق بغير مسلم ولم أعلق قلبي بك أبدًا؟ كنت أراك دومًا سراب هشيم تذروه الرياح، وحاولت أن أصلحك لله وليس لنفسي وبذلت كل طاقتي بإخلاص وكنت أتمنى أن تكن لي أخ في الإسلام ودعوت الله كثيرًا ليهديك، واليوم شعرت أني أتممت رسالتي، وأني لا بد أن أصون الإنسان هذا بكل كياني، حتى أمنع نفسي عن الكلمة مع غيره، وأقول لك اليوم وداعًا، ولو حاولت التعرض لي كما كان يحدث في البداية سأترك لك الجامعة تمامًا.

• جاسر: لا داع لترك الجامعة، أنا من سيتركها.

خرج جاسر من بيتها وهو يشعر بالهزيمة والانكسار وانعدام قيمة الحياة لا يدري ما الهدف من هذه الحياة التي تجعله يحلم ويشعر بإنسانيته وطموحه ونجاحه، حتى الرغبة في البكاء لا تنبت

بداخله كأنه تحجر، أو حتى المشي للخروج من الضغوط؛ بل ذهب إلى بيته مباشرة ليجد والديه جالسين وقبل أن يتحدثا سألهما: هل أنتما مسلمين؟
نظر الوالدان لبعضهما وهما في قمة الاستغراب كأنهم يقولون له لم نسمعك.
أعاد جاسر السؤال بلغة أكثر صرامة: هل أنتما مسلمان أجيبا بنعم أم بلا.
الوالد نعم مسلمين يا بني.
جاسر: إذن اكفروا لأني كافر بما تؤمنان به.
صُعق الوالدان مما يقول جاسر، وحاولا تهدئته والدموع تتقافز من عيون أمه بلا انقطاع.
جاسر وهو يصرخ في حالة هياج عصبي شديد، غريبة تبكي الآن وأنا لم أراكي في مرة تصلين أبدًا، وأرسلتِني لأخيكِ الكافر وأنتِ تعلمي أنه كافر ليربيني، وحتى لو لم يكن كافر كنت سأكفر عن اقتناع، أمة تخلف وجهل وخرافات، ما فائدتكم أنتم للإسلام لا شيء، فلماذا تبكون على كفري أنا لم أجدكم تصلون أو حتى تقرأون قرآنكم الذي أحفظه أكثر منكم، تبكون على كفري بالتخلف، وإن كان صواباً فأنتم عالة عليه.
حاول والده أن يتكلم.
فقاطعه جاسر لا تتكلم لا أريد أن أسمع لأحدكما صوتًا، هل سألتم نفسكم في يوم ما حالتي وما حال عقلي وفكري؟
أصبحت مهزوز مهزوم عقلي يضمحل، لماذا ولدتِني مصريًّا أصلًا؟ ولماذا مسلم؟ حاولت أمه الاقتراب منه واحتضانه وتهدئته دفعها بقوة، صدمت بالكرسي وشجت رأسها وانفجر الدم من أنفها، حينما رأى جاسر الدم سقط مغشيًّا عليه.
حينما أفاق في المستشفى وجد أبواه بجواره، وأمه تنظر له ورأسها مربوط بضمادة وقلبها ينفطر، حاول جاسر أن يتكلم لم يستطع الكلام، حاول أن يحرك لسانه لم يقدر، حاول أن يفهم ما يقولون لم يستطع يسمعهم؛ لكن لا يفهم هناك تشويش شديد في عقله لا يستطيع الفهم، رغم أن بداخله يشعر أنه يفهمهم جيدًا، شعر أنه صورة جامدة فقدت الروح، ظل في هذه الحالة المرضية أسبوع حتى قرر والديه سفره إلى أمريكا، ليتعالج من هذه الحالة وأمه ترافقه، وتم التشخيص كما في مصر، صدمة عصبية شديدة أفقدته القدرة على الكلام أو الاتزان، وهناك ظل ساكنًا في غرفته كالطفل الصغير يأخذ العلاج وينام، وقليلًا يخرجوه ليتمشى في حديقة المستشفى، ورغم أنه يشعر بكل ما حوله تمامًا؛ لكنه ظل لا يستطيع الكلام؛ حتى لم يحاول الكتابة أو يمسك قلمًا وخاله وأمه يتبادلان الجلوس بجواره.
تكلمت أمه مع خاله: أنت من دمرت شبابه، وأطحت به بأفكارك المجنونة التي كانت سبب هروبك من مصر، تطرفك ورفضك للواقع ضيعك، وضيع ابنى لن أسامحك أبدًا.
خاله: لا تظلميني وترمي العبء على كاهلي، لتريحي ضميرك، أنا أحببت جاسر أكثر من ابني، وأنتِ لم تصنع شيء له سوى إنجابه، هل حينما كان يعود لمصر كنتِ تحاوريه أو تحاولي تعليمه شيء؟! كنتِ متفرغة لاجتماعات جمعيتك وحفلات الروتاري والواجهة الاجتماعية، أنا لا أعلم لماذا يعشقك جاسر هذا العشق؛ لدرجة أنه ضحى بالوصول للقمة من أجلك، أنتِ من أدخلتِه في هذا المرض.
أمه: إذن هي غلطتي أن جعلتك أنت من تربيه لتفسده.
خاله: لا داعي لتبادل الاتهامات، احكي لي عن حياته قبل الحادثة بالتفاصيل.

أمه: لا أعرف أي شيء عن حياته، سوى أنه قام بتصرف غريب وشرب خمرًا بصورة بشعة، وتم نقله إلى المستشفى، والدكتور قال إن هذه المرة الأولى له.
خاله: فعلًا، جاسر لم يشرب الخمر مطلقًا.
أمه: لا أدري لماذا؟، لكنه ظل في حالة غريبة لا ندري ما به.
خاله: أريدك أن تعودي لمصر، وتذهبي لغرفته، وتبحثي في كتبه وأبحاثه وأوراقه وأي شيء مكتوب بخط يده آتني به.
سافرت الأم إلى مصر لتقوم بالمهمة، وعادت بعد ثلاثة أيام وهي تحمل خيط الإنقاذ، مذكرات جاسر، وفاجأت خاله بما وجدت، وأعطته المذكرات، وأخذها ليذهب إلى منزله، وينقطع عن زيارة أخته، كانت هي التي تأتي لزيارته وتسأله متى يأتي للمستشفى؟، يقول لها ليس الآن، حتى مرت ستة أشهر، وهو لم يزر جاسر مرة، حتى اتصل بها، وقال لها إنه قادم إلى المستشفى، ولا يريد أن تكون موجودة حينما يحاور جاسر.
حينما دخل خاله الغرفة سحب كرسي وجلس مقابلًا لجاسر تمامًا، وعينه مثبتة على عين جاسر، وقال: أعلم لماذا أنت في هذه الحالة المرضية، ليس من أجل الحب؛ بل لأنك في أقوى صراع نفسي لا تحتمله النفس البشرية الضعيفة المشتتة، القوة لا تعني الذكاء، القوة تعني التحمل والمرونة والرضا، الصراع الذي بداخلك جعلك في حالة تدمير ذاتي لنفسك، لا تعرف هويتك صراع أكبر من صراع الحياة والموت، إنه صراع الكينونة من أكون ولماذا أكون؟!، وللأسف أنا أحد أسباب هذا المرض، قرأت كل حكايتك مع زينب في مذكراتك، وأنا اقرأ بداخلها كل تفاصيل عقلك، ونفسك، وصراعك، وكل مناظرة، وإحساسك وأنت تقف أمام كل حكمة للتشريع مشتت تشعر أحيانًا بالعجز، أو أنك تفاجأت بعالم آخر، زينب جعلتك تصل بالنقاش إلى تهاوي أفكارك من فكرة الصدفة والعبثية وانتهاء الحياة إلى لا شيء، إلى أن هذا غير معقول ضد المنطق، تعمدت ألا تناقشك في ما تقتنع به؛ بل ناقشتك فيما تملك، دينها، وكانت تثق أنها ستريك إياه كما لم تره من قبل، لأني للأسف خدرتك عن الحقيقة، ونقلت لك نظرتي، وأنت لثقتك بي اعتبرتها حقيقة، ولم تكن نظرتك بنفسك، لأنك بالأساس لم تدرس الدين الإسلامي إلا عابرًا، إنسان بعبقريتك بالتأكيد لو كان درس الإسلام بصورة صحيحة ما كان كره هذا الدين، أنا حاولت أن أريك أسوأ ما به من تشويه صبغناه نحن عليه، وقلنا هذا الإسلام، تعمدت أن أريك أسوأ نماذج المسلمين، ليكونوا إمام عينيك أسوأ ممثل للدين، قارنت بين حضارة وحضارة، رغم أنك لو قارنت ستجد أن القانون في الغرب وضعي وفي الشرق وضعي؛ لكن الفرق في التطبيق، القانون واحد ورغم ذلك اختلاف رهيب بين الحضارتين واحدة متقدمة جدًّا وواحدة متخلفة جدًّا، هزتني كلمات زينب حينما قالت لك: أؤمن بحتمية تطبيق الشريعة الإسلامية مع نظام صالح، فعلًا البلاد العربية في حاجة لنظم صالحة، وليست الحاجة لقوانين، ليعودوا للريادة والحضارة، عليهم أن يتوقفوا عن فكرة انتظار بطل كل خمسمائة عام ينهض بهم مرة؛ ثم يموت ويبكون عليه وينتظرون خليفته، وهذا ما فعله رسول الله معهم زرع نظام صالح جعلهم متساوون، والحقوق للجميع بالعدل والواجبات على الجميع بالعدل، أسس البناء الصالح.
ولأول مرة يتكلم جاسر من لحظة مرضه؛ وكأنه يستفيق من نومة أهل الكهف: تقول رسول الله!
خاله: نعم يا ولدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كل ما قرأته في مذكراتك وكل نقاش مع زينب أيقظ قلبي وضميري، الذي كنت أحسبه مات، ونزع الأكنة التي ترسبت فوقه من المنكرات

والفواحش، أنا حافظ للقرآن كله يا جاسر؛ لكن كنت حافظ كالببغاء، أردد دون فهم ووعي، وقيمت الإسلام بحال المسلمين؛ لكن استيقظت الحمد لله الذي أحياني حتى هداني، استوقفتني جملًا عدة قالتها زينب جعلتني أراجع نفسي.
الأولى: العالم الملحد لو أكمل بحثه للنهاية لوصل لليقين والإيمان.
الثانية: كل ملحد لا يفهم اللغة العربية ولا قواعدها بالأساس، ويأتي ليجعل نفسه من أكبر مفسري القرآن، ويفسر كيف شاء، ويقتطع المعنى، ويلجأ للشاذ من الأمور والمعاني لتضخيم كلامه.
الثالثة: جل ما أحلم به، أن تواصل بحثك بنفسك بالحيادية والعقل، وتتخلى عن وهم التحكم والغرور.
هنا انتفض قلبي، وقررت أن أتخلى عن الوهم والغرور وحب التحكم، وأبحث عن الحقيقة بحيادية وعقلانية، واقرأ أكثر، وأتعلم أكثر، تركت الكتب الغريبة التي كنت أعتبرها تعرف الإسلام، واقرأ في كتب التراث وجواهرها، زُرت متاحف أوروبا وأمريكا لأبحث عن الآثار التي تركتها الحضارة الإسلامية، وجدت جل ما تركته الحضارة الإسلامية مخطوطات نادرة تدل على علم رفيع، هذا غير ما يخفيه الغرب، ولا يظهره لكي يُخفي إنجازات المسلمين والعرب، وقد سرقوا آثارهم بعد احتلالهم في خسة ونذالة وسرقة لحضارة الغير، ذهبت إلى إسبانيا، ورأيت عظمة الحضارة الإسلامية في العمارة والفن، ولم أجد مسلمين من أصل إسباني إلا من أسلم، لا توجد عائلات إسلامية متأصلة أي إنهم حينما قضوا على الأندلس أبادوا المسلمين، وجدتني لأول مرة محايدًا، وأكمل بحثي بنفسي؛ حتى وصلت إلى الحقيقة، لاكتشف أني لست نقيًّا ومغرورًا جدًّا، واجهتني مذكراتك بحقيقتي، وبعدما بدأت في العودة للإسلام اكتشفت أني كنت أغير من رسول الله وأحسده على مكانته، ولا أحبه أمقت هذا الحب والنقاء، الذي يصبغه عليه المسلمون، وبالصدفة وقع في يدي كتاب بسيط وسلسة -الرحيق المختوم- للشيخ المباركفوري، وجدتني أمام قصة كفاح رجل ضحى بنفسه وبسعادته، وتحمل ما لا يطيقه بشر أبدًا لأجل إسعاد أمته، لا يستطيع أحد منا تحمل واحد على مليون مما تحمل، وإسعاد أمته كما فعل، وبناء أعظم حضارة، أسعد أمته قولًا وفعلًا، ليس بتاجر كلمات مثلنا، لم نستطع نحن المثقفين من النخبة والتيار الإسلامي في مصر إسعاد الناس ولو بشذرة، وتركنا النظام يهرس كيان المواطن؛ بل وتحالفنا ضده أيضًا، ليضعف المواطن وتضعف البلد ويضعف حال الدين في بلادنا، تاجرنا بآلامهم وضعفهم وفقرهم، عيرناهم بالجهل، ونحن من جهلناهم، عيرناهم بالفقر، ونحن من أفقرناهم، عيرناهم بالضعف، ونحن من أضعفناهم، عيرناهم بالعبودية، ونحن من استعبدناهم.
ألحدت سابقًا بسبب نظرتي للمسلمين، وأنهم قوم جهل وتخلف وخرافة، وأسلمت الآن لأكفر عن خطايا، وأحاول أن أسعدهم واقتدى برسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم)، وسأعود لمصر رغم أني أعلم أنهم لن يعطونني الفرصة، وسيقتلونني.
جاسر يتكلم بكل اتزان وهدوء: من يقتلك؟!.
خاله: من قتلوا كل العلماء الذين حاولوا النهوض بهذه الأمة.
جاسر: لا أفهم!
خاله: هل تعتقد أن أمريكا تستضيفني أنا وأمثالي، وإنجلترا تستضيف سلمان رشدي صاحب كتاب آيات شيطانية وأمثاله، وكل بلد أوروبي تستضيف واحدًا ممن يطعنون في الإسلام، لأنها تحمي الحرية كما يدعون، لو كانوا يحمون الحرية لفتحوا أبوابهم لآلاف المعتقلين من المسلمين في

قضايا تافهة، لو كانوا يحمون الحرية ما كانوا أيدوا الأنظمة التي تقتل وتسفك الدماء، أنهم يؤيدون أي ثورة تحدث حتى يضمنوا تخلفنا المستمر، يشجعوننا لنحارب ديننا ونكون حجة على المسلمين ومستشرقيهم يجعلوننا مراجع لكتبهم، التي تهاجم الإسلام والادعاء بأن المسلمين المتفتحين يكرهون الإسلام، أؤمنك أمانة قبل أن يقتلونني، سجل شهادة التوحيد على لساني، وأوصل هذه الرسالة لكل المسلمين، التزموا بدينكم حق الالتزام هو أغلى ما تملكون، عرضكم وعزكم، دون تشدد أو تهاون سيعود المجد لكم، إن فرطتم به ستظلون في حالة رخص؛ وبلا عرض، والدين بدون علم أبتر.

جاسر: كيف؟ أنت قلت لي إن الحضارة تحتاج لعلم، والإسلام يدعو للجهل والخرافات، من أين يأتي التقدم؟!

خاله: كفى تهكمًا أخطأت؛ لكن أيضًا هم مخطئون، هل هم ملتزمون؟، مساجدهم خاوية، ألسنتهم فاشية، أخلاقهم قاسية، لا تلومني بمفردي أنا أحد المخطئين؛ لكن حان وقت الإصلاح بأن نعود بهم للمساجد، نعينهم وننتقدهم للخطأ أيضًا.

جاسر: غريبة، أشعر أني أكلم زينب.

خاله: لن يشفيك من هذا الضيق وليس المرض، لأن ليس بك مرض إلا هذا، وأخرج مصحف صغير من جيبه، ووضعه بجوار جاسر.

مسك جاسر بالمصحف وألقاه على الأرض، انحنى خاله بسرعة والتقطه، ووضعه بين عينيه وقبله، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ودعا لجاسر بالهداية، ووضع المصحف في جانب بعيد عن جاسر، وقال له: حينما تهدأ ألجأ إلى المصحف، واقرأ بتدبر، وستشفى من الضيق بإذن الله.

بقى جاسر بمفرده يومان، وهو لا يتحرك؛ رغم أنه عاد لسانه ينطق بطلاقة، حتى مر به خاطر وذكريات؛ فلجأ للمصحف وأمسك به، وأخذ يقرأ، والأغرب أنه توضأ قبل أن يقرأ؛ كأنه صار يشعر بلذة الوضوء، حتى فاجأته آية جعلته يهتز، وظل لمدة أسبوع في حالة تدبر لها، حتى أذن له الطبيب بالخروج من المستشفى لاكتمال شفاءه.

توقف الشيخ عاصم عن الحكي، وقال للشباب انتهت القصة، وهيا للصلاة وألقاكم بعد الغد في درس جديد.

نظر الشباب لشيخهم وهم غير مصدقين أن تكون هذه النهاية، كيف تنتهي لهذا الحد؟!.

حتى نطق أكبرهم: كيف تنتهي هكذا؟! ماذا حل له بعد ذلك؟

الشيخ عاصم: انتهت القصة عند هذا الحد، أما لو تشغلك النهاية بشدة انتظر يوم القيامة، واسأل الله - عز وجل - عما حل بجاسر بعد ذلك، وهيا للصلاة حتى لا نؤخر الناس.

ذهبوا للصلاة وهم غير مصدقين، عقولهم غير قادرة على الاستيعاب، وبعد انتهاء الصلاة خرج الشيخ عاصم، والغريب لم يوصلوه كالعادة؛ كأن ذهنهم مشتت، لحقه الشاب الذي رأى اللوحة، وقال له: لماذا لم تخبرهم يا شيخنا بالنهاية؟

الشيخ عاصم: اصبر وستتعلم.

وصل الشيخ لمنزله، وحينما فتحت زوجته قال: الله يا زينب رائحة المحشي خطفتني.

زينب ضاحكة: من يراك متلهف هكذا، يشعر أنك ستأكل كل ما في الأواني رغم أنك لا تكمل نصف طبقك!

الشيخ عاصم: أقل الزاد يكفي بنفس راضية، جوعوا تصحوا.

زينب: أشعر أحيانًا أن الإسلام يأمر الناس بالفقر؟
الشيخ عاصم: -الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)-. (البقرة)
تتخيلي أن الله - عز وجل - يقول إن الفقر أحد وعود الشيطان، والفضل والسعة من الله، كيف يحث الإسلام إذن على الفقر؟! بل يطلب منهم مواجهته والقضاء عليه؛ بل رسول الله كان يستعيذ من الكفر والفقر، وجعلهم في مرتبتين متقاربتين، وأحيانًا الفقر يؤدي للكفر مع ضعاف النفوس؛ لكن ضعاف النفوس من شيوخ السلطان وأعوان الظلمة كانوا يحدثون الناس عن فضائل الفقر، وأن الفقراء يدخلون الجنة ليأكلوا أموالهم بالباطل، ويرضى الناس بهذا لأن هذه قناعة، والفقر حشمة كما يقولون بالمثل المصري، وهذا جعل الكثير من المستشرقين يقولون إن الدين أفيون الشعوب، ويخدر الناس عن حقوقها؛ لكن هذا كذب، ولا يوجد جائع في بلاد المسلمين إلا إذا كان هناك ظالم أكل قوته عدوانًا وظلمًا؛ لكن المقصود بجوعوا تصحّوا ألا نتخم بالطعام، ونريح المعدة، والبدن من عناء الهضم للكثير مما لا يفيد، لأن لقيمات بسيطة تقيم صلب الإنسان ويصح جسده؛ إذن النصيحة لدوام الصحة والزهد، والزهد يعني أني أملك وأزهد فيما أملك، أما حينما أزهد وأنا لا أملك، هذا يعني استسلام، وهناك فرق بين الاستسلام والرضا، الاستسلام يعني اليأس، وبقاء الوضع على ما هو عليه، أما الرضا يعني أن أرضى بما هو قائم مع السعي لتغييره بالحلال، والعمل الجاد، ومقاومة الظروف، ومقاومة الظلم، مع الشكر لله دائمًا بقناعة على ما هو كائن وما سيكون.
زينب: ما شاء الله عليك يا حبيبي، قل إذن ما هذا الذي بداخل الكيس من لحظة أن دخلت وأنت تحاول أن تخفيه.
الشيخ عاصم: أغمضي عيناكِ أولًا.
زينب: حاضر.
قام الشيخ عاصم وألبس زوجته عقد من الفل، وطبع على جبينها قبلة، وقال لها: سامحيني لم استطع في عيد ميلادك أن آتيكِ بهدية تليق بكي؛ لكن أعلم حبك للفل؛ فظللت عاكف لمدة ثلاثة أيام على صنع عقد من الفل، وأشكله بحروف اسمك، كل سنة وأنتِ حبيبتي.
زينب: هذه أجمل هدية رأيتها في حياتي، وهناك هدية أجمل هي أنت أهداك الله لي زوجًا طيبًا سمحًا رقيق المعشر، تأخذ بيدي للجنة، هل يمكن أن أتمنى أكثر من هذا؟
الشيخ عاصم: سنظل نحكي وتتركين المحشي يحترق على النار كالعادة.
جرت زينب مسرعة تجاه المطبخ، والشيخ عاصم توجه إلى غرفة والدته، وأخذ يطرق الباب، ولم تجبه؛ فدخل وهو مضطرب ليجد أمه تصلي وهي جالسه على السرير؛ فانتظر حتى انتهائها من صلاتها، وقال: تقبل الله يا ست الحبايب.
أمه: منا ومنكم يا ولدي.
الشيخ عاصم: سامحيني يا أمي تأخرت عنك قليلًا؛ لكن عيد ميلاد زينب اليوم؛ فأحببت أن أسعدها.
أمه: أتعلم ماذا كانت صلاتي؟! كانت صلاة شكر لله على نعمه، ونعمة رزقك بالزوجة الصالحة والذرية الصالحة، وشكر لله على أن يكون ملاك مثلك هو ابني.
أحمر وجه الشيخ عاصم، وقبل أن يتكلم قاطعته أمه أعرف أنك تخجل مثل الأطفال، دعنا من هذا وقل لي، هل أكملت لهم قصة الشاب الملحد؟

الشيخ عاصم: نعم يا أمي، وتوقفت عندما دخل خال جاسر يعلن لجاسر أنه أسلم.
أمه: الله يرحمه، ولماذا توقفت لن تطيق نفسهم هذا الاختبار، وربما تغضب من ردة فعلهم.
الشيخ عاصم: إذن يحتاجون لإعادة تعليم جديد، أنا أرى فيهم بذرة العلم والتنوير، ونشر صحيح الدين في ربوع الأمة الإسلامية، إعادة تأهيل المعلم أهم من العلم ذاته؛ فما بالك إذا كان من ورثة الأنبياء كيف يجب أن يكون؟
أمه: ربنا معاك ولا يضيع تعبك، ويجعلهم جنودًا للإسلام؛ لكن تقبل ردود أفعالهم الاختبار صعب؟
الشيخ عاصم: ابتلاء الدنيا أصعب، وأستأذنك يا أمي أن أذهب للأطفال، وآتي بهم لنأكل سويًّا.
ذهب الشيخ عاصم لحجرة أطفاله ليجد طفليه مريم وعمر كل واحد منهم ممسك بالمصحف، يحفظ الآيات المقررة عليه، بادرهم الشيخ عاصم بالسلام، وقال لهم: أنا مخاصمكم.
ردا السلام، وقالت مريم: لماذا يا أبي؟ هل قمنا بتصرف يغضبك؟
الشيخ عاصم: كيف أدخل المنزل ولا أراكم تتقافزون حولي مثل كل مرة.
مريم: الأسبوع الماضي يا أبي حينما كنا نذاكر ونكتب الواجب، أنت وجدتنا لم ننهض للصلاة غضبت منا، وقلت لنا:
لا شيء يشغلكم أبدًا عن الصلاة؛ حتى لو أمكم أو أبيكم، لا خير في عمل يلهي عن الصلاة أو العبادة، وأنت الآن أتيت وقت الحفظ والعبادة؛ ففضلنا الله عليك كما أمرتنا ونصحتنا.
الشيخ عاصم ضاحكًا: مشكلة أمة، الحفظ والترديد دون الفهم والتطبيق.
مريم: لم أفهم يا أبي؟
الشيخ عاصم: هذا كلام أكبر من سنك؛ لكن سأحاول أن أفهمك ببساطة، أي إننا نحفظ ما نقرأ، ونردده دون وعي أو تدبير، والمرونة التي يبديها النص؛ فنكون متجمدين حافظين للنص ننفذه بجمود، أما الفهم والتطبيق أي إننا نفهم ما قرأنا، ونطبقه في حالات مختلفة بشكل مختلف؛ لكن التطبيق هو التطبيق؛ لكن اختلف شكل التطبيق باختلاف الحالة، ولأشرحها لكم ببساطة تناسب طفولتكم سأحكي لكم قصة.
فرح الطفلين وقالا: احكي يا أبي.
الشيخ عاصم: كان يا ما كان في سالف العصر والأوان وما يحلى الكلام إلا بذكر النبي (عليه الصلاة والسلام).
الطفلان: عليه الصلاة والسلام.
الشيخ عاصم: كان هناك رجل عابد صالح قبل رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) بآلاف السنيين، كان اسمه جريج، كان هذا الرجل له بيت صغير، لا يخرج منه أبدًا، منقطع للصلاة والصوم والعبادة، وكانت كلما أتت أمه تناديه وهو يصلي، يقول أمي أم الصلاة؛ فيختار الصلاة، وظل على هذه الحال أمه تأتي لتناديه لحاجة لها، ولا يرد عليها ويفضل الصلاة حتى غضبت؛ فدعت ربها أن ينزل غضبه على جريج، واستجاب الله دعائها، بعد فترة جاءت امرأة سيئة، وادعت عليه كذبًا أنه فعل شيء سيء، وأنه منافق وليس عابد؛ فجاء الناس كسروا بيته وعاقبوه، لولا أنه دعا الله أن يظهر براءته؛ فاستجاب دعائه وأظهر براءته؛ فهمتم؟
مريم: لا أفهم يا أبي، هو رجل صالح وعاقبه الله، وجعل الناس يعاقبوه، ولماذا أمه غاضبة منه ما دام يقوم بالعبادة؟، وهل معنى هذا أن الأفضل أن أترك الصلاة والعمل الصالح حينما أرى أبي أو أمي حتى يأذنا لي بالعبادة؟

الشيخ عاصم: لا تتركي الصلاة لأي مخلوق؛ حتى لو والديكي؛ لكن سأفهمك مغزى القصة ببساطة، لأن الله جعل الإسلام دين فهم وبساطة؛ ثم نطبق، وإذا صادفتنا نقطة صعبة أكبر من علمنا نسأل من هو أكبر منا علمًا، ونطبقها حتى يزداد علمنا ونفهمها تمامًا؛ لكن لو لم نطبق نصبح مذنبين، أما في هذه القصة ثلاثة دروس:

الأول: أن طاعة الوالدين مثلها مثل الصلاة عبادة، وفرض علينا أن نطيعهما ما دام لا يطلبا منا أبوانا عمل يغضب الله.

الثاني: أن الله خلقنا لكي نكون خلفاء له في الأرض، أي نعلي اسم الله، وننصر دينه بالعبادة والعمل الصالح ونعمر الأرض، كيف نعمر الأرض ونبر أهلنا وننشر الحب لو كلنا مكثنا في المساجد طوال اليوم؟ من يزرع ويصطاد لنا لنأكل؟!

من يصنع لنا ويبني؟! من يبتكر لنا علم وقوة لنتصدى لمن يحاربون الإسلام ويريدون قتل المسلمين في فلسطين وبورما وسوريا؟! إذن لا بد من العبادة والعلم والعمل، إذا ارتكنا للعبادة فقط نصبح أمة ضعيفة، وإذا ارتكنا للعلم الدنيوي فقط وتركنا العلم الديني نصبح أمة فاشلة، والأهم لا إعمار في الأرض إلا بالحب، لا بد أن تحبي أبويكِ وتطيعيهما، ومعلميكِ وزملائك وكل شيء حتى تعلو مكانتنا.

الدرس الثالث يا صغيرتي: الفهم، فهم حكمة العبادة ورحمتها مثلًا لو أنتِ توضأتِ، وستصلي العصر، ونادتك أمك لأمر ما، استأذني منها للصلاة أولًا حتى لا يضيع وقت الصلاة؛ لكن إن كانت تريدك في أمر مهم جدًّا؛ كأن تناوليها الدواء أو كأس ماء تناوليها؛ ثم تذهبي للصلاة، ولو مريضة تطبيبيها؛ ثم تستأذنيها للصلاة، الفهم لأحكام الشريعة وكيفية تطبيقها أفضل من الحفظ، وما يعجزك عن فهمه انتظري حتى تتعلميه أو يعلمك من هو أكبر منك علمًا؛ بشرط الإيمان به وعدم التوقف عن التطبيق وكشف الله بصرك بنور العلم.

مريم: فهمت الآن يا أبي، ألا أردد وأحفظ فقط؛ بل لا بد من الفهم وتطبيق ما فهمته، وما لم أفهمه الآن أسأل من هو أكبر مني علمًا ليفهمني إياه، وإن لم أفهم منه أتعلم أكثر لأفهم أكثر، ولا أتوقف عن التطبيق.

قَبَّلَ الشيخ عاصم ابنته وضمها إليه؛ ثم ضم عمر وقبله، وقال: وأنت ماذا فهمت يا عمر؟

تلجلج عمر قليلًا وهو يقول كلام غير مفهوم؛ ثم قال: سأفهم بعد الأكل يا أبي لأني جائع جدًّا الآن، ولا أفهم وأنا جائع.

قضى الشيخ عاصم إجازته مع أسرته، وهو مستمتع بالدفء الأسري، والحب الذي وهبه الله إياه، وصنعته الأسرة بحبهم لبعضهم والتواصل والرحمة؛ ثم ذهب في اليوم التالي إلى أبنائه طلاب الدعوة في المسجد، ليجدهم ملتفين حوله في حالة ما بين الغضب والرجاء، وبعد أن سمى الله قال: موضوعنا اليوم عن حكمة الابتلاء، واختبار التكليف في الحياة الدنيا.

قاطعه أكبرهم: أخبرنا ماذا صنع جاسر؟

الشيخ عاصم يا أبنائي، أنا سردت القصة لنتعلم منها درسًا، لا لأن نسمع قصة أو حدوتة؛ بل نرى كيفية النقاش ودعوة العصاة لدين الله، والقوة في الحق والرحمة والحب والعقل والنقل، وأنتم تركتم كل الدروس ومتمسكين بمعرفة النهاية فوق كل شيء.

أكبرهم: يا شيخنا الجليل لكل شيء نهاية وفي النهاية يكتمل المشهد؛ إذن لا بد أن نعرف النهاية، لمعرفة الحكمة كاملة.

الشيخ عاصم: وهل تعرفون نهاية الحياة، وما مصيركم بعد الموت جنة أو نار؟ الحكمة ليست في معرفة النهاية؛ بل في كيفية الاستعداد للنهاية، والنجاح في أن تكون النهاية ناجحة، النهاية ممتعة دومًا، ونحن نسمعها، وتحل لنا كل الغيبيات عنا؛ لكن الحكمة الحقيقية أن نتعلم من البدايات، وما هو كائن ونتدبره، ومن قمم الابتلاء ألا تعرف النهاية!

• أكبرهم: يا شيخنا النهاية تحدد كل الأبواب.

الشيخ عاصم: لو كنا نعرف النهايات حق المعرفة ما طرقنا أبواب البدايات، ولم يعلم بعضنا النهايات لربما تخلى عن كل ما مر به، هنا الابتلاء، ولن أحكي لكم النهاية لأنه لا فائدة منها.

أكبرهم وهو غاضب جدًّا: إن لم تحكِ لنا النهاية، فهذه قطيعة بيني وبينك.

كأن الشيخ عاصم كان يتوقع ردة الفعل هذه؛ لكن كان يكذب نفسه، ظل يتدبر وجوههم وصمتهم، وقال: أستغفر الله لي ولكم، وأستسمحكم عذرًا في الانصراف، لأن ليس لدي نهايات.

ظل الطلاب جالسون في أماكنهم؛ كأن على رؤوسهم الطير، وخرج الشيخ عاصم عائدًا لمنزله.

أول ما وصل منزله ذهب مباشرة إلى أمه، وقال: صدقتي يا أمي لم يحتملوا الاختبار.

والدته: يا ولدي لا تكن مثاليًّا، هم معذرون وما زالوا صغار لم يتعلموا حكمتك بعد.

الشيخ عاصم: يا أمي تشعرينني أني تخطيت الستين، وأنا لم أدخل سن الأربعين حتى، ولا يمكن أن أتخيل أن أرسب في اختبار بسيط كهذا.

والدته: وهل مر أحد منهم بما مررت أنت به؟

الشيخ عاصم: ما زلت متفائل، أن يصبحوا أفضل دعاة ومعلمي الوطن العربي.

والدته: ماذا ستفعل اليوم؟

الشيخ عاصم: لدي اليوم حلقة في إحدى القنوات الفضائية الدينية، ولدي لقاء مع ناشر كتابي الجديد، وغدًا كنت سأقضيه معهم في درس جديد، والأهم بعد الغد درس في مسجد في قرية نائية بعيدة، قال من دعاني: إنهم لا يأتيهم شيوخ ويعلموهم وجهًا لوجه، ويسيطر عليهم أهل البدع والخرافات.

والدته: لماذا تذهب إلى هذه القرى البعيدة لتجلس وسطهم؟! وهم من الممكن أن يسمعوك في القنوات التليفزيونية التي تظهر بها وتوصل رسالتك؟

الشيخ عاصم: يا أمي لن تصل الرسالة صحيحة للناس ويهتدوا للصواب بشيوخ فضائيات؛ بل بعلماء يمشون بينهم في الأسواق يقتدوا بهم ويناقشوهم ويسألوهم، ويأكلون مما يأكلون، وهذا نهج رسولنا الكريم ورسالته.

والدته: وفقك الله لما يحبه ويرضاه، هيا اذهب واجلس مع زوجتك وأطفالك لهم حق عليك كبير، وغدًا إن شاء الله يسعد الله قلبك.

وصدق إحساس الأم ودعوتها، في اليوم التالي جاء أكبر الطلاب ليعتذر، وهو يقول: لقد أرسلني زملائي لكي أترجاك أن تسامحني وإلا قاطعوني أبدًا، وأنا لن أنزل من هنا إلا وأنت معي.

الشيخ عاصم: أنت تكذب، لكي تداري على صمت زملائك، وتضحي لكي تربط الحب بينا والاحترام والإكبار؛ لكن أنا الرباط بداخلي لم ينقطع وأعذرهم، عيناك لا تستطيع الكذب، وهذه بذرة صالحة، اطمئن لا احتاج رجاءًا؛ بل احتاج وجود نفس صالحة معلمة هادية للنور، وأنا أراها في عيناك الآن.

أكبرهم: حفظك الله يا شيخنا، واطمئن لم أعد أريد معرفة ما حل بجاسر في النهاية.

ابتسم الشيخ عاصم وهو يعرف أن بداخله نار لمعرفة ما حل بجاسر في نهاية الأمر؛ لكن قال: فتح الله عليك يا ولدي، وهلم إلى الدرس.
وصل الشيخ عاصم المسجد هو وتلميذه، ليجد طلابه في انتظاره بشغف وحب ونظرة اعتذار في أعينهم، وبعد أن صلوا التفوا حوله، سمى الله وبدأ كلامه، هل انتهت بداخلكم مسألة أنكم تريدون معرفة ما حل بجاسر أم ما زال هذا الفضول، وسيعطل عقولكم عن استيعاب الدرس الجديد؟
رد أصغرهم: لقد استوعبنا الدرس جيدًا، ليس المهم معرفة نهايات الأحداث، المهم التعلم من الأحداث التي تمر بنا، ونأخذ منها عبرة وحكمة.
الشيخ عاصم: فتح الله عليكم، وقبل أن أبدأ الدرس الجديد أود أن أسألكم سؤالًا، هل ترون أن جاسر أسلم أم بقى ملحدًا؟
الكل جاوب بأنه أسلم إلا واحد فقط، وهو من قال قبح الله وجهه في البداية.
وبدأ الشيخ عاصم في الدرس الجديد، وظل منهمك معهم، ويسألهم، ويختبرهم حتى تأكد أنهم عادوا للاستيعاب تمامًا وشُفوا من الفضول المصحوب بوهم وحتمية الاكتمال، ويمكنهم تجاوز محن ستواجههم في طريقهم الدعوي بسرعة، حتى حان موعد الآذان، ونهضوا للصلاة جميعًا.
بعد الصلاة انتظر الجميع إكمال الدرس؛ لكنه فاجئهم وقال لهم: أنتم شغفتم بقصة شاب ذهب إلى الضلال وكان فيها الكثير من الحكم والأسباب واتبعتم سببًا، ثم جاءت اللحظة الفارقة النهاية، وأنا توقفت عن السرد وأصبحت النهاية غيبًا، إليكم الدرس، ما مررتم به هو جزء من التكليف والاختبار الذي نتعرض له في الدنيا ويكفر بسببه بعض الملحدين والضالين، قصة أن هناك أسباب نعرفها وأسباب لا نعرفها وهناك غيبيات تكشف لنا وغيبيات لا تكشف لنا، النهاية لقصة جاسر كانت مثل الجنة والنار بالنسبة للملحد غيب، في قصة جاسر كانت هناك أسباب تؤدي إلى إسلامه أو بقاءه على الضلال، إذا طبقنا قصة الغيب ونهاية قصة جاسر وشغفنا لمعرفة النهاية على الجنة والنار، كيف لطفل بريء يتساوى مع قاتل دكتاتوري في النهاية لا شيء، ستجد أن الملحد ينسف اعتقاده، الملحد كره الغيبيات وكره أن يؤمن بشيء لا يراه لعجزه عن الفهم، رغم أنه حتى لا يعرف البدايات ولم يراها، فلعجزه عن الفهم وضعفه اختياره ألا يتقيد اختار الإلحاد، عقله لم يرى أبعد مما تحت قدميه خسر الدنيا والآخرة، وتجده يدافع عن الوهم و يتصنع أنه أعلم الناس، ويحاول أن يتشبث بوهم القوة والتحكم والعلو ليداري حقارة منطقه وضعفه، وغالبًا يسب ويتهكم ليخفي العجز الكلي، العلم نفسه بكل إمكانياته لو وضع على كمبيوتر قصة جاسر وقلت له اكتب أربع خطوات سيعجز عن التحليل أو إعطاء أرقام أو نتائج مستقبلية، علمه عاجز عن معرفة حياة إنسان فما بالك بخالق الإنسان، الإنسان عدو ما يجهله ونحن يقتلنا عدم معرفتنا للغيب، وما دام جاسر لم يحكي نهاية القصة فهذا غيب يقتلنا نريد أن نعرفه، تخيلوا العلم يعجز عن معرفة نهاية حياة إنسانية، فما بالكم بنهايات القصص الربانية وإعجازها.
رد الطالب الذي رأى اللوحة في بيت الشيخ عاصم، وقال: لم تصبح ما أنت عليه الآن من فراغ يا شيخنا؛ بل بنور من الله أوتيت الحكمة لنقاء قلبك، تحياتي لك يا شيخنا.
الشيخ عاصم: أشكرك يا ولدي العزيز، وأحب أن أنوه أن أخيكم هذا يعرف نهاية القصة، وماذا حل بجاسر؟ ورغم هذا صان السر، ولم يفضحه أبدًا وكان قدر الأمانة، وأسرد لكم الآن ماذا حل بجاسر بعد أن فهمتم الحكمة؟

بعد أن تكلم جاسر بعد صدمته بخبر إسلام خاله، ظل منقطعًا لشهور طويلة لدراسة علوم القرآن والحديث واللغة العربية، ويحاول الفهم والاستنباط، ليهدم الإسلام أمام خاله تمامًا؛ لكن كلما قرأ واستنبط كلما اقترب من الإسلام، كلما زاد علمه كلما اقترب من الإسلام واهتز؛ حتى ذات يوم كان الإيمان التام حينما قرأ هذه الآيات:

-أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤)-. (الحشر)

توقف عندها كثيرًا، كأنه أول مرة يقرأها ويتدبرها، لأنه في الوقت نفسه الذي كان يقرأها فيه كانت الدولة المحتلة الإسرائيلية تعلن عن بناء جدار عازل، وهنا شعر بالتعجب والحماقة، وأنه إما غبي أو أنه كان أعمى مثل كل الملحدين -أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور ﴿٤٦﴾-. (الحج)

كان يقرأ قبلها حديث شجر الغرقد، ووجد ملحدًا يسخر من المسلمين، ويقول: -إن اليهود يختبئون خلف الشجر خوفًا من المسلمين في عصر الطائرات بدون طيار والصواريخ الموجهة وتحديد المكان بدقة بالتكنولوجيا، اليهود يختبئون خلف شجرة خوفًا من المسلمين، ويشاء الله - عز وجل - أن ينفذوا ما في الآية، ويختبئون من الصواريخ والطائرات خلف جدار، أي إعجاز هذا أن يقول لك المسلمين الذين تكرههم من ١٤٠٠ سنة ستحاربني من خلف جدار، وهذا كلام الله وتأتي أنت بعد ١٤٠٠ سنة، لتنفذ ما قالوه حرفيًّا -وقال لنفسه صدقت كلام الملحد حينما هاجم حديث الغرقد، والآن كيف أصدقه؟، لم أكتشف سوى أني كنت أعمى القلب لا أرى هذا الإعجاز في كل لحظة، الفلسطينيون الذين لا يمتلكون دبابات ولا طائرات ولا حتى قنابل ذكية، وليس لديهم حتى مصنع لصنع البنادق الآلية، واليهود يحاصرونهم تمامًا من كل مكان يبنون الجدار ألهذه الدرجة الهلع؟! ويبنون جدارًا كأننا في القرون الأولى أيام سور الصين العظيم، وينفذون كلام الله حرفيًّا، إذن هذا ليس كلام بشر؛ بل كلام إله عظيم يعلم كل شيء حتى أدق تفاصيل الغيب، واليهود نفذوا ما قاله الله - عز وجل - تمامًا، وتذكر سؤال زينب وهي تقول من الكافر الذي نصر القرآن بكفره وسيعذب عذابًا أليمًا؟ ووقتها فقط عرف الحقيقة.

ذهب إلى صديق يهودي سأله، لماذا تزرعون الغردق بكثرة في بلادكم خصوصًا في المستوطنات؟

كانت إجابته غريبة جدًّا، الغرقد نبات صحراوي ينبت بمفرده لتطاير البذور منه ولا نزرعه؛ بل هو ينمو بكثرة لا إراديًّا، والمسلمون يضخمون الأمر لأنهم لديهم نبوءة تخبرهم بخرافات.

وذهب إلى صديق فلسطيني، وسأله هل الغرقد ينمو عندكم بكثرة؟

وكانت المفاجئة أيضًا حينما قال: لا يوجد لدينا في فلسطين شجر غرقد إلا قليل؛ بل نزرع الزيتون، وهو منتشر في كل أرض فلسطين، اليهود هم من يزرعون الغرقد لخوفهم وتصديقهم للإسلام.

وقف وسأل نفسه إذا كانت كل المواقع الإلحادية وكتب الإلحاد تتكلم دون أن ترى، وتهدم الإسلام دون تحليل وتطبيق، وبأبسط سؤال نصل للحقيقة، إذن زينب صادقة هي حرب على الإسلام وليست منطق، وأعلن جاسر إسلامه عن اقتناع تام وتحول بعد الإسلام من جاسر إلى عاصم.
همهم الطلاب وهم مشوشين لا يفهمون ما قال حتى رد أحدهم: لم نفهم يا شيخنا.
الشيخ عاصم: لا، فهمتم؛ لكن الصدمة جعلتكم تكذبون أذنكم وعقولكم، من يحدثكم الآن هو جاسر.
أحدهم: كيف تكون جاسر وأنت طوال عمرك الدعوي معروف باسم عاصم صاحب الاسم القديم، إذا غير اسمه هناك ناس تناديه باسمه القديم، وكما سردت فإنك غيرته، وأنت في سن كبير ولست صغيرًا؟
الشيخ عاصم: غيرت الاسم حبًا باسم عاصم بن عمر بن الخطاب، حينما اختار أن يتزوج بنت بائعة اللبن لدينها، وأصبح جد عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، وبالطبع كلكم تعرفون قصة بائعة اللبن التي كانت تغش اللبن بالماء ونهتها ابنتها، التي صارت زوجة ابن أمير المؤمنين، وأنا كانت بداية هدايتي على يد إنسانة صالحة، وأحببت أن أبدأ في حياتي بداية جديدة، فتخليت عن اسم جاسر، واخترت اسم عاصم؛ ولأني لم يكن لي علاقات اجتماعية أو أهتم بالشأن المصري وكنت أعتبر نفسي أمريكيًا ولست مصريًا؛ فمن يعرف جاسر قليل جدًا؛ فنسيت جاسر الماضي، وعشت مع عاصم الحاضر والمستقبل حياة أجمل، ولا أحب أن أقول لكم كم عانيت في تغيير الاسم من البيروقراطية المصرية وفوت علينا بكرة.
ضحك الطلاب؛ لكن كان بهم وجوم حتى سأل شخص آخر: كيف يا مولانا وأنت بهذا العلم الرهيب والعقلية الفذة كنت ملحدًا، وشخصية جاسر إنها شخصية جعلتني أكرهه وأراه بشعًا يشبه الوحوش؟
الشيخ عاصم ضاحكًا: الفاروق قبل إسلامه كان من أشد كارهي الإسلام وهداه الله، فصار ثاني وزراء وخليفة المسلمين، لا تسألني عن السبب هو نور من الله يهبه لمن يشاء، والحمد لله الذي أحياني حتى هداني.
سأله الشاب الذي رأى اللوحة: زوجتك يا شيخنا شكلها ليس بريفي نهائيًا، كيف وأنت قلت في القصة زينب ريفية؟
الشيخ عاصم ضاحكًا بشدة: لم أرى زينب الريفية مرة أخرى في حياتي بعد أن كنت في بيت خالها، ولا أعرف عنها أي شيء، وزوجتي الحالية لم يكن اسمها زينب؛ بل كان اسمها كريستين.
رد طالب منهم وهو سعيد: احكي لنا قصة إسلامها أيضًا.
الشيخ عاصم ضاحكًا: مرة أخرى أعيد السرد سأختصرها في دقائق معدودة.
بعد أن أسلمت وقفت في مفترق الطرق، ماذا سأفعل في حياتي؟، وتيقنت أنه بعد إسلامي حياتي في مصر، وأني مصري فقط، وبالطبع جميعكم يقول الكثير يترك مصر ليذهب إلى أمريكا وأنت تترك أمريكا وتعود لمصر، أنا لم أخرج من مصر للقمة العيش، أو عانيت مما يعانيه المصريون ولا كنت أعرفه؛ لكن ما كنت أفعله في هذا الوقت أنه لدى رسالة وهدف ولا بد أن أقوم بواجبي على أكمل وجه، حتى ألقى وجه ربي، فأول ما جاء في عقلي أن أستقيل، وأعود للتدريس في إحدى الجامعات المصرية الحكومية لأعلم شباب مصر، كانت كريستين إحدى تلميذاتي، وكنت في هذا الوقت أُشرف على بحث لها، في وقت دراستي للإسلام وتعمقي فيه، لأني بعد أن أفقت وخرجت من المستشفى عدت للعمل بالجامعة في أمريكا وليس بمصر، حتى فوجئت كريستين

بخبر استقالتي، وعودتي لمصر جاءت مسرعة إلى مكتبي، وقالت يا بروفسير أنت عدت لنجاحك وتألقك، وقمت بأبحاث كبيرة، وفي طريقك لحصد النجاح والنتائج والآن تتوقف، وحاولت إثنائي بكل الطرق عن هذا الأمر؛ لكني كنت حسمت أمري وعن اقتناع وراحة رهيبة، وحينها صممت أن تعرف السبب مع وعد أن يكون سر بيننا، وحينما أخبرتها أن السبب هو أني أسلمت، ومصر تحتاج لكل عالم ومتخصص، لينهض بها ونغير صورة المسلمين في العالم، انتفضت فقد كانت تكره الإسلام أكثر مما يكرهه جاسر، وتركت حوار الاستقالة، وتكلمت عن الإسلام بطريقة جاسر وأسوء، وإذا كنتم تريدون معرفة كيف أسلمت تذكروا حوار زينب مع جاسر؟ هكذا كان حواري مع كريستين نفس الحوار تقريبًا، حتى سافرت لبلدي وتركتها، بعد عدة أشهر علمت أنها تريد إعلان إسلامها في الأزهر، وكانت من أسعد المفاجآت وأصعبها أيضًا، وكانت سببًا في تغير مستقبلي لحظة إسلامها، وسأحكي لماذا فيما بعد، السعادة تعلمون لأنها أسلمت، وكنت سببًا في هذا، الصعوبة إعلان إسلامها في مصر، خشيت حينما تأتي لمصر، وترى حال المسلمين والتخلف في بلادنا يهتز إيمانها وتصعق؛ فأخذت أحدثها عن ثقافة الزحام والفقر وغياب عدالة القانون على الجميع والعشوائية السكنية والفكرية في المجتمع، وأنه لا يمثل الإسلام؛ لكنه نتاج فساد النظام؛ لكن الأغرب أنها حينما أتت لمصر وكانت معي أحبتها جدًّا، لأنها وجدت عاطفة في المصريين، وحسن أخلاق في الغالبية، والود، وتقريبًا المصريين طباعهم تكن جميلة مع الأجنبي، وهذا كان من حسن الحظ، الأغرب أنها قالت ستعود لأمريكا وتقدم استقالتها وتشارك في تعليم المصريين، وبعدها سقتني مشروب أصفر، وغررت بي وتزوجتني.

ضحك الطلاب ومعهم الشيخ عاصم حتى قال أحدهم: وكيف أصبح اسمها زينب؟ ومن اختاره؟

الشيخ عاصم: حينما أعلنت إسلامها كان لا بد أن تختار اسمًا آخرًا، سردت لها قصة زينب، واقترحت لها الاسم، وهى فرحت جدًّا ووافقت به.

أحد الطلاب: كيف غير إسلام الدكتورة زينب مستقبلك؟

الشيخ عاصم: حينما عدت لمصر قدمت أوراقي لأفضل جامعة مصرية حكومية من حيث التصنيف وأنا في ذهني أني سأبني علماء، واصطدمت بواقع مخيف، لا تدريس ولا دراسة في مصر، مجرد تلقين وحشو عقول، لا معامل ولا مختبرات ولا حتى معامل أشعة كيف لفيزيائي يدرس نظريًّا؟! حقيقة الطلبة المصريين عباقرة؛ لكن نظريًّا لا فائدة، كنت أشعر أني أدرس مبادئ الفلسفة أو علم النفس، شعرت بالفشل استقلت من الجامعة، وانتقلت لجامعة خاصة عسى أن أجد بها الإمكانات، والنتيجة كانت أسوء، حتى ذات يوم كنت أصلي الجمعة، وكان الإمام تقريبًا حافظًا يردد كلام فقط، بلا روح أو نورانية لمن يستمعون، حتى انتهت الصلاة وخرجنا، وجدت طفلًا عمره لم يتجاوز الثانية عشر يقول: هذا الشيخ كاذب يقول كلام ولا يفعله، أنا أعرفه فهو جارنا، ولقد رأيته أول أمس يفعل كذا وكذا، ويقول هذا الكلام لصديق له؛ فخشيت على الطفل من ضياع الالتزام بالدين بسبب التناقض، فاستوقفته وأخذت أحدثه عن الدين، وأن هذا الشيخ ليس هو الإسلام أو يمثل الإسلام، ولا يمثل حتى كل الشيوخ، إنه يمثل نفسه فقط، ولا يصح لو رأينا مسلم سيئ أن نقول كل المسلمين سيئين، ولو رأينا شيخ سيئ نقول إن الشيوخ سيئين، ولومته لأنه فضح الإمام، وهذا حرام، وحدثته عن فضيلة الستر، وسردت له بعض قصص الأثر وفضائل الإسلام، والغريب وأنا منهمك وجدت بعض الناس التفت حولي تسمع، رغم أن المصريين يخرجون من صلاة الجمعة وهم يريدونها أن تنتهي بسرعة؛ لكن هنا ملتفون حولي، وأنا أتكلم وهم يقولون أكمل يا

شيخنا، رغم أني لست شيخ بل مجرد قارئ متعمق في الدين، وبعد أن انتهى الموقف وعدت لبيتي، جاء موقف إسلام كريستين ليجعلني أتأكد أني أصلح لطريق الدعوة، واتخذت قرار الدعوة لأسباب عدة.

أكبرهم: اذكر لنا بعض الأسباب يا شيخنا.

الشيخ عاصم: لكي تتقدم بلد عليها بالأخلاق والعلم ثم العلم ثم العلم، وهنا راجعت نفسي الأخلاق تنحدر حتى في أوساط المثقفين، والنظم في مصر تحارب العلم، أي دولة تحتاج نظام يرعى وعالم يبدع، ولا بد أولًا من نظام يجعل العلم أولويته، العالم المبدع دون قيادة حكيمة لن يجد من يعوله، ولا يوفر له مقدمات النجاح، هنا لا بد من دعاة يؤهلوا المجتمع لهذه الحالة، ولم أجد في مصر دعاة يناضلون من أجل إصلاح التعليم والأخلاق؛ بل أشعر أنهم مشغولون بأكل العيش أكثر، والكثير تخلى عن رسالته، وهناك مهن لو تخلت عن رسالتها كان انحدار المجتمع أسرع الداعية، معلم الدين، معلم المدرسة، القاضي، الإعلامي، تعمقت في دراسة الدين، وأخذت إجازات من المعاهد المتخصصة، حفظت القرآن كله والأحاديث، ودرست قواعد الفقه، ونذرت نفسي لإصلاح الأسرة المسلمة، والحديث عن العلم وأهميته، ومن لا يصلح التعليم في بلده؛ فإنه يخون دينه ووطنه، نحتاج بشدة للعلم الديني والدنيوي الأخلاق والعلم قضيبي قطار الحضارة.

أصغرهم: وزوجة حضرتك ماذا عملت بعد أن عادت لمصر؟ وما أغرب موقف مرت به بعد إسلامها؟

الشيخ عاصم: زوجتي ظلت دكتورة متخصصة في الفيزياء كما هي، وحينما أنجبت طلبت أن تأخذ إجازة بدون مرتب وتتفرغ لطفلتنا، أما أغرب موقف تعرضت له لم يكن في مصر؛ بل كان في أمريكا، حينما أسلمت وهي تقف مع صديقة لها، وهي مرتدية الحجاب، جاءت بنت وشدتها من الحجاب وقالت لها لماذا تقتلوننا؟ الأغرب أن زوجتي أخذت تضحك حينما فعلت هذا الفتاة، رغم أن صديقتها كانت تود شكوى الفتاة؛ لكن تعجبت من ضحك زوجتي، ولم تهدأ إلا حينما عرفت سبب الضحك، وسبب الضحك أن زوجتي قبل إسلامها رأت فتاة محجبة جذبتها من الحجاب، وقالت نفس الكلام؛ فشربت من نفس الكأس؛ لكن هذه المرة كانت تشفق على من تجذبها، وتدعو لها بالهداية.

أحدهم: أنت لا تمتلك سيارة وشقتك بسيطة رغم أنك قلت إن جاسر كان غنيًّا جدًّا بثراء فاحش؟

الشيخ عاصم: ما بيني وبين الله لا أحب أن يسألني عنه عبد الله.

طالب آخر: أيهما تحب أكثر زينب التي كانت طريقة الهداية أم زينب زوجتك؟

الشيخ عاصم: أنا لم أحب أبدًا في حياتي إلا زوجتي، كل ما كان قبلها هراء، أنا كنت أتعامل معها قبل الزواج بشكل لا أرى فيه حب، وأتمنى زينب زوجتي، وأشعر أن النجاح والطموح والأمل والهدف والإبداع، لا معنى له إلا معها ما فائدة الحياة بدونها، إنها متمكنة في دينها وتستطيع إكمالي، كيف تكون للحياة معنى دون جمالها وإحساسها وكل لحظة تشاركني إياها، وأتعامل مع زوجتي كأي إنسان وكل يوم ودون أي مشاعر متصنعة مني، تبدع وتزيديني إبداعًا، تتفوق تتحدى الظروف جمال وإنسانية وانسيابية وروح تجعلني اقترب، لأكتشف أنها تكملني وتجملني ودون تردد تزوجتها، لأقسم لكم أني لم ولن أعش حب مثل هذا، وهي أول حب وخرافات و و .. كله وهم وخرافات، لأن دائمًا المفقود غالي، وما بين يدينا ليس ثمينًا حتى نفقده نشعر بغلائه، عقد إنسانية بشعة لو تمتعنا بما في يدينا، وأعطيناه ربع ما نعطيه للمفقود الذي نندم عليه لتخطينا نصف

تعاستنا، هي نصيبي فعلًا زوجتي نصفي الثاني يا لله على الإبداع الرباني بداخلها، الحمد لله الذي حرمني من زينب ورزقني بزوجتي، كنت سأخسر الكثير، أجمل حب في الدنيا هو الذي بين يديك، ويعطيك الحب فلا تخسره، وتندم عليه كثيرًا، خصوصًا أنه حب في الحلال، حب يدغدغ المشاعر، حفظها الله لي ويارب قدرني على إسعادها وموافاتها حقها.
طالب آخر: من هو أكبر عدو للإسلام يا شيخنا، الملحد أم اليهودي؟
الشيخ عاصم: أكبر عدو للإسلام هو الملحد المتأسلم، والشيخ المتطرف، وشيوخ السلطان.
رد الطالب: لا أفهمك يا شيخنا!
الشيخ عاصم: الملحد المتأسلم هو المنافق الذي يتصنع أنه مسلم، ويهاجم الدين ليل نهار بدعوى الحداثة، وينكر أحاديث وأحكام إسلامية، وهو ليس برجل دين، ولا عالم دين، ويشكك الناس في دينهم، ويحاول هدم التراث الإسلامي ورموزه، ويسبهم ليهدم بعض أحكام الإسلام جزء بجزء، وهو يتصنع أنه مسلم، ويخلق اضطراب في إسلام بعض الضعفاء، وشيوخ التطرف هم يفسدون الإسلام والأحاديث بصفة تضفي القسوة والعنف والتطرف على الإسلام، ومن يخالف يكفروه حتى لو كان عالمًا مسلمًا، ولديهم جمود مع النص، ولا يعلمون بأحكام الفقه، حق العلم وجمودهم وتطرفهم يعطي أسوأ صورة للإسلام، أما شيوخ السلطان الذين يحرمون مقاومة الظلم ولا يقولون كلمة الحق، ويلوون عنق الدين لخدمة مصالحهم، ولا يعرفون كلمة الحق.
وأخطر ما يحارب به الدين يا ولدي هو تقولب الدين؛ حينما كنت مع زينب قديمًا كنت أنسب الإسلام للقاعدة، ولما أسلمت وجدتهم يحاولون تدعيش الإسلام، نسب الإسلام لجماعة يكرهها الناس؛ وحينما يتكلم إنسان في الدين يتهمونه، هل أنت تبع جماعة كذا، ويخشى الناس الكلام في الدين؛ حتى لا يتم اتهامهم بأنهم تبع جماعة، ومحاولة نسب الرموز الإسلامية مثل النقاب واللحية إلى جماعات رغم أنها رموز إسلامية، إنه هجوم ممنهج على الإسلام لمحاولة هدمه، ليس الملحدون الخطر الأكبر، خطورتهم تظل أقل حتى من اليهود الذين يسيطرون على إعلام العالم كله؛ حتى الوطن العربي ككل؛ لكن الخطورة الأكبر من داخلك، الخائن للدين من أهلك، ولا أحد يركب ظهرك إلا إذا كنت منحنيًّا، وهؤلاء يحاولون أن يحنون ظهورنا.
أحد الطلاب: كيف ننجح في مواجهة هذه الحرب إنهم أقوى منا بكثير ولديهم المال والقوة؟
الشيخ عاصم: لن تغير شعب أو أمة وتجعلها من الملائكة لم يحدث على مدار التاريخ أن كانت هناك أمة من البشر لا يخطئون ولا يذنبون؛ لكن تستطيع النجاح عن طريق زرع الأخلاق، أن تبدأ بأهلك وتلاميذك، وتكن قدوة فعلًا وقولًا، وكل منا يفعل ذلك ونتجه للطبقة المثقفة؛ لأنها فكريًّا هي الطبقة القائدة تحاول تقويم أخلاقها أو حربها إن كانت تهدم دينك ودولتك، ويكون همك الأول قبل هذا أن تهدم الفساد داخل بلدك ومجتمعك، لا تستطيع البناء فوق أرض فيها قاذورات ينهدم البناء، نظف الأرض من الفساد وطهرها؛ ثم ضع أسس الأركان والنجاح الأخلاق والعلم.
طالب آخر: من الكافر الذي نصر الإسلام بكفره وسيعذب عذابًا أليمًا؟
الشيخ عاصم: اقرأ الجزء الثلاثين بتدبر، وستعرف الإجابة.
الطالب: قرأت ولم أعرف.
الشيخ عاصم: إذن سأقول الإجابة وقتًا لاحقًا.
ثم نهض الشيخ عاصم، وقال وإلى لقاء آخر إن شاء الله.
خرج الشيخ عاصم من المسجد، وطلب أن يتمشى بمفرده لا يوصله أحد.

مشى الشيخ عاصم بمفرده يريد الذهاب إلى مكان لا يعرفه؛ لكن في كل مكان الناس كانت تعترضه وتسلم عليه.
حتى اقتربت فتاة منتقبة تريد أن تسأله في مسألة دينية، وقالت له: هل تأكدت أن الإسلام يصون الحرية الفردية والمجتمعية أكثر من العلمانية في إطارها الصحيح، وليس الإطار الهدام يا شيخنا الذي جدد شباب الإسلام؟
ابتسم الشيخ عاصم، وقال: الفضل لله ثم لكِ يا أخت زينب.

تمَّت

للتواصل مع الكاتب

http://FB.com/mahmoud.omar.adab
لتقييم الرواية علي جود ريدز
http://www.goodreads.com/user/show/61662777-mahmoud-omar
بتكتب روايات.. قصص.. شعر أو مقالات
بتكتب عربي أو انجلش..
أو حتى بترسم.. تواصل معانا وهنساعدك تلاقي مكان لابداعاتك
تواصل معنا:
01067000701
website: www.fasla.org
E-mail: Fasla.Pub@Gmail.com
Facebook.Com/Fasla.Pub